المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

مايكل كارسون

أصدقاء وكفار

ترجمة: سمير محفوظ بشير

1554

سلسلة الإبداع القصصى

أصدقاء وكفار

(روايــة)

المركز القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة: الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة : خيرى دومة

- العدد : 1553
- أصدقاء وكفار
- مايكل كارسون
- سمير محفوظ بشير
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة رواية:

Friends and Infidels

By: Michael Carson

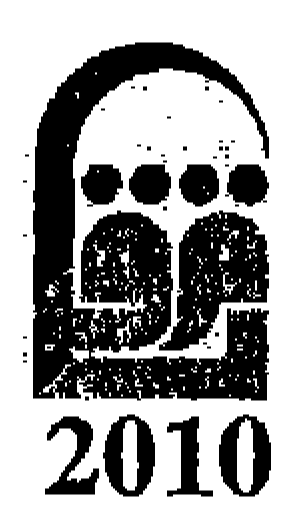
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

أصدقاء وكفار

تأليف : مايكل كارسون
ترجمة : سمير محفوظ بشير



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كارسون، مايكل
أصدقاء وكفار/ تأليف: مايكل كارسون؛ ترجمة: سمير محفوظ بشير
ط١ - القاهرة، المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠
٤٤٤ ص؛ ٢٠ سم
١ - القصص الإنجليزية
(أ) بشير ، سمير محفوظ (المترجم)
(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠١٠/٣٠١٥
الترقيم الدولى (I.S.B.N. 978 - 977 - 479 - 850 - 9)
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

---

(١)

المنطقة الشرقية من إمارة" رأس الصرة" ما زالت بعيدة ودروبها المتشعبة مرسومة فى خريطة من النادر أن يطلع عليها أحد.

بلدة "سفينة" تعتبر هى أكبر البلدان فى هذه المنطقة، كانت إلى عهد قريب هى أبعد بلدان الإمارة. كل ما له صلة ببلدة سفينة وتطل به على العوالم الخارجية تجده متمركزا فى اتجاه البحر، حيث تبدو البلدة وكأنما قد أدارت ظهرها للصحراء والجبال التى تقع خلفها. أكواخ هذا البلدة تناثرت على شريط طويل بقرب البحر بعرض لا يزيد عن ثلاثة أميال. فى وسطها تناثرت بعض البيوت المشيدة بالطين اللبن تخص بعض التجار الموسرين.

فى الأيام الخوالى، إذا راودك الفكر أن تزور "سفينة" من الجهة الصحراوية خلفها، ستضطر أن تتفاوض مع سلسلة لا تنتهى من السدود والمرتفعات الطبيعية وأيضا ما هو من صنع البشر. فى طريقك سوف يقع بصرك على أبراج قميئة للمراقبة وقواعد لتحصيل المكوس والجمارك، وهذه قد بنيت خصيصا لكى تحمى المداخل المؤدية لتلك البلدة

من الغزوات التى يشنها بين الحين والآخر بعض البدو الرحل المتوحشين الذين دأبوا على مهاجمة طرق التجارة. أخيراً وأنت فى مجال رؤيتك للمدينة، تشاهد مدا بحريا يمكنك تجنبه إذا استطعت أن تسير فى سهل يحفل بالكثير من بقع الرمال الخادعة المتحركة. كل هذه العوائق تخدم هذه البلدة وتجعلها منيعة بسبب احتضان البحر لها. من هذا البحر حصلت على ثروتها من الأسماك والعبيد والتوابل. أهالى سفينة دائما ما يتطلعون إلى الأمام نحو البحر الذى يحمى ظهورهم.

يقال إنه منذ زمن بعيد موغل فى القدم، رحل عدد من رجال سفينة ووصلوا بمراكبهم ملاصقين للسواحل الشرقية من العربية حتى استقر بهم الحال على شاطئ شرق البحر الأبيض المتوسط. هناك شيدوا مدنا جديدة زاهرة وعاشوا هناك.

اسأل أى فرد هناك عن القطر الذى يعيش فى ظله، سوف يقول على الفور "سفينة". تظاهر أنك لم تستمع لإجابته، ثم اسأل "لا، ليست بلدتكم، أطلب معرفة اسم دولتكم". مع ذلك سوف تصطدم بنفس الإجابة، إنها "سفينة".

إلا أن الأمير الجديد الذى يحكم الآن إمارة "رأس الصرة" يسعى جاهدا أن يغير من شكل هذه الإجابة القديمة. يسعى جاهدا لأن يجعل السكان الحاليين ينظرون حولهم ويدركون أنهم جزء من كل كبير.

لذلك افتتحت المدارس لكى يتعلم الأطفال حفظ القرآن وكذلك مبادئ القراءة والحساب، لذا نجد أن الغرباء قد تدفقوا لكى يقوموا

بالمهام التى لا يستطيع أحد من أهالى رأس الصرة القيام بها. هؤلاء يتكونون من مدرسين مصريين بكروش بارزة؛ سباكين من باكستان، مستشارين من فلسطين. جميعهم ليس لهم هدف مشترك سوى الحصول على الماهيات الضخمة التى يتقاضونها بعد تدفق البترول بغزارة فى هذه الإمارة، وما تمثله هذه الأموال لعائلاتهم القابعة فى مواطنهم الأصلية.

يوجد فى تلك البلدة أيضا رجلا إنجليزيا يرأس مجموعة تسمى "المباحث" اسمه مستر نيكلسون؛ أيضا هناك مرسلة أمريكية الجنسية تدعى السيدة مارى آن سيسون، مقرها الدائم هو عيادة طبية حوائطها وسقفها من الأسبستوس تطل على الخليج؛ هناك أيضا جنديا بريطانيا عتيقا، هو "هيبورث" الذى يرأس ما يسمى بفرقة الصحراء. كل هؤلاء، ما عدا القليل منهم، لا يحوزون اعتبارا فى عيون أهالى "سفينة" ودائما ما ينظر نحوهم كأنهم بدائل عن هؤلاء الأفارقة الذين يتنفسون ويمرحون الآن فى الأجواء الثرية فى عاصمة الإمارة، وبذلك يزيدون من درجة تسيد اللون الأسود ويجعل الذكريات تتداعى بأشكال الآلهة الأفريقية، باعثين حياة مرحة فى ليالى العاصمة بدقات طبول خاصة.

مؤخرا، تضخم هذا الوجود الأجنبى بشكل بالغ بالرؤية العرضية لجماعة من الفرنسيين الضامرين المكتسين ببنطلونات زرقاء قصيرة وهم يشيدون الطريق الإسفلتى الذى سوف يربط العاصمة بعدة مدن من ضمنها سفينة ويبلغ طوله ٣٥٠ كيلومتر. عندما ينتهى هذا الطريق، فإنه سوف يحمل إلى سفينة محطة توليد الكهرباء لكى تضىء سمائها

وتخيف نجومها، سوف يسوق إليهم أيضا المزيد من الأجانب الذين يحرصون على طرق مجاهل تلك الإمارة ويزورون العاصمة حيث استقرت معامل تكرير البترول ويشعرون كأنهم قد امتطوا سجادة سحرية منحهم إياها القرن العشرين. هناك يترقبون مندهشين هؤلاء البدو وبحارة المراكب الشراعية القادمين من نواح مثل بلدة سفينة وهم يلوون أعناقهم جيئة وذهابا متجنبين أن تدهسهم تلك السيارات التى تمرق سريعا فى شوارع العاصمة، يلاحظون أيضا نظرات هؤلاء وهى تستجلى مظاهر الثراء الفاحش المحيط بهم، أيضا يتحسسون تلك البضائع اليابانية التى لا يستطيعون مقاومة الحصول عليها بالرغم أنهم لا يفهمون طريقة تشغيلها إلا بجهد جهيد.

عندما ينتهى الطريق الفرنسى، سوف يلقى فى الأحضان إما بركة أو لعنة، هذا راجع إلى وجهة نظرك.

معظم القاطنين سوف يقولون إن الطريق سوف يستحضر معه البركات. هذا ما تنطق وتعبر عنه المبشرة الأمريكية. إنها تتوق وتتشوق الحصول على الأدوية والعقاقير وأيضا على المساعدين المدربين القادرين على مساعدتها فى حربها ضد الأمراض. أصحاب الحوانيت أيضا سوف يرحبون بالطريق الجديد وكذلك المدرسين المصريين المعزولين والبعيدين عن وطنهم. لكن ربما تجد أمامك ذلك الإنجليزى المخضرم المنتمى إلى المدرسة القديمة التى ديدنها هو الإعجاب بالمعالم العربية الموغلة فى القدم، إنه سوف يتنهد وهو يتذكر موكب الجمال وهى تتمخطر فى سيرها فوق

كثبان وراء كثبان من الرمال ووجهتها هى المجهول. إنه سوف يمقت انبعاث الكهرباء وتلك الأعاجيب اليابانية. هو سوف يذكر، والعهدة على الراوى، أنه هو كان هناك "قبل كل شىء كائن!". لقد رأى بعينيه تلك الأبواب المنقوشة ببراعة، شاهد العرب وهو يبحرون فى قواربهم ذات الشكل المبين، هو أيضا عاصر نهايات تجارة الرقيق، واستمع إلى النداء العالى للصلاة قبل انسدال ستار النهار وقدوم الليل البهيم، حيث تمتلئ السماء بملايين النجوم.

مع ذلك، تجد المخالفين لرأيه يصرخون قائلين، "لكن الإنسان لا يمكن أن يعيش فى خضم هذا الأسلوب غير المتحضر، أليس كذلك؟"

بلا خجل، ينطق المغرم بالعربية القديمة قائلا، "فى الحقيقة يا سيدى أنا احسد هؤلاء الناس حياتهم التقليدية التى جوهرها هى الحرية ثم الحرية".

آه، نعم. الحرية. فى الواقع من الممكن أن يحسد الإنسان الحرية التى يتمتع بها هؤلاء الناس ويحبذ تماما عدم تواجد الضوء الكهربائى كذلك ندرة الحصول على الأدوية التى تعالج الأمراض. إلا أنه عندما تتواجد المرسلة الأمريكية فى تلك الجلسة، سوف تلاحظ إنها قد زمت شفتيها وبان الغضب على محياها، ثم تعدد أمامك كم الأمراض والبلايا التى تحفل بها "سفينة". سوف تقول إنه على الجانب الآخر من امتداد الخليج، هناك قرية اسمها "ظاروت"، هنا خلال الأسبوع الفائت اكتشفت تواجد ثلاثة حالات مرضية بالجدرى. السبب بالطبع يكمن فى نوعية مياه

الشرب، هذا إذا أمكن لك أن تدعوها بهذا الاسم أصلا، فهذه المياه تحفل بكل مسببات المرض والموت. تقول الحرية إذن؟ بالطبع هناك حرية متاحة للزوجة أن تنتحب وتلطم الخدود وأن ينشغل الرجال بالنحيب والعديد بسبب فقدان أحبائهم. هذه كلها هى بعض مظاهر الحرية، لكن إذا....

لكل هذا، نجد أن سفينة تهفو إلى حدوث تغيير ما. إذا أنت استطلعت مكان السوق التجارى للبلدة، سوف تلاحظ أن بعض تجار السجائر والأجهزة قد جهزوا فعلا بعض النصب الكهربائية وعلقت فوق مقدمة حوانيتهم وقد تدلت منها الأسلاك فى انتظار قدوم محطة الكهرباء الموعودة. هناك أيضا صورة ضخمة لأمير البلاد تزين أفضل مكان من واجهة مكتب البريد المبنى من الطين. أيضا يتواجد حبل طويل من اللمبات شكل على هيئة شعار وطنى فى انتظار أن تحل فيه الكهرباء. أيضا يتواجد داخل مخازن هؤلاء التجار أوان كهربائية لسلق الأرز وأجهزة تليفزيون صغيرة الحجم وقد غمرت الرطوبة مكوناتها. هنا نجد هؤلاء المستثمرين وقد انخرطوا فى حسابات فكرية معقدة يفاضلون ما بين مظهر التخلف والتأخر المقارن بالرجاء والنعيم القادم، قابضين على مسابحهم يكرونها فى عجل متمنين أن يبذل الفرنسيين جهدا أكبر فى إتمام إنشاء هذا الطريق الأسفلتى.

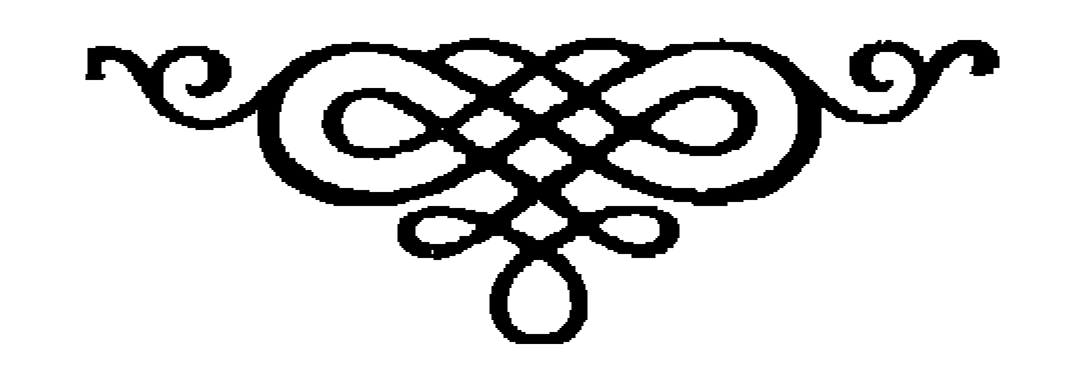
صيادو السمك وهم يحتسون الشاى يتوجعون أيضا وقد استقر بجوارهم سيارة تبريد ضخمة يمتلكونها على المشاع. إنها سوف تنقل أسماكهم الوفيرة السمينة إلى العاصمة، بذلك يحصلون على دخل وفير.

كل هذا سوف يتحقق بوصول الطريق حتى بلدتهم. الطريق هذا بالنسبة إليهم هو كائن حى، هو ثعبان ملتو خطير، عرينه فى العاصمة حيث يرد إليهم كل ما تشتهيه الأنفس. وعندما يفرد هذا الثعبان جسمه كاملا سوف يرفع الجميع إلى جنات من الرخاء والعز والراحة. سوف تسير قاطرتهم على هذا الطريق بكل جلال وليونة. فى الوقت الحالى، يمكن لهذه القاطرة أن تصل العاصمة مستخدمة طريقا وعرا غير ممهد وبمشقة بالغة.

الق نظرة أخيرة على "سفينة". امتطى ظهر مركب شراعى وأبحر قليلا ثم الق بالمرساة فى قلب البحر. سوف تكون قادرا حينئذ على الإحاطة بكل ملامح المدينة وأن تحصر الأضواء الخافتة التى تشعها آلاف من المصابيح التى تعمل بالكيروسين. هذه الأضواء التافهة لا تؤثر إطلاقا على لمعان وجلاء النجوم فى العلا، ولا تؤثر إطلاقا على امتداد البحر الهادئ حولك. الأمواج المتهادية تخبط جوانب قاربك والأسماك تتقافز هنا وهناك باعثة أضواء فسفورية لحظية والمياه تنقل إليك الأصوات الصادرة من البلدة كذلك دقات طبول مصدرها قرية "ظاروت". تستمع أيضا لصيحات أم تؤنب ابنها الذى تأخر فى العودة للبيت بالرغم من قدوم الظلام. تتبين أيضا أصوات ماهاجونية مصدرها دائرة من الرجال تجمعوا حول مصباح كيروسينى راسما بذلك واحدة من لوحات رامبرانت الشهيرة. فجأة تمتلك رغبة ملحة أن تغطس فى البحر لتدرك ذلك السحر الفوسفورى الذى لاحظته صادرا من الأسماك حولك. أنت فى توق أكيد أن تكون عنصرا فاعلا من عناصر السحر والخيال.

لكن نفاجأ بعودة "نيكلسون" إلى مستعمرته التى تقع بأسوارها فى منتصف البلدة تماما. يستغرقه غضب جامح لأن مستعمرته غارقة فى الظلام، لذا نسمع صراخه مؤنبا خدمه بسبب عدم تشغيلهم للمولد الكهربائى. بعد عدة محاولات تنبعث الحياة فى هذا المولد فتشع الأضواء من اللمبات التى تناثرت حول سور المستعمرة وأيضا ينير المقر الخاص بنيكلسون كذلك مقر الخدم، بذلك يستقر هذا الرجل فى قصره هانئا مطمئنا مستمتعا بقضاء ليلة أخرى هنيئة - لكن بالنسبة لك أنت، الجاثم فوق ظهر المركب الشراعى، تلاحظ أن السحر قد بهت وخفت. فالأضواء الزاعقة التى مبعثها مستعمرة هذا الرجل قد أوضحت بشكل زاعق كم الظلام الذى يستغرق باقى البلدة، بينما صوت المولد المزعج احتوى بداخله كل الأصوات الإنسانية الأخرى، أما طبقات النجوم فوقك فقد بدت أقل كثافة والسماء ذاتها فقدت الكثير من سحرها وغموضها.

فكرة أن تخلع هدومك وتغطس فى البحر لم تعد فكرة ملائمة. وأنت عائد إلى الشاطئ بكل تؤدة، تفكر، ما الذى فعله نيكلسون هذه الليلة!



(٢)

نيكلسـون هذا سـوف يكون المنتفع الأول للتغيير القادم الذى سوف يطرأ على البلدة. هو يقطن فى مستعمرته القريبة إلى شاطئ البحر–هو مكان مرتب وجميل يتكون من مكاتب لونها أبيض، وأماكن أخرى لإقامة البدو الذين يخدمونه ويؤدون المهام التى يكلفهم بها. هذه المستعمرة لديها إمكانيات الإضاءة الكهربائية وذلك باستخدام مولد ماركة ليستر، كذلك تتناثر أشجار النخيل والورود والأزهار فى كل مكان داخل المكان، أما مسكنه الخاص فإنه يطل مباشرة على المحيط الشرقى.

لقد جاهد هو لكى يخلق لنفسه شعورا بأنه فى مكانه الطبيعى– فهو لديه وظيفة هامة يقوم بها على أكمل وجه، طبقا لوجهة نظر من يعلمون ما تستلزمه تلك الوظيفة من مهام. هو أيضا يعيش فى رخاء ووفرة، فكل ما يشتهيه يرد إليه مباشرة من عاصمة الإمارة داخل طائرة تحط فى منطقة صحراوية تبعد خمسة أميال وراء سفينة. هو أيضا يفتخر بان لديه "التلكس" الوحيد فى كل المنطقة الشرقية.

لذا من المعقول التفكير، ما هو واضح وجلى أن نفترض أن هذا الرجل سوف يقف وراء الرخاء القادم معضدا. أليس هو أول حراس تلك

البلدة ويعتبر راعيها الذى يأمل دوما فى تقدمها ورخائها، أليس هو الأجنبى الوحيد المتمتع بكل خيراتها وهو الذى أشار بأن تنشأ كل تلك المشاريع لخدمة الكل؟ لكن على أية حال، ليس كل ما هو واضح ومعقول نجده متوافقا مع فكر وظنون الناس. فى الحقيقة، لم يرحب نيكلسون بالضياء والرخاء القادم. هو لن يكون أسعد حالا عندما تنعم البلدة بضياء براق. احتمال ورود الإنارة ليتمتع بها كل إنسان هنا يزعجه ويكدره. الضوء الكهربى سوف يسلب "سفينة" من الغموض الذى يكتنف "أبحاثه الخاصة"، كذلك يجعل المنطقة ككل موردا حسنا لقدوم رواد جدد من خارجها. بشكل بطئ ومتصلب، هذا سوف يؤدى إلى نحات فى المزايا التى يتمتع بها هو بمفرده، وأيضا سوف تتعرض أعماله لمزيد من التساؤل والاستفسار.

فى ليلة، ليست من زمن طويل، لم تكن هذه الاعتبارات لها أفضلية عظمى فى عقل نيكلسون، لأن كل اهتماماته كانت منصبة نحو خادمه الهندى "جون دى لوبو".

هذا ما صرح به لزميله فى الوطن وطبيعة العمل أيضا "هيبورث" الذى يشغل وظيفة رئيس فرقة البدو الصحراوية. حدث هذا وهما مجتمعين على راحتيهما فى الفرندة وفوقهما سماء ليلية بعد عشاء فاخر قدمه لهم الخادم جون. قال نيكلسون لزميله:

– هذا الخادم الأحمق يريد أن يترك العمل لدى ! المغفل يظن أنه قد جمع قدرا كافيا من الدراهم يستطيع أن يبدأ به مشروعا

لافتتاح محل لبيع الهامبورجر فى بلده دلهى. عرضت عليه أن أزيد مرتبه، لكن بلا فائدة. إنه مصمم. يقول إنه غير قادر على الاستمرار فى تحمل المعيشة فى "سفينة".

– بالتأكيد تستطيع يا سيمون أن تعثر على خادم هندى آخر، بل من الممكن أن تعثر على اثنين بأقل من درهم واحد هنا فى سفينة.

– نعم، عندك حق. فمنذ أن استولى "فضل" على حكم هذه الإمارة وأصبح من الممكن الحصول على دستة من الخدم بأرخص الأسعار. لكن من يستطيع منهم أن يطبخ ويكوى مثل جون. هؤلاء نادرى الوجود، هذا ما أنا واثق منه.

ثم احتسى نيكلسون كأسه حتى الثمالة. مال نحوه هيبورث قليلا إلى الأمام قائلا:

– ما أنت فى حاجة حقيقة له هو زوجة أيها العجوز.

– البراندى من نوع فاخر. أليس كذلك؟

كانت هذه هى ملاحظة نيكلسون وهو يتجاهل ما اقترحه زميله. قال ذلك بصوت حاد وباستياء لأن هيبورث لم يعلق على نوعية الخمر المقدمة إليه. ثم استأنف القول:

– فى الواقع ما أنا فى حاجة إليه من الخادم القادم من "رأس الصرة" أن لا يبول على ثم يتركنى كأنه لم يفعل شيئا.

هيبورث وهو سعيد لأنه استطاع أن يمس وترا حساسا في فؤاد نيكلسون عندما ذكر موضوع الزواج، أخذ يهز رأسه كأنه يعلم كل شيء، بينما هو منهمك فى إشعال سيجارته، ثم وهو يحاول أن يزيد من مقدار مضايقته لنيكلسون، عرج نحو ذكر موضوعات قديمة - طاعنا بحربته فى جثث ماتت وتحللت منذ زمن بعيد - كان ينهمك فى سردها بهدف تمضية الوقت وتوضح بجلاء أنه ليس هناك جديد يمكن أن يتناقشا فيه. قال:

- لا يمكن أبدا أن تعتمد على السكان المحليين. هم ليسوا على دراية كافية باحتياجاتك.

التقط نيكلسون الطعم، بالرغم أنه كان مدركا أنه يبتلعه، شاعرا بابتهاج غامر لأنه متأكد أن هيبورث لا يعلم أنه يعلم، لذا قال بحدة:

- بالطبع من الممكن أن يدربوا. انظر لما تفعله السيدة الأمريكية مع معاونيها المحليين وكيف أصبحوا ممرضين ممتازين.

تملى هيبورث فى عقب سيجارته بإمعان، ثم تبسم متكلفا:

- بالطبع، بالتأكيد يمكن تدريبهم".

- لقد سمعت أن الفتيان الواردين من قرية "جهيل" يمكن أن يصبحوا خداما ممتازين.

تساءل هيبورث:

- أنا لم أسمع عن هذه القرية. هل هى فى داخل البلاد؟

- هى أول قرية تقابلك وموقعها على الساحل أيضا. كنت أظن أنك تعرفها وأنا أعلم أن بعض من فرقتك البدوية يجوبونها مرتين فى الشهر.

هز هيبورث رأسه:

- آه، نعم. إذن هذه هى جهيل.

لكن نيكلسون رفض أن يعترف بأن هيبورث ربما يكون قد تعرف فعلا على القرية، لذا أضاف:

- إنها قرية ضئيلة الشأن يسكنها صيادون للسمك بقواربهم القميئة. هى تقع فى المكان الذى يتلاقى فيه الوادى الكبير مع البحر. بالطبع لا يمكن لك أن تقود سيارتك إلى هناك ولا حتى باللاندروفر. يجب أن تستخدم قاربا أو تطير فوق الجبال بأجنحة شراعية.

فجأة زمجر هيبورث وبدأ فى حك رسغه:

- إنه الناموس اللعين! عضنى فوق الجورب! المفترض أن يكون عندك بعض أقراص طرد الناموس أيها العجوز.

رفع نيكلسون رأسه لكى لا يشاهد زميلة وهو منهمك فى حك رسغه بعنف. أخذ يحدق فى النجوم فى العلا. وجد نفسه فجأة يفكر فى الله، لذا خفض رأسه وأخذ يحدق بامتعاض نحو زميله - بل بالأكثر لنفسه - ثم قال بهدوء:

– عارف، المفروض أن أفعل هذا الأمر بأسرع وقت ممكن، بهذا يتاح للخادم جون أن يدرب الولد الجديد قبلما يرحل. يمكن أن أذهب إلى هذه القرية باستخدام قاربى، لكنه فى حاجة لإصلاح، لذا سوف استخدم القارب الآخر المجهز بموتور. هذا ما سوف أفعله. بالمناسبة، هل أخبرتك من قبل عن هذا القارب الجديد؟

هز هيبورث رأسه نفيا. لذا أخبره نيكلسون كيف استطاع أن يحول قارب عربى ليصبح بهذا الشكل المتحضر.

استمر الحوار بين الرجلين بينما صعد القمر الكامل مبتعدا عن البحر ومواجها بشكل مباشر فراندة نيكلسون راسما خطا لامعا يقود من الفراندة حتى البحر ثم يصب فى عدد من القوارب التى أخذت تتأرجح فى الظلام.

بينما هو نصف منصت إلى هيبورث وهو يحكى عن ليلة سمر كان قد قضاها فى هونج كونج عندما كان فى خدمة الجيش البريطانى هناك، هى قصة طالما استمع إليها نيكلسون وحفظها على ظهر قلب، انشغل هذا الأخير فى التفكير فى بلدة سفينة والظلام الدامس الذى يلفها خارج قصره. ثم أخذ يكرر لنفسه مرارا وتكرارا، "ليس بالمكان المنفر الذى يمكن أن يقضى الإنسان فيه عمره". كانت هذه وسيلة طالما استخدمها لكى لا يستمع للتفاهات التى ينطق بها زميله هيبورث الأقرع.

لقد حزم أمره أن يبحث عن خادم بقرية "جهيل".

* * *

فى وقت مبكر من اليوم التالى وهو يوم جمعة، استقر رأيه أن يستخدم الموتوسيكل الهوندا الخاص به. عليه إذن أن يترك سيارته اللاندروفر المكيفة فى الجراج. هذه المهمة لا يصلح لها سوى الموتوسيكل وهو مسلك نادرا ما سلكه. هو يعلم مدى أهمية عمله وأن الجبهة يجب أن تكون مؤمنة بالكامل.

الحارس المدجج على الباب الرئيسى فتح له وسمح لنفسه أن يرسم ابتسامة صغيرة على وجهه، ثم رفع يده بالتحية وهو يرى نيكلسون يغادر. كل شخص فى سفينة يشعر بالاغتباط وهو يرى نيكلسون فوق دراجته النارية. هذا يعنى أنه ذاهب إلى مأمورية عمل ولا أحد يخشى ويرتعب من هذا الرجل الحكومى وهو ممتطيا الموتوسيكل. بالطبع ليس هو قادم للقبض على أحد ويعنى هذا أيضا أنه ليس قادما اليوم لإنجاز عملية "مباحث".

راكبا متخذا الطريق المؤدى إلى خارج سفينة. استمتع نيكلسون وهو يصغى لصياح الأطفال التى تتابعه. إنه دائما ما يشعر أنه من طائفة الأرضيين ومن الناس الممتطين للدرجات النارية.

منذ بداية رحلته إلى جهيل، كان نيكلسون على وعى كامل بالمكان الذى سوف يترك فيه الموتوسيكل. تبدو الجبال على البعد وكأنها متدرجة عند النظر إليها عند الساحل، لكن هو عليه أن يستدير هنا وهناك لكى يتجنب الطين المتحرك الذى من الممكن أن يبتلع موتوسكله بالكامل، كذلك لكى يبتعد عن الرمال المتحركة التى تحفل بها الوديان الساحلية.

استغرق الوصول إلى الجبال حوالى الساعة بالرغم إنها لا تبعد سوى خمسة أميال شمال "سفينة" لو طارها غراب.

هناك، بدأ الموتوسيكل فى الصراخ وهو يدرج جاهدا فوق الهضاب العالية. من هنا، يمكن أن يسلك الطريق الموازى للهضاب الذى حفرته أرجل الدواب والأقدام التى اعتمرت بالصنادل.

أوقف نيكلسون آلته ثم أقفلها. نظر حوله ثم، تناول زمزمية من درج الموتوسيكل وسار على قدميه متوجها نحو جهيل.

سار بخطوات وئيدة مستمتعا بالتقاط الأحجار والأصداف فى طريقه. تلك المحارات المتناثرة فوق الهضاب، تجدها جافة ويمكن أن تتفتت بسهولة إذا دعكتها ذلك بسبب آلاف السنين التى قضتها هنا بعيدا عن البحر. وجد محارة بوقية الشكل كأنما هى قطعة من الثلج الجاف انتزعت من كعكة فرح. كانت محارة عجوزا لدرجة أن ذكريات البحر قد غادرت ذاكرتها منذ زمن بعيد. أمسك بها نيكلسون ووضعها فوق أذنيه، لكنه لم يستمع صوتا.

إنه بالكاد يعلم شيئا عن علم الجيولوجيا، لكنه وجد نفسه مهتما بهذا العلم. لو كان فى موطنه لقام بشراء كتاب يمكن أن يضيفه إلى مكتبته فى قصره بسفينة.

توارد الذكريات التى طرأت على ذهنه جعلته يلتفت خلفا من خلال هبات الحر اللافح. باستطاعته الآن أن يشاهد على البعد خط الساحل

الممتد وراء سفينة. وقع نظره أولا على المستشفى ذات اللون الأبيض التى استقرت أمام التل الأزرق الذى زحف خلف البلدة. لاحظ أيضا أن الشمس قد استقرت فى كبد السماء، لذا شعر ببعض الراحة وهو يلقى بنظرة شاملة على مستعمرته وهو تتماوج بسبب أشعة الشمس الملتهبة. وقف مكانه والتفت بالكامل مستجليا المنظر بكل تفاصيله. على البعد من سفينة استطاع أن يستعرض بناظريه التلال التى اتخذت لنفسها شكلا هلاليا بالمقارنة بالأرض المنبسطة حولها ثم على البعد هناك توجد مجموعة أشجار النخيل المجاورة لمعسكر فرقة الصحراء التى يرأسها هيبورث.

استمر نيكلسون فى مسيرته على الطريق المفرد لمدة خمس دقائق تقريبا، عندما التفت مرة أخرى لاحظ أن مناظر بلدته سفينة قد اختفت نهائيا عن ناظريه. لعل مرجع ذلك هو حرارة الشمس الملتهبة التى تخبط رأسه العارية. وجد نيكلسون نفسه وقد تزاحمت الأفكار فجأة فى عقله على شكل موجات متدفقة غير قادر على تحليلها أو فهرستها. تذكر أنه نادرا ما كان يسير هكذا بمفرده بعيدا عن سفينة. هو طالما قدم النصائح للسواح محذرا إياهم من أن لا يحيدون عن إتباع الطريق الرئيسى وأن لا يسيرون فرادى. إذا احتجوا، ذكرهم بقوله، "السنة الماضية، تجمعوا حول رجل تابع لمنظمة اليونسكو، طبعا تعلمون ما الذى حدث له!"

بكل القلق، نظر يمينا ويسارا ثم – مماثلا للسواح التعساء الذين غادروا العاصمة سالكين طريقا مهجورا طوله مائتين من الأميال حتى

"سفينة"، محاولين بث أفكار الشجاعة والإقدام فى قلوبهم وإنهم ليسوا جماعة من الرحالة - لكن أدركوا بعد فوات الأوان مدى خطأ فكرتهم.

ذكر نيكلسون نفسه أنه يستحق فعلا وظيفته تلك فى "سفينة" بعد خدماته الجليلة التى تبدت واضحة أثناء اشتعال أوار الحرب الأهلية فى الإمارة، كذلك عمليات الإغارة التى تبعتها. تذكر كيف أنه كان يغيب عن قاعدة المعسكر بالشهور، مشاركا نفس ظروف الحياة القاسية التى يعيشها رفاقه من البدو، هذا يثبت مدى جسارته المماثلة لهم، قادرا على تحمل المسير الشاق فى مجاهل الصحراوات يشرب من المياه الملوثة، يأكل من نفس الطعام ويقتل بلا رحمة.

فى أيامه الأولى، كان هو ضابط فى المخابرات البريطانية. كان من المفترض أن تنتهى أيام خدمته فى رأس الصرة بانتصار الأمير الحالى وتوليته للحكم. لكن هناك من طلب منه أن يستمر، بينما يلاحظ هو زملائه البريطانيين متشوقين للبحث عن ميادين قتال جديدة فى أماكن أخرى ترضى غرورهم، وجد نيكلسون نفسه وقد ترقى ليصبح رئيسا لجهاز المباحث فى المنطقة الشرقية من إمارة رأس الصرة.

هو لم يندم إطلاقا على قرار بقائه هنا. فما الذى يمكن أن يتمناه لو عادوا إلى خدمة الجيش البريطانى؟ أو الانشغال فى حرب قذرة فى شمال أيرلندا؟ أو رحلة باردة إلى شمال الأطلسى حيث تدور حرب من أجل اكتساب بعض الأصوات الانتخابية؟ لا، إنه لا يأسف أبدا على قراره، فوظيفته كما وصفها هيبورث دائما هى "النعيم" ذاته. هى أيضا تحمل له

القليل من الإثارة التى تمنع عنه الشعور بالملل. النقطة الهامة الآن هو أن يستمر مستمتعا بوضعه المريح هذا وسط وقت يشهد تغييرات جوهرية.

مر نيكلسون على حطام قرب قرية جهيل القديمة التى بنيت سابقا على رأس جبلى داخل فى البحر. بالرغم أن القليل قد تبقى منها، لكنه لاحظ إنها فى زمنها كانت قرية عامرة.

بعد خمس عشرة دقيقة تالية، وصل نيكلسون إلى المنطقة المتدرجة التى تؤدى إلى "الوادى الكبير"، وعلى بعد ١٠٠ قدم أسفل، انبسط الوادى كأنما هو ملعب كرة قدم كبير. على الجانب الأبعد منه وعلى منبسط يعلو أرض الوادى بحوالى عشرين قدما تجثم قرية جهيل الجديدة، وهى بالكاد يمكن أن تحدد لأن الجبال تحيط بها بالكامل. فالحوائط الجبارة المحيطة بالوادى الكبير تمتد حتى تصل إلى قواعد قبيلة بنى عمر. عندما تنتهى حدود الوادى نجد بساط البحر الذى يمتد حتى بلاد الهند.

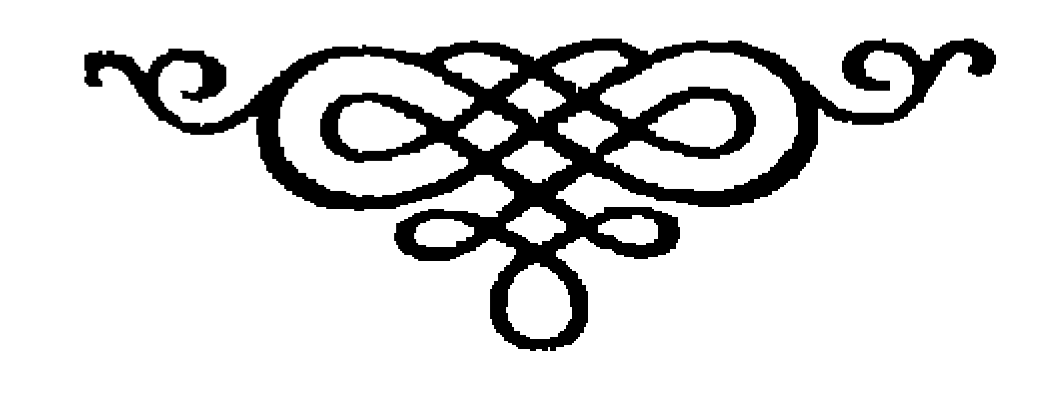
مماثلا لذاك البحار الذى هدأت مشاعره بعد احتسائه برميلا من الروم، هكذا تناست جهيل عزها السابق. لم تعد شوارعها مزدحمة كالعهد بها. القرية التى شاهدها نيكلسون هى عبارة عن ظلام فى ظلام، حر فى حر، مجرد ظل باهت لسابقتها. بنيت قريبا من الأرض، لذا فالرطوبة المجسمة هى جهيل والرطوبة هى ناس جهيل.

تنهد نيكلسون وتذكر، "انظر إلى حقيقة أعمالى أيها الجبار، ثم تيأس". توقف قليلا، يبحلق فى تلك القرية التى تقع عبر الوادى. استمع لصوت حمار ينهق بحزن مرير. وسط كومة البيوت الطينية، حاول جاهدا أن يتذكر اسم الشخص الذى يتوجب أن يقابله، هو مالك حانوت جهيل الوحيد. ثم تدحرج على جانب متدرج من الوادى حتى وصل إلى مجموعة من الرجال المتقدمين فى السن جالسين فى ظل حائط متهالك. سألهم عن مكان محل "حامد نصر" فاخبروه ثم ودعوه بالأمانى والتحيات العربية المعتادة.

* * *

بعد ساعتين عاد نيكلسون سالكا نفس الطريق حيث مقر الموتوسيكل، راضيا بسبب التعهدات التى بثها له حامد نصر ووعوده بأن يبحث له عن ولد خادم من أهالى جهيل.

أثناء تواجده فى محل هذا الرجل، سمع بعض الثرثرات التى قد تكون ذات نفع له فى عمله. أيضا وجد وسط جوالات التوابل وزكائب "التايد" المعفرة خنجرا فضيا رائعا فاشتراه. لم يساوم فى ثمنه لأن سعره يمثل جزءا بسيطا من سعره لو كان قد اشتراه من العاصمة.



(٣)

اندفعت السحلية تجرى عبر الحائط الأبيض، بدت كأنها تغير من ألوانها وتتخفى عن نظر المراقب.

لم يتوقف الفتى عن التعجب من هذا الكائن الغريب، بالرغم أنها مألوفة لديه مماثلا فى ذلك تلك الكتابات الإسلامية المعلقة على الجدران الأربعة داخل براويز خشبية ثقيلة. إنها الغرفة الوحيدة فى المنزل، غرفة تخدم كل أغراض العائلة: الأحداث الكبرى مثل الميلاد، الوفاة، الطعام اليومى، النوم كذلك الصلاة - هذه الغرفة هى المضيف الدائم لهم.

رقد الفتى على مرتبته الأرضية التى تمثل الأثاث الوحيد فى الغرفة. أخذ يتملى فى السحلية بكل تمعن. على وجه العموم، مماثلا لكل ناسه، هو لا يأنس كثيرا بالحيوانات، فليس هناك وقت لمثل تلك الأمور. لكن سحالى المنزل لها وضع مختلف. إنها مخلوقات نظيفة وليس من الواجب إلحاق أى ضرر لها. الأطفال الذين يضبطوا وهم يعذبون هذا الحيوان يعاقبون بشدة.

ضوء الفجر بدأ فى الزحف داخل الغرفة خلال بابها المفتوح وانتظر الفتى سماع أولى أصوات النهار. كل صباح يستلقى فى هذا الوضع

متوقعا أى صوت سوف يبدأ أولا، إما أنه صوت المؤذن يحث الناس أن ينهضوا للصلاة، صوته بالطبع يدعو الديوك لأن تجاوبه حمدا وشكرا لله. أو أن ينطلق صوت الديكة أولا، بذلك يصحو المؤذن من نومه العميق. لكن فى هذا الصباح بالذات سمع صوت المؤذن أولا، ربما يكون المنبه الصينى الذى وصله من سفينة وقدمه له أحد المخلصين قد فعل سحره.

انطلق بعدها صياح ديك فتجاوب معه ديوك أخرى فى جميع أرجاء قرية جهيل النائمة. من مكان ما، نهق حمار شاكيا كالمعتاد واندفعت السحلية مسرعة للاختباء داخل ثقب فى السقف المصنوع من أعواد النخيل. أدرك الفتى أن الوقت قد حان للنهوض. تذكر أن هذا اليوم يوما غير عادي. دشداشته المفضلة كانت معلقة على مسمار فوق رأسه منتظرة أن تقوم بمهامها المعهودة فى أفضل الأيام.

استيقظ والد الفتى مبكرا وخرج ليرعى معزاته. إنه سوف ينتظر ابنه فى الجامع بعد عدة دقائق، لكن الفتى لم يتحرك من مكانه. لم يكن على يقين أنه يرغب فى بداية يومه. لذا رقد ساكنا يراقب السحلية وحركاتها.

والده هو الذى أخبره عندما كان صغيرا أن وجود السحلية فى البيوت هو بركة. إذا لم تتواجد فى منزل ما، تجد الحب والأمان قد غادره فورا. عندما توفيت والدته، وهى بئر الحب والحنان، لم تستقر عينيه على سحلية لمدة شهر كامل. فى الحقيقة، عادت السحالى مجددا،

لكن والده لاحظ أن أعـــدادها قــد قــل عن ذى قـــبل ورسم بذلك استنتاجات معينة.

أبوه هذا ما زالت الدموع تنهمر من مـآقيه عندما ترد سيرة المرحومة زوجـته. هـذه المواقف كـانت تربك الفـتى عندمـا يشـاهـد والده فى مظهـر الضـعف هـذا. مع ذلك، عندمـا ينفـرد هو بمعـزاته ليرعـاها عند أطراف الوادى الكبير، تنطلق عبراته بلا توقف.

لقد أربك الوالد فتـاه فى عديد من المواقف، بل وترك خلفه شكل من أشكال الفضـيحة فى قريتهم، فعندما كان يزور قبر المرحومة غير المميز يقف هنـاك مدة ليـصلى وبعـدها يترك أى شىء لونه أخضـر فوق كـومة التـراب. لقد سـمع بأذنيـه الرجـال الآخـرين فى جـهيل وهـم ينتقـدون بلا رحمة هذا التصرف غير الإسـلامى والمخـالف للتقـاليد المرعيـة وأنه بذلك إنما ينكر وجـود الله سـبحـانه. لكن الفـتى على يقين أن الأب يحب الله ويعـبده أكثـر مما يتـقـول به هؤلاء الناس. أبـاه هذا لم يجلس مـرة على شـاطئ البحـر فى ليلة قمرية لكى يعب عرقى البلح الذى يحصلون عليه من قبـائل الداخل. لا يعـرف أيضـا أن والده قد أقفل بابه يومـا أمام تلبية طلبات المحتاجين، سـواء كان هذا المحتـاج مسلمـا، نصرانيا أو حتى من عباد البقر.

أحيانا كان يصاحب والده إلى قبر والدته. هناك ينسى الوالد ابنه تمامـا ويحملق فى تبة الرمال، شـفتـاه تتحركان باسـتمرار وتبدو إمـارات الألم بل والغـضب على مـحـيـاه، فى تلك الأوقـات يشـاهـد إبراهيم كل

العوائد الغريبة التى يمارسها أباه. بالنسبة لذاك الفتى، الحياة مليئة بالأسرار والغوامض.

أخذ فى التناوم، لكنه استيقظ بشكل كامل ما أن استمع لصوت والده يناديه:

- إبراهيم، إبراهيم! قم الآن بسرعة! آخر يوم لك هنا وتنسى الجامع؟ ازاى الكلام ده يا ابنى! إحنا عايزين نصلى يا ابنى يا ابنى عشان ربنا يحميك. أتمنى أن لا يكون هذا أسلوبك وأنت تخدم فى بيت الرجل الإنجليزى.

فى الحال، نهض الفتى واعتذر لوالده. عرف الآن لماذا سمح لنفسه أن يطيل فترة نومه. هو لم يكن متأكدا من رغبته أن يبدأ هذا اليوم أساسا . كانت تختمره أمان حارة أن ينسى البقال حامد نصر أنه سوف يقوده اليوم خلال الطريق الصعب متجهين إلى بلدة سفينة ويبتعدان عن قريتهما الحبيبة جهيل ليعمل هو خادما فى منزل الخواجة الإنجليزى. لكن لم يشأ أن تظهر تلك الرغبات والمخاوف على قسمات وجهه. بكل خفة خرج إلى الساحة التى استقرت فيه ثلاثة قلل فخارية مليئة بالماء معلقة على حامل يبعد حوالى مترا عن الأرض. صب إبراهيم قليلا من الماء على يديه غسل بها وجهه. الماء الزائد تلقته الأرض مرحبة وابتلعته فى التو واللحظة.

عاد إلى غرفته، اعتمر دشداشته. جلس بينما تحضر له عمته الإفطار المكون من عجوة البلح وقهوة ضعيفة بها القليل من الحبهان،

صبتها من كنكة كبيرة لها بزبوز لطيف. هذه الكنكة لها تاريخ عتيق. فقد أحضرتها والدته معها كجزء من عفشها عندما تزوجت من والده منذ سنوات عديدة مضت.

جلس إبراهيم ووالده في مواجهته يتناولا إفطارهما البسيط في صمت. في نهاية الوجبة قال الوالد:

– والله العظيم، أنت حتوحشني يا إبراهيم يا ابني!

ثم من ركن عينيه، راقب إبراهيم السحلية وهو تنزلق فوق حائط.

* * *

بالكاد نطق حامد نصر بحرف أثناء رحلتهما سويا من جهيل إلى سفينة. ولأنه هو البدال الوحيد في القرية، لذا هو أكثرهم خبرة بالحل والترحال. كان قد عمل خادما في السابق في البحرين والكويت. هو يشعر في قرارة نفسه أنه جدير بالإجلال والاحترام، هذا واضح وجلي في أسلوبه المملوء بالغرور والعجرفة. هذا المسار أبعده عن عالم الرجال الثرثارين. مع ذلك، تقبلوا مشاعره تلك وتصرفاته بكل ترحاب وعزوها لخبراته الواسعة في كل مناحي الحياة.

بينما هو جالس في دكانه وسط مجموعة متنافرة من المنتجات – ملابس هندية، شباك صيد كورية، أوان طهي صينية، سجائر، جوالات سكر وملح، رز وشاي – يشبه هذا الرجل ذاك الصوفي المتعبد في محرابه،

بل وصوفى متحالف مع الحق. كيف أمكن لهذا الرجل أن يجمع حوله كل هذه الغرائب من أربعة أركان العالم. بالتأكيد حصل هذه الرجل على دعم من عوالم الأرواح. البقال هذا دائما ما تجده حريصا على تدعيم هالات من الغموض تحيط به، نعم، كذلك هالة المخافة التى تحيطه. هو دائما ما ينظر نحو الزبائن كأنهم دخلاء، كما لو أنه إذا باع شيئا لهم، فهذا سوف يؤدى إلى إفقاره. الأطفال الذين يبعثون ليشتروا منه شيئا، تجدهم متشبهين برجال الأعمال سريعو الخطو- ما أن يجدوا ما أتوا لشرائه، سرعان ما يدفعون، يتناولون ما اشتروه، ثم يختفون بسرعة بالغة من أمام وجهه. حامد نصر هذا ينقصه كل من المرح، الكرم والظرف. لكنه على كل حال، يمتلك دكانا وقد أنعم الله عليه برخاء لا حد له. إذا شاب بعض أفعاله تصرف فظ، فليس تلك من أخلاقيات أهالى جهيل، أنما هى أفاعيل سبحانه وتعالى الذى لا يحمد على مكروه سواه. على أية حال، هو إنسان عادل لا يطالب بأكثر من قيمة المباع.

يمتلك هذا الرجل ستة من الحمير يتمتعون بالصحة والرشاقة كان قد اشتراهم من قرية "صباب" التى تقع داخل البلاد. إنهم من أفضل أنواع الحمير برأس الصرة. سار هو وبجواره إبراهيم خلف خمس من هذه الحيوانات إلى أن وصلوا إلى موقع خرابات جهيل القديمة، ثم نزلوا بها نحو الوادى الساحلى الذى يقود إلى سفينة.

ما أن وصلوا إلى أرض مستوية حتى امتطى حامد ظهر حمار منهم، لكنه لم يعرض على إبراهيم أن يمتطى آخر. لذا سار الفتى ورائهم وأخذ

يراقب الخطوات الرشيقة للحمار الذى انتصب عليه حامد ثابتا مستقيما. هبت رائحة سمك قوية اخترقت نخاشيش إبراهيم مصدرها هو الزكائب التى تعلقت فوق ظهور باقى الحمير. لقد أخذ حامد معه طلبية سمك مجفف كبيرة وسوف يقوم ببيعها فى سوق سفينة للبدو فى مقابل علف للجمال. زكائب السمك لها الحق أن تستقر فوق ظهور الحمير، أما إبراهيم فهو قادر على السير.

فى منتصف المسافة إلى سفينة، بدأت ريح الشمال فى الهبوب. هذا يعنى أننا الآن حوالى الساعة الثانية ظهرا. ريح الشمال هذه هى أفضل مؤشر ودليل عن الوقت وتفضل أى ساعة يدوية. إنها تهب طوال شهر مارس. عندما تثور تجد الترمومتر المثبت خارج الباب الأمامى لمسكن نيكلسون قد ارتفع عشر درجات فى دقائق معدودات. هذه الريح تتكون أصلا فى منطقة الربع الخالى من الجزيرة العربية، هى تستطيع أن تحول يوما ربيعيا معتدلا إلى جهنم الحمراء المتربة. هى تهب الآن وتضغط على دشداشته وتسخن جلبابه وأصبح هو كأنه قد وضع أمام شعلة من النار. عرقه أدى إلى التصاق الغبار بجسده وكسى وجهه لون أبيض.

لكن لا ريح الشمال ولا صمت حامد نصر بقادرين على إزعاج إبراهيم. ما كان قد أحس به من لوعة وهو يفارق والده وأهله وبلده انتهى مفعوله الآن، عقله مفعم باحتمالات المستقبل. كان هذا شعورا جديدا أن "يتوقع" حدوث ما هو جديد ومقبل. لم يكن من قبل بهذه الدرجة من البعد من قريته جهيل ولا خطر بباله أبدا أن يشغل مرقدا

جديدا في منزل عصري وبلدة لم يرها من قبل. كل غوامض الأيام أصبحت تافهة بالمقارنة بهذه المغامرة الجديدة، فهو مستقبل غير عادي أو مطروق.

واجه هذه الأفكار بمرح وفرح. الدعوة للصلاة لن تجده في جهيل، حتى ريح الشمال الجبارة وظهر عم حامد لم يكونا بقادرين أن يخفتا من درجة حماسه. كل المخاوف تراجعت وتوقفت عن العمل في مقابل التعجب والاندهاش من التغيير الحادث.

حوالي الساعة الرابعة ظهرا، ترك حامد الفتى أمام مستعمرة نيكلسون مخبرا إياه بأنه يجب أن يعتمد على نفسه من الآن فصاعدا. لم يفهم إبراهيم لماذا تركه هكذا بسرعة بالغة، لكنه أدرك بعد ذلك أن السوق سوف يفتح الآن أبوابه وأن على حامد أن يسرع بالذهاب لكي يستكمل عمله.

التفت إبراهيم وحدق في الأسلاك الشائكة المحيطة بالمستعمرة. لعل هذا هو كوكب آخر، و، إذا لم يكن هذا كوكب آخر، فإن إبراهيم سوف يلج قطرا جديدا لا تسري فيه عادات بلدهم. راس الصرة التي يعرفها إبراهيم توقف تواجدها أمام بوابة المستعمرة، و، وكأي بدوي ساذج، ليس عليه سوى أن ينظر ويتعجب، مندهشا مشدوها من هذه الخضرة المنتشرة في هذا المكان الرابض وسط رمال سفينة الصفراء، إنها مستعمرة فائقة الجمال كلها خضرة كأنما هي سراب لا يمكن الوصول إليه.

كل يوم تجد الناس يحدقون فى مستعمرة نيكلسون كما فعل إبراهيم الآن. عيونهم لا تترك أى فكر يغادرهم، إنهم لا يملون عن إطالة النظر. هم ربما لا يحسدون ما يشاهدونه، لكن فضولهم بالنسبة لهذا المكان الغريب الأجنبى لم يضعف أبدا بمرور السنوات. ربما تشاهد زوجة بدوية من أكثر الطرق الوهابية تحفظا، تجدها وقد رفعت برقعها ناسية تقاليد أجيال، لكى تتملى بكامل ناظريها على هذه الجنة التى نزلت على الأرض. يعلم نيكلسون مقدار الفضول الذى يبعثه التطلع على مستعمرته. هو يحب الظن بأنه من الأفضل أن يفكروا بالحصول يوما على مثل ما يشاهدون، وذلك عندما يتقدموا بواجب الولاء لأميرهم العزيز والعمل على طاعته، لذا ربما، يوما ما، يحصلون على مدينة مشابهة لمستعمرته.

أخبر إبراهيم الحارس الواقف على البوابة عن حقيقة مهمته، لذا ساروا به داخل المستعمرة وعرضوه أمام نيكلسون الذى كان يعمل داخل غرفة مكتبه الواسعة. الهواء فى هذه الغرفة كان باردا مما جعل إبراهيم يرتعش.

– إذن أنت الولد الجديد.

قالها نيكلسون باللغة العربية والتى سمع إبراهيم مثيل لها من راديو بعض الأصدقاء. – أتمنى أن تسعد هنا.

– أشكرك يا سيدى.

ابتسم نيكلسون وأخبر الحارس أن يأخذه إلى غرفته فى المنزل الرئيسى.

- سوف أراك فى وقت متأخر هذه الليلة. اغتسل واسترح بعد رحلتك، أنت بالطبع متعب.

شكره إبراهيم وتبع الحارس.

* * *

خلال الأسابيع التى تلت، تلقى تعليماته ومعارفه من نيكلسون والخادم "جون دى لوبو" - تعلم كيف يكنس مشمع الأرضية، يستخدم الأدوات الكهربائية بل ويخلط شراب الجن والتونيك بحرفنة.

معارفه الجديدة حصل عليها بسهولة بعد يومه الأول. كان يتعجب من كل شىء يصادفه لدرجة إن بزوغ يوم جديد يمثل إحدى علامات تواجده وحياته، ففى كل يوم جديد هناك شىء رائع يتعلمه ويجيده.

رأى الكثير لدرجة أن الانطباعات المختلفة أتعبته وأرهقته. فى اليوم الأول قضى ليلته فوق سرير ناعم عال، كان سريرا على شكل شبكة الصياد مصنوعة من أسلاك معدنية قوية مما منحه نوما مستغرقا مفعما بأحلام غريبة. ما أن حل اليوم التالى حتى امتلأ ذهن إبراهيم بخبرات جديدة.

استمتع نيكلسون بقضاء وقت لكي يرشد ويعلم إبراهيم ويدور به ليتملى فى أعاجيبه الكهربائية. على مدى أربعة وعشرين ساعة، اختبر إبراهيم الفرن الكهربى، نظام ستريو كامل، مشغل فيديو، الماء البارد والساخن، الأرغن، ووكى توكى، خلاط الطعام، المكنسة الكهربائية، المنظار المعظم، الحمام ونظامه، ورق الحائط، الصفوف العديدة من الكتب كذلك تكييف الهواء...

قبل أن يستغرق فى نوم اليوم التالى وهو بعيد عن وطنه، داهمه هذا الخليط الغريب من الانطباعات وهجمت على قلبه حتى شعر كما لو أنه فى آخر أيام شهر رمضان. شعر أنه متخم. هناك جنيا قاده إلى أرض غريبة وأراه عجائب العالم. لم يعد هناك ما يمكن أن يطلع عليه بعدما رأى كل شيء.

لكن الأعجوبة العظمى حدثت مع مرور الوقت، بشكل بطيء لكنه أكيد. بدأ كل شيء كأن لا غرابة فيه. أصبحت كل الأمور فى منزل نيكلسون مألوفة وعادية وسهلة الاستخدام. أحيانا كان يتوقف عن العمل، مثلا إذا كان يستخدم المكنسة الكهربائية، يتوقف ويتساءل بينه وبين نفسه، "من صنع هذه؟ من فكر فيها؟". تجرأ يوما وسأل جون، وهو الذى اتخذ لنفسه دور الأخ الأكبر لإبراهيم، أوقف العمل بالمكنسة وتساءل عمن صنع هذه الآلة. كان رد جون:

- إنهم الإنجليز. هم الذين يفكرون فى هذه الأشياء، ثم يصنعونها ويبيعونها للعالم كله.

- هل يصنعون مثيلها فى عاصمتنا؟
- بالطبع لا. هم يرسلونها من انجلترا إلى رأس الصرة. كل شىء فى هذا المنزل مبعوثة من انجلترا وأنتم فى رأس الصرة تبعثون بالبترول ثمنا لها.

هز إبراهيم رأسه. أضاف جون: -حتى مولدات الكهرباء الضخمة، هى وردت أيضا من انجلترا، لكن نحن فى الهند نصنع مثيلا لها.

- إذن لماذا لا نشترى منكم؟ الهند أقرب من انجلترا. إنها عبر هذا البحر.

استعرض جون يمينه ويساره قبلما يرد:

- انجلترا وضعتك أنت وكل أهلك هنا.

ثم أشار إلى جيبه قائلا:

- رأس الصرة هذه موجودة داخل جيب انجلترا.

تعجب إبراهيم لوهلة، ثم قال محتارا:

- لكن نحن عرب، لدينا أمير للبلاد. نحن أحرار.
- إذا كنتم أحرار، إذن لماذا مستر نيكلسون موجود هنا؟ انه يعمل كبوليس خاص. هو باستطاعته أن يأمر كل البدو الذين يعملون تحت إمرته أن يفعلوا أى شىء يشير به. مهمته هى أن يقدم تقريرا للحكومة ما إذا كنت أنت شخصا سيئا تفعل أمورا مشينة تضر بالحكومة.

– شيء غريب فعلا. لكن ربما وجد رجل من رأس الصرة موجود الآن فى انجلترا هذه يعمل كبوليس خاص ويقدم تقريرا للحكومة الإنجليزية عن انجليزى سيئ.

هذا ما ظنه إبراهيم أمر طبيعى ومنطقى للغاية.

دار جون حول غرفة الاستقبال ضاحكا:

– أنت أكيد تهزل. ليست هذه هى الطريقة التى تعمل بها الأشياء. ألا تعلم أى شيء عن العالم ؟

– لا أفهم لماذا ضحكت.

قالها إبراهيم وهو يرفس المكنسة. لاحظ جون أنه أغضب إبراهيم، لذا أمسك بكتفيه ونظر بقوة فى عينيه:

– آسف يا إبراهيم. إنها ليست غلطتك أنك لا تعرف الأشياء. حسنا، دعنى أصف لك الأمور بهذا الشكل. انجلترا فعلت نفس التصرف الذى تفعله فى راس الصرة مع بلدى الهند. لقد قلنا لهؤلاء المغفلين أن يتركوا بلادنا وبعد منازعات عديدة استطعنا طردهم. الإنجليز الملاعين هؤلاء حكموا شعوبا كثيرة فى أفريقية وآسيا وأمريكا. لكن إذا نظرت إلى خريطة انجلترا سوف تلاحظ إنها دولة صغيرة الحجم – بل وأصغر من رأس الصرة.

– دعنى أرى ذلك.

ذهب جون إلى رف كتب نيكلسون وأخرج أطلسا ووضعه فوق منضدة القهوة وفتحه على خريطة العالم، ثم أشار إلى مثلث أحمر صغير قائلا:

- هذه هى انجلترا.

لكن قبلما يستمر فى درسه، كان يجب عليه أن يجيب على سيل من الأسئلة التى انطلقت من فم إبراهيم فيما يختص بالخرائط. انه لم يتقبل الفكرة التصويرية عن العالم. ساعده جون بأن رسم على ورقة شكل غرفة المعيشة الواقفين فيها. رسم المقاعد كل بموقعه، الكنبة، وحتى المكنسة الكهربائية. ثم أخبر إبراهيم أن خريطة العالم تماثل هذا الرسم لكن بحجم أكبر.

سأل إبراهيم:

- إذن أين نجد رأس الصرة ؟

أشار جون نحوها.

- نحن اكبر كثيراً من إنجلترا هذه. أين الهند ؟

أشار نحوها جون والفخار يملأ جوانحه.

- أيضا الهند أكبر من رأس الصرة. هى تجعل إنجلترا تبدو كالنملة بجوار الفيل.

ابتسم جون مغتبطا بنجاحه فى شرح الدرس.

رجع إبراهيم إلى مكنسته الكهربائية وأفكار عديدة تتزاحم فى مخيلته قادرة أن تخفي ما تحدثه تلك الآلة الإنجليزية من إزعاج.

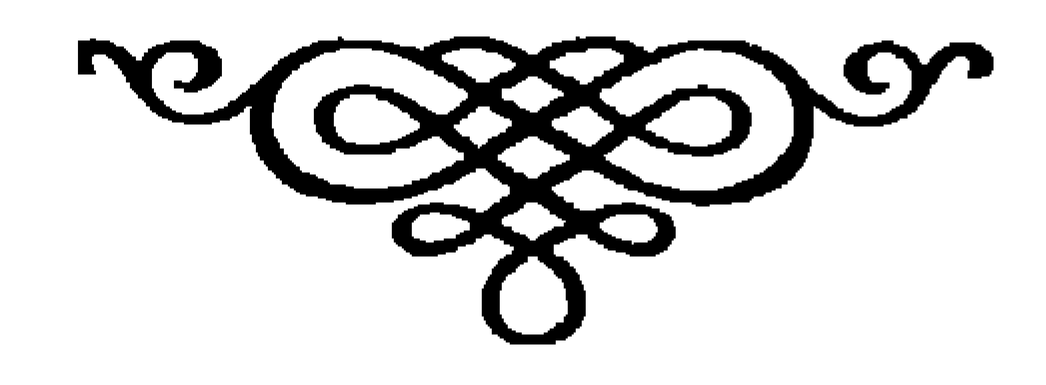
خلال الأسابيع التالية التى سبقت رحيل جون إلى بلاده، تعلم إبراهيم الكثير والكثير عن طبيعة عمله كخادم وعن العالم الواسع وكيف تسير أحواله. أحس بتعاسة بالغة عندما حان موعد رحيل جون. حاول قدر جهده لعدة أيام سابقة أن يثنيه عن فكرة الرحيل، لكن بلا فائدة.

قال جون:

– زوجتى وأبنائى موجودون فى نيودلهى، وبينما أنا فى قمة شبابى، أشعر كأننى رجل مخصى هنــا فى راس الصــرة! لا تطلب منى البقاء يا إبراهيم. لكن قبلما أرحل، دعنى أقدم لك نصيحة. فى المدة البسيطة التى عملنا فيها سويا تبين لى أنك إنسان مجتهد وسريع التعلم، لكنى أنا إنسان جاهل وليس لدى الكثير يمكن أنه أعلمه لك. أنصحك أن تبحث عن مدرس لك. هذا هو ما أنت فى حاجة إليه أكثر من أى شيء آخر. تعلم اللغة الإنجليزية إذا استطعت، لأنه إذا كان الإنجليز لديهم علم واسع وقوة وسلطان بالرغم من أن منبتهم هى جزيرة صغيرة، إلا أن لغتهم تحمل فى طياتها العلم والقوة. تعلم لغتهم فتكون القوة فى متناول يديك. لغتى العربية ليست بالقوة بحيث أخبرك بكل ما أعرفه. تعلم الإنجليزية يا إبراهيم.

ثم، بعد عدة أيام لاحقة، وقف جون وبجواره شنطة السفر ليرتقى مركبا شراعيا يمخر المحيطات، بينما ترك إبراهيم وحيدا لكى يباشر بمفرده خدمة منزل نيكلسون.

بكى إبراهيم وهو فى سريره فى الليلة التى سافر فيها صديقه، لكنه صمم أن لا ينسى أبداً نصيحة جون دى لوبو.



(٤)

عمل إبراهيم لمدة تسعة أشهر قبلما يحين موعد وصول معدات محطة الكهرباء الضخمة لكى يعم الضياء كل أرجاء بلدة سفينة.

نصبت أعمدة الإنارة فى البلدة كلها وبدت كأنها قوائم أشجار قاتمة أصابها الرعد فى مقتل. كل مظاهر الحياة اختلف بوصول هذه الأعمدة، فالبلدة البيضاء التى تنظر إليها من البعد يبدو مظهرها الآن كأنما تنظر إليها من وراء قضبان حديدية.

فى الأصل، كان من المفترض أن يصل الطريق الجديد حتى سفينة وأن يتم نقل أجزاء محطة الكهرباء الثقيلة باستخدام مساره الناعم. مع ذلك، طبقا لمعارفه، سمع إبراهيم الشكاوى المرة التى صدرت من أفواه الشيوخ عن البطء الحادث فى موضوع كهربة البلدة. أليست المنطقة الشرقية فقط من رأس الصرة التى لم تدخلها الكهرباء حتى الآن؟ أليس هذا تعبيرا واضحا عما تكنه حكومتنا لمنطقتنا هذه؟. لذا شعر نيكلسون ببعض القلق من تردد هذه الأقاويل، فطار إلى العاصمة واستطاع بالفعل من إقناع المسئولين بأن تصل معدات محطة الكهرباء عن طريق البحر.

وصل فعلا الجزء الأول من المحطة محمولا فوق ظهر باخرة يابانية مجهزة خصيصا لهذا الأمر اسمها "جامبو". هذه السفينة أنجزت ثلاثة رحلات ما بين اليابان ورأس الصرة لكي تحمل كل أجزاء محطة الكهرباء. الجزء الأول الذى انتصب فوق ظهر السفينة بدا كأنه تاج ضخم الحجم تبرز منه أنابيب فضية اللون، أبراج وردية، ممرات ودهاليز صفراء وذهبية. ثم حان الوقت لأن تتدحرج المعدة كلها لتستقر فوق لورى ضخم له امتدادات عجيبة وإطاراته تصل فى ارتفاعها إلى قامة الإنسان.

رجال البلدة جميعا تراصوا لكى يشاهدوا تحميل ونقل هذه المعدة، فهم لم يشاهدوا مثل ذلك الأمر من قبل. انتشرت الأخبار كالنار فى الهشيم ووصلت حتى داخلية البلد، لذا استمر تدفق الآلاف لكى يملوا أنظارهم بهذه المعجزة ويراقبون عشرات اليابانيين الفنيين الذين ارتدوا سترات بيضاء وعلى رؤوسهم قبعات مرسوم على مقدمتها فيلا. حل على الناس صمت مهيب وهم يشاهدون المعدة وهى تنزلق بكل خفة على السيارة، ثم تابعوا هذه المركبة وعبارات التعجب والاندهاش تتابعها وهى تسير بسرعة السلحفاء فى طريق تم تمهيده بتكسير كل الحجارة التى تعترضه وكذلك وضعت بعض أعواد الأشجار الصحراوية فى المسار، لذا بدا شكل الطريق كأنما هو بعض من حفريات الزمن الماضى.

شاهد إبراهيم وصول المعدة الأولى من شباك مطبخ مستعمرة نيكلسون، ومماثلا للجميع استغرقه الذهول. لكن، بعد خمسة أسابيع لاحقة،

عند وصول الجزء الثانى، هز رأسه وخرج إلى الفراندة لكى يراقب المنظر لفترة بسيطة. لكن عند وصول المكمل الثالث، ترك اليابانيون ليفرغوه بمفردهم.

قبل أسبوع من افتتاح المحطة رسميا، تم إخطار نيكلسون أن هناك طائرة سوف تحضر تقل وزير الكهرباء والمواصلات وعدد من الرسميين المهمين لكى يشرفوا على افتتاح المحطة، وأنهم سوف يحضرون متأخرين هذا المساء ويرجعون للعاصمة فى نفس الليلة.

ضحك نيكلسون عندما وصلته تلك الأخبار، وعلق قائلا:

– إذن هم خائفين أن يقضوا الليلة هنا!

لكنه شعر بالارتياح أيضا. كانت هناك إشاعة تقول أن أمير البلاد بذاته سوف يشرف، وبذلك تكون هذه هى أول زيارة له للمنطقة الشرقية. نيكلسون شعر بالسرور لأن الزيارة لم تتحقق بسبب الإجراءات الأمنية المشددة التى كان سوف يكلف بها ومعه هيبورث، أيضا فإن زيارة الأمير تعنى أن هذه المنطقة قد أصبحت آمنة تماما وأن الأمور قد عادت إلى مجراها الطبيعى. كان معروفا للكل أن الأمير متخوف من زيارة هذه المنطقة، وهو المكان المشهور بأقوى معارضة لحكم الأمير وسلطته. عدم تحقيق الزيارة علامة تأكيد تسعد نيكلسون وتجعله متيقنا أن الأمير ما زال مرعوبا من هذه المنطقة.

ثم، فى خضم أخبار هذا الأسبوع الأخير، تسلم نيكلسون عدة مذكرات، أضافت إلى مسراته. واحدة تقول أن الوزير لديه عدد من المشاغل، لذا أرسل مندوبا عنه لكى يفتتح المحطة ويقص الشريط، أخرى تطلب منه أن يمون الطائرة. كثير من المدعوين، رجعت إلى ذاكرتهم أحداث الحرب الأهلية، شعروا بالرهبة وهم يتسلمون دعوات الزيارة، لذا تراجعوا عن إتمامها. الآن. لذا وقد شعر نيكلسون أنه مسك بناصية الأحداث، أرسل قائمة بأسماء الناس المهمين الذين من الممكن أن يخاطروا بالحضور إلى سفينة لمدة يوم واحد. ثم، بدأ فى تجهيز الاستعدادات اللازمة.

بحلول اليوم ذاته، زادت الأعباء على نيكلسون وهيبورث. لذا انتشر بدو فرقة الصحراء في البلدة بشكل بوليسى وأضاف نيكلسون عدد من رجاله للمعاونة فى أداء هذه المهمة. كلا الرجلين قضى معظم اليوم يتجولان فى المدينة ليتأكدا من أن كل شىء قد أخذ فى الحسبان.

في وقت المغرب، وقف هو وضيوفه فى الفراندة ونظروا المدينة وهى تختفى تدريجيا فى الظلام، ثم تنامت إليهم صوت المؤذن الواقف فوق منارة تشبه وعاء الفلفل، بينما يتسامر ضيوفه ويحتسون الشمبانيا منتظرين قدوم إضاءة المحطة.

بعد ذلك بعشر دقائق، تم الضغط على المفتاح الرئيسى، فانهزم الظلام الجاثم فوق صدر "سفينة" فورا وللأبد. هتف الناس وصفقوا، ثم بدأ رجال الفرقة الصحراوية فى الرقص وتابعهم فنانو سفينة بالألحان

والأهازيج فى مكان السوق، لكن ما يفوق كل هذا هو تلك الزغاريد التى انطلقت من أفواه النساء. إنها أصوات حلقية تخيف من يستمع إليها للمرة الأولى ويعلم إنها تعبير عن الفرح والابتهاج.

ناقش الضيوف كل الإجراءات، وأعادوا ملء الكاسات وأقدموا على تناول المزة التى كان يقدمها إبراهيم على صينية خشبية متسعة.

انتقل بعدها الحديث لينحصر فى مواضيع مختلفة؛ ما الذى فعله الوزير الفلانى مع مربية أطفاله السيريلانكية؛ سعر خمر "نيو كاسل براند" فى محلات الخمور؛ عمال حفر البترول الذين يقودون الآن أحدث ماركات السيارات المرسيدس؛ تكلفة البذخ الذى أنفقه الأمير على قصره الجديد؛ غرائب السفارة الإنجليزية؛ وطبعا حدث اليوم ومدى تأثيره على سفينة.

حط الضيق على صدر نيكلسون مع تنامى وقت هذا الحفل، انه لا يشعر بالسرور وسفينة أمامه متلألئة بالضياء، انه يتمنى، كما يحدث فى الألعاب النارية، أن تسطع الأنوار لوهلة لتبهج زواره ثم تنطفئ وتخفت إلى الأبد بعد ذلك. كأمر مستجد، هو منظر مستحب يبهج ضيوفه، لكن أن يستمر الحال هكذا، شيء لا يطاق. لذا امتلأ قلبه بالضيق والغضب.

هو يشعر كذاك الرجل الذى أدمن تعاطى الأفيون لسنوات، وتتراءى أمامه خيالات مدهشة، ثم فجأة، فى يوم ما، يجد أن كل من

حوله يتعاطى الأفيون ويشاهدون نفس الخيالات. إنه لا يناصر رأى رجل السفارة البريطانية فى الحفل الذى قال أن أى تغيير يحدث هو أمر سيئ. كل تفكيره منحصر من أن ضياع ليالى سفينة هو فى الواقع تنزيل وتخفيض للمزايا التى يتمتع بها هو، يتمتع بها كأجنبى يعيش فى هذه البلاد.

ضيقه وانقباضه زاد عن الحد ومخاوفه ارتفع مؤشرها عندما اقترب نحوه مستشار السفارة البريطانية قرب نهاية الحفل قائلا وهو يتمايل من السكر قائلا:

- سوف أرحل إلى لندن بعد غد، لدينا طلب من الحكومة أن نمد سفينة بمفتش للغة الإنجليزية يزور كل مدارس المنطقة الشرقية ويحاول تحسين مستوى مدرسى لغتنا. يا ترى، هل يمكن لك أن ترشح لنا مكانا يكون مناسبا أن يسكن فيه هذا المفتش؟

أجاب نيكلسون وهو بالكاد يستطيع أن يخفى اشمئزازه:

- لا. من رأيى أنه خطأ بالغ أن ترسلوا أى أحد إلى هنا هذه الأيام.

يبدو أن المستشار لم يكتشف الحالة المزاجية لنيكلسون، لذا أضاف:

- حسنا، نحن لدينا مفتشين فى كل مكان، ما عدا هنا. لندن تظن أن الوقت قد حان لعمل ذلك. لدينا عدة طلبات لشغل هذه

الوظيفة بالذات. شيء عظيم أن نشاهد بريطانيين آخرين هنا ولديهم روح المغامرة، أليس كذلك؟ بعد عدة شهور يمكن إرسال مدرسين إنجليز إلى هنا أيضا. بالمناسبة، ألا تعلم أن منظمة "أنقذوا الأطفال" بلندن سوف ترسل ممرضة لتساعد في المستشفى المحلى؟ التغيير قادم يا سيمون، التغيير آت لا محالة.

– نعم

– نعم، وطالما نتحدث عن التغيير، لاحظت أن الطريق الإسفلتي قد وصل حتى "إبنا" وسوف يصل سفينة بعد عدة شهور لاحقة، بهذا يمكن أن تستغرق الرحلة إلى هنا بضع ساعات فقط.

عبس نيكلسون وهو يقول:

– ربما، إلا إنها لن تكون رحلة آمنة.

– لما لا؟

– طبعا هم المتمردين.

ثم همس بحدة:

– ليس أن كونهم هادئين الآن أنهم قد اختفوا تماما. أنت تعلم ذلك.

– أوه، بطل تخاريف يا سيمون! نعلم جميعا أن المتمردون قد تعبوا من النضال. أصبحوا الآن أولادا مطيعين، كل همهم هو الحصول

على أكبر قدر من أموال البترول. فى العاصمة شاهدنا أحدهم فى التليفزيون الأسبوع الماضى يبدى أسفه الشديد لماضيه الشرير وكيف أن الأمير "فضل" قد أهداه سيارة بيك أب تيوتا كذلك قطيع من الماعز.

تجهم وجه نيكلسون لكنه لم ينطق بحرف. إما أنه لاحظ أو صمم أن يتجاهل حالة نيكلسون، قام المستشار بغرس سكينه بعمق فى قلب محدثه قائلا:

– المتمردون هؤلاء يشبهون جماعات الخبراء الذين بدأوا فى التدفق على العاصمة التى تتوسع وتتجدد بطريقة مذهلة لم أشاهد لها مثيلا من قبل. كذلك فإن الطريق الذى سوف يصل إلى بلدتكم سفينة تلك سوف ينشر الثراء والرخاء فى أقل وقت ممكن. أعتقد انه بمرور عام واحد كل شىء سوف يتغير إلى الأفضل. فى ذلك الحين ربما تفكر السفارة البريطانية فى افتتاح فرع لها هنا، ذلك إذا تجرأت "ماجى" وغمست يدها أعمق من ذلك فى محفظتها. ربما تفكر أنت أن تنضم إلينا، فبحلول السلام الشامل ربما تجد من المناسب أن تحول "مباحثك" هذه إلى وكالة لتحليل متطلبات تدريس اللغة الإنجليزية.

شعر نيكلسون بالارتعاش يشمل جسده، لذا ابتعد عن المستشار دون أن ينطق بحرف آملا أن يغادر هذه الحفل كلية، لكن بدلا من ذلك وجد نفسه فجأة فى مواجهة زوجة رجل مهم فى السفارة. لا حظ إنها

ترتدى جلبابا محليا يلبسه رعاة الغنم "كشكاى"، وتحلت بمصاغ بدوية من الفضة. أمسكت يد نيكلسون قائلة:

– أهنئك يا مستر نيكلسون بالولد الخادم عندك، انه كنز. لقد سكبت بعض الخمر على فستانى، فعرف هو على الفور ما الذى يتوجب أن يفعله. لا يمكن أن أحصل على خادم مثله فى العاصمة بالطبع سواء بإغراء المال أو الحب. أين وجدته من فضلك، أخبرنى سريعا

– تقصدين إبراهيم! حصلت عليه من قرية قريبة من هنا، قرية جهيل.

أخذت هى فى هز مصاغها قائلة،

– تعنى انه من مواطنى راس الصرة؟

– نعم، أخشى ذلك.

– ياه، لم أتخيل...

استأذن نيكلسون وقد ازدحم ذهنه بأفكار سوداء فيما يختص بزوجات رجال السفارة. هو يشعر بكراهية شديدة نحو هؤلاء الإنجلين، يعتقد جازما أن معظم رجالهم مخنثين. انه يفضل البدو عنهم، هناك فرق شاسع. هؤلاء الإنجليز كلهم جفاف، عبارة عن أصداف هشة سهلة الكسر، مملوءين بأساطير عفى عليها الزمن، يتحدثون بكليشات محفوظة ويهزلون هزلا ماسخا. البدو هم عبارة عن كائنات حية. لم يحدث لوهلة أن اعتبر نيكلسون نفسه ضمن أترابه وجنسه.

بينما يشق طريقه وسط ضيوفه، أملا أن يحظى بفترة هدوء ويحصل على هواء نقى غير ملوث، هبط درجات الفراندة ودار حولها متجها إلى مكان يواجه المحيط. كان يتوقع أن يجد المكان خاليا، لكن خاب فأله.

كانت هناك سيدة واقفة هناك، ظهرها إليه، تحملق فى مياه المحيط. لم يتعرف عليها نيكلسون أولا، لكن وهو يقترب، التفتت إليه السيدة وقد فوجئت عندما سمعت وقع أقدامه. عرف نيكلسون أنها السيدة مارى آن سيسون، رئيسة ممرضات المستشفى. لاحظ أيضا أنها كانت تبكى. لذا خاطبها قائلا:

– حسنا، إذن أنت أيضا هاربة من حفلتى.

ثم أخذ يحملق فى مياه المحيط بعمق لكى يتيح لها فرصة أن تجفف دموعها. فى الواقع هو لم يشاهدها منذ بداية الحفل. لقد دعاها من باب الذوق، لكنه لم يتوقع منها الحضور.

– نعم، ربما تكون على حق يا مستر نيكلسون. أنا أعتبر من النوع المفسد لأى حفل، فقد عشت عمرا هنا فى سفينة. لكن الحفل رائع وأشكرك لأنك دعوتنى.

ثم عادت بأنظارها نحو المحيط مضيفة:

– انه يوم مشهود بالنسبة لبلدة سفينة، أليس كذلك يا مستر نيكلسون؟

- بالطبع يا ريسة! لكنى لا أشعر بأننى بهذا القدر من السعادة.

ثم أشار نحو الأضواء التى تبرق خارج مستعمرته:

- هذا يفسد المنظر العام !

ابتسمت مارى آن:

- لكن لماذا، يجب أن تخجل من قولك هذا! إلا أننى أتفهم ما تعنيه بقولك. فعندما تستمر معيشتك هنا لفترة طويلة، يصعب عليك تقبل أن تغيير يحدث.

- ما مقدار الزمن الذى قضيتيه هنا يا ريسة؟

- الآن، دعنى أفكر، خمسة عشر سنة - لا، ستة عشر سنة تتم فى عيد الشكر القادم.

- وقت طويل فعلا.

- نعم، هو وقت طويل.. ربما زائد عن الحد.

قالت هذا وهى محملقة فى مياه المحيط.

لم يتخاطبا بعد ذلك. وقفا بجوار بعضهما فى صمت كامل. كليهما يأسف على سفينة القديمة من واقع تصوره الخاص. مارى آن تدعو أن يكون قدوم الكهرباء واستكمال الطريق وسيلة لاستحضار ما ينقص مستشفاها مما طالما حلمت به لكى تتمكن من تخفيض معدل وفيات الأطفال، أيضا لإطالة الأعمار. إذا ذكرت الحقيقة، يمكن القول أن

حالتها المزاجية السيئة الآن بدأت منذ وطأت قدميها هذا الحفل، وجدت نفسها وسط أناس مختلفين تماما عنها. كلهم يتحدثون لغتها الوطنية، لكن من مقدار تعودها على اللغة العربية أصبح من العسير عليها أن تجرى حديثا وديا مع الآخرين باللغة الإنجليزية. أيضا اهتماماتها تبعد بمقدار مليون ميل اهتمامات باقى الضيوف. كل آمالها متعلقة فى السماء، فى صحبتهم أحست أنها مختلفة عنهم، أحيانا كان ينظر لها فى سفينة كفلتة من الفلتات. لما هى ليست مستقرة فى وطنها ترعى أبنائها، أو فى عمرها الحالى ترعى أحفادها. هل يلزم أن تكون هى الأعجوبة فى كل مكان تطرقه؟ هل هى فعلا قد فقدت وطنها إلى الأبد؟. حتى عندما عادت إلى وطنها أمريكا لبلدتها "فورت مورجان" بكلورادو، شعرت بنفس احساسات الإحباط وعدم الارتياح الذى تحس بمثيله الآن وهو فى حفل نيكلسون. حبها لله وما يخصصه لها من مهام هو الذى دفعها لأن تعيش فى آخر ركن من الجزيرة العربية. من الصعب أن تنقل كل هذه الأفكار لشخص مثل نيكلسون، إنها لا تعرفه جيدا. إنها تتعجب عما إذا وجد أى إنسان يمكن أن تتواصل معه قلبا وقالبا. لا يوجد أى أمل إلا فى سبحانه فى السماء، ربما حتى هو أحيانا...

– أعتقد أنه يتوجب على أن أعود إلى المستشفى الآن يا مستر نيكلسون.

نسى نيكلسون تماما الواقفة بجواره، كان يردد لنفسه مرارا وتكرارا "يا للأسف، صحيح، شيء مؤسف"، لذا أسرع بالقول:

– أنت على حق يا ريسة، لا تقلقى، غدا هو يوم جديد.

– إنشاء الله.

قالتها باللغة العربية، ثم جادت بابتسامة مقتضبة وتركت نيكلسون فى مكانه. سارت نحو البوابة. بدت أمامه كإنسانة وحيدة، بل وفقيرة فى فستانها القطنى المطبوع وأطرافه التى تكاد أن تمسح به الأرض.

فكر نيكلسون، "يجب أن تفعل هذه السيدة شيئا بخصوص فستانها هذا" ثم تنهد وعاد إلى فيلته.

عندما راقب هيبورث خارجا مصاحبا آخر الضيوف ليوصلهم إلى الطائرة، جلس نيكلسون يحتسى الخمر فى غرفته محملقا فى آلاف اللمبات العارية التى تنير سفينة بالضوء الكهربائى. زم شفتيه ورفع كأسه فى اتجاه هذه الأضواء. الآن سوف تنشط الحياة الخاملة لناس سفينة تحت تلك الأضواء الباهرة. أخذ يفكر فيما قاله ممثل السفارة الإنجليزية، لكنه اقنع نفسه بان التفكير فى هذه المسائل قد يوجعه ويقلقه.

إبراهيم كان منشغلا بتنظيف آثار الحفل. نيكلسون وهو سكران صب كأسا من الويسكى وقدمه لإبراهيم وهو يهنئه على مجهوداته. رفض إبراهيم العرض أولا بكل أدب. لكن نيكلسون استمر فى إلحاحه وصب لنفسه كأسا قائلا بان هناك العديد من المسلمين يشربون.

شعر إبراهيم بالفضول وأيضا بالخجل من إلحاح نيكلسون، لذا قبل الكأس ورفعه لشفتيه وابتلع محتوياته فى رشفة واحدة وفعل نيكلسون مثله. لسعت الخمر حلق إبراهيم، لكنه لم يشعر بأى تغيير. تعجب لماذا كان والده يتحدث بكل هذا الغضب عن شرب الخمور.

- اجلس يا إبراهيم. أنت تستأهل فترة راحة.

قالها نيكلسون وهو يشير إلى مكان بجواره على الأريكة. جلس إبراهيم، حدق فيه نيكلسون. تقاطيع الفتى وسيمة. هناك بعض السمات إفريقية على محياه، هى محسنة بجينات مختلفة أعطت أنفه رفعة وأطالت من مقاييس وجهه.

- عيناك جميلتان يا إبراهيم، عبارة عن بركة صافية شفافة يستطيع أن يغطس فيها الإنسان ولا يصعد منها أبدا!

نطق نيكلسون تلك الكلمات باللغة الإنجليزية. هز الفتى رأسه، وهى إيماءة طالما استخدمها عندما لا يفهم ما يقال له وتعجب عما يمكن أن يفعله لاحقا.

سأله نيكلسون بالعربية:

- هل لديك صديقة يا إبراهيم؟

هز إبراهيم رأسه نفيا. لقد فهم الجملة لكنه لم يفهم ما وراء ذلك. فإما أن يكون الإنسان أعزبا وتصبح النساء بالنسبة إليه عبارة عن خيالات وأحلام، أو أن يكون متزوجا ولديه زوجة يفعل بها ما يشاء.

بعد ذلك، لاحظ أن مستر نيكلسون بدأ فى تحسس جسده. لم يتحرك إبراهيم. أخذ يراقب. انكمش قليلا، بينما مستر نيكلسون شعره يلمع فى الضياء وشفتيه الرفيعتين قد انفرجتا قليلا. ثم حاول أن ينزع من إبراهيم دشداشته. أخذ يتحسس الغلام وهو ينطق بعبارات غرامية. سارع إبراهيم بوضع يده على نفسه ثم زعق، "نو. نو". اندهش كيف انطلقت هذه الكلمات هكذا سريعا من فمه باللغة الإنجليزية.

أبعد نيكلسون يده، ثم التقط مجلة كانت موضوعة على مائدة القهوة وأخذ فى تصفحها. تسمر إبراهيم فى مكانه متحيرا عما إذا كان واجبا أن يترك المكان أم لا. لكنه لم يجرؤ على النهوض من مكانه.

حدث صوت خافت صادر من الحائط المقابل. اندفعت سحلية من خلف جهاز التليفزيون واستمرت فى سير بطئ على الحائط. هذا المنظر ملك على إبراهيم وعيه ونقله فورا إلى غرفة أخرى فى عالم آخر.

أخذ يراقب السحلية لفترة طويلة ثم قال بصوت عال:

– بالله، إنها المرة الأولى التى أشاهد فيها سحلية هنا يا سيدى.

فى لمحة، وقف نيكلسون واندفع وضرب السحلية بظهر المجلة الممسك بها.

راقب إبراهيم ما يحدث وكأن على رأسه الطير بينما تراجع نيكلسون وجلس على الأريكة. كانت هناك بقعة من الدم على الحائط حيث كانت السحلية واقفة.

– من الأفضل أن تنظف هذا المكان صباح الغد.

ثم عاد لتصفح المجلة.

فكر إبراهيم فى نفسه، "لقد قتل السحلية بلا أدنى سبب"

وقف ثم غادر المكان بلا استئذان أو يخاطب نيكلسون بكلمة.

صباح اليوم التالى، بعد ليلة بلا نوم، قام إبراهيم وغادر منزل نيكلسون وأخذ معه كل متعلقاته. قرر أن يعود لقريته.

عندما سمع نيكلسون من حارس البوابة أن الولد قد غادر المستعمرة تعجب لفترة ثم هز رأسه وأرجع هذا التصرف لقلة الخبرة فى الحياة. بعد ذلك، جعل الأمر معلوما فى سوق البلدة أنه فى حاجة إلى خادم هندى.

* * *

عبر إبراهيم بوابة المستعمرة عائدا إلى قريته وشبح الرمال الساخنة مطبوع فى ذهنه. كان غريبا أن يهجر عالم نيكلسون المكيف الهواء. قضبان من الخوف غشيت ناظريه وهو يتخيل والده وقد ارتسمت على ملامحه تعجب واستغراب عن رجوعه المفاجئ هذا، و، فى مخيلته، رأى وراء أبيه مجموعة الجيران يتضاحكون بسبب فشله فى عمله الجديد. هذه الوظيفة عند نيكلسون لم يكن من السهل الحصول على مثيلها، هو يعلم ذلك، عليه إذن أن يجيب على سيل من الأسئلة المنهمرة على أم رأسه... لكن هو لا يعرف كيف يجيب.

حاول أن ينحى مخاوفه جانبا ويركز فكره عن الوسيلة التى يمكن بها العودة إلى دياره. بالطبع من الممكن أن يسير لكن الوقت كان فى عز الصيف، لذا لم يتحمس للفكرة. لا، سوف يبحث عن قارب يبحر به. ربما لن يكون الأمر صعبا، فالمراكب الشراعية دائما ما تتحرك جيئة وذهابا إلى جهيل أولا ثم بعدها إلى العاصمة. لكن لا يجب أن يكون وجهة القارب إلى جهيل فقط، بل من المفضل أن يكون مقصده النهائى أبعد من بلدته. إنه ليس على استعداد إطلاقا أن يواجه أى فرد من قريته - إنه أمر لا محيص عنه، لكن لم يحن وقته بعد.

لكى يصل إلى مكان رسو المراكب، كان عليه أن يمر عبر السوق. بالرغم أن الوقت صباحا، إلا أن اللمبات الكهربائية ما زالت تلمع بالضياء. لم يفكر أحد أن يطفئها بعد احتفالات الليلة الماضية. ربما لم يخطر على بال أحد أنه يجب إطفائها إثناء النهار. ربما هذا التصرف يمنح أهالى نفيسة تأكيدا أن مصدر الكهرباء الذى حصلوا عليه فعلا ليس حلما طارئا. بالطبع، لم يتسلم واحد منهم أول مطالبة بتسديد قيمة فاتورة الكهرباء.

سوق السمك كان ما زال مسكوكا. أكوام من زعانف وأحشاء السمك متناثرة هنا وهناك. خلال الساحة انتشرت أسراب من القطط العفراء. هناك عدد من العمال يجرفون الزبالة ويحملونها فى صندوق سيارة لاندروفر كانت تستخدم كسيارة لنقل المخلفات.

لاحظ إبراهيم أن أحد الرجال هو من جهيل، هو واحد من أصدقاء والده، لذا أخفى وجهه بطاقيته حتى يمر من هذا المكان.

وهو سائر مخترقا شوارع ملتوية ضيقة لكى يصل إلى مكان الرسو، حاول إبراهيم أن يكون فى عقله إجابات لأسئلة يتوقع أن تلقى عليه عند عودته لقريته.

- لماذا؟

- هو قتل سحلية بريئة.

نطق الفتى بتلك الإجابة بصوت عال، لكنه لاحظ أنها إجابة سخيفة وغير منطقية.

"قتلها بلا أدنى سبب! أى والله، بلا سبب". أحد العمال الهندوس، وقد تحول وجهه للون الأخضر بسبب الأسمنت الذى يقوم بتحميله، أخذ يحملق فى إبراهيم. جاوبه إبراهيم النظر واليأس يخترط عينيه وفكر فى صديقه جون دى لوبو.

كان هناك مركبان محملان بالأسمنت واقفين على بعد قليل من الشاطئ. لم يشاهد أى مراكبى على ظهرهما. لذا جلس إبراهيم على كومة من الرمال خلف مكتب الجمارك. خلع صندله من قدميه ومسح وجهه بكم جلبابه.

مكان رسو المراكب يقع فى خور يحيط "بسفينة" كلها، هو يمتلئ وينحصر باستمرار بسبب ظاهرة المد والجزر. عبر القناة التى تربط الخور

بالمحيط تقع قرية ظاروت، وهى القرية التى يعيش فيها أكبر العائلات التجارية. فى الأيام الخوالى، كانت هذه القرية هى المسيطرة الأولى على تجارة العبيد والتوابل العديدة والغريبة. وهناك عبارة تستخدم هذه القناة جيئة وذهابا عدة مرات خلال اليوم الواحد مجاهدة ضد تيار قوى.

أخذ إبراهيم يراقب العبارة. لاحظ أن هناك عدد من النسوة يحملن جراكن للمياه سوف ينقلنها إلى ظاروت التى تخلو من أى مصدر للمياه النقية، ولاحظ أيضا أن هناك أطفال صغار ملتصقين بالأمهات بدوا كأنهم أثداء إضافية لهن. إنه لا يشعر بالشفقة على هؤلاء النسوة بسبب جهادهن اليومية، بشكل ما، أحس أنهن محظوظات، فليس لدى إحداهن مشكلة تؤرقها مثل مشكلته "لأنه قتل سحلية!".

فجأة، تجددت آماله. تذكر أن نيكلسون قد أجبره على احتساء الخمر كذلك حاول أن يغتصبه. ربما يمكن أن يدلى بهذا الدفع عندما يعود إلى بلدته! لكن أكثر الرجال جدية فى بلده سوف يضحك من قصته تلك. فهم لديهم ميل طبيعى واقعى لفعل مثل تلك الأمور، فالتعامل مع النساء لتفريغ الإشتياقات أمر بالغ الصعوبة – لذا على الإنسان أن يرضى جسده بأى وسيلة. سوف يسألونه، لماذا توقفت، لماذا جبنت. ما فعلته هو السخف فى حد ذاته. لذا داهمه الهم مرة أخرى.

شاهد رجلا نحيفا طويلا يرتدى ما يستر عورته فقط وهو يخوض فى المياه متجها نحو قارب ما. أســـرع إبراهيم ولبس صندله وجرى نحو القارب.

- إلى أنت ذاهب؟

قال الرجل وهو يقفز إلى قاربه:

- إلى عسكرة.

- عايز أروح جهيل.. دى فى سكتك. ممكن تأخدنى معك، سوف أدفع أجرك.

- تدفع كام؟

- خمسمائة قرش.

- لا، ريال بحاله.

- سبعمائة وخمسين قرش.

رجال عسكرة هؤلاء لا يتغيرون أبدا: هم لصوص وقراصنة، هذا ما دار فى بال إبراهيم.

- حسنا، اقفز إلى القارب.

رفع إبراهيم دشداشته حتى فخذيه وخاض حتى وصل إلى القارب وقفز إلى داخله. بعد عدة محاولات مع موتور القارب سار وابتعد عن القناة متجها نحو قلب المحيط.

شعر إبراهيم بالابتهاج وهو يرى نفسه فى عرض البحر بعد كل هذا الزمن. أخذ جسده يتمايل ويهتز مع خبطات الأمواج ونشاط الريح. جف عرقه سريعا بفعل نسيم البحر، لذا أحس بانتعاش مدهش.

ما أن عبر القارب القناة حتى غير البحار اتجاهه نحو الشمال محاذيا للشاطئ. راقب إبراهيم بلدة سفينة وهو تبتعد عنه. على البعد هناك تقع مستعمرة نيكلسون. وقع نظره على الفرندة الخلفية وشاهد الغسيل المعلق على الحبال والذى كان هو قد شبكه بالأمس لكى يجف. شعر بإحساس غريب وهو يرى الهدوم على البعد وهى تلوح له مودعة. بدأ الهم والقلق اللذان انزاحا قليلا بفعل نسيم البحر يعودان إليه مرة أخرى، تراجع إلى خلفية القارب بجوار المراكبى وجلس فوق شيكارة أسمنت وأخذ يحدق فى مياه البحر.

ظهر رأس سلحفاة بحرية على بعد قريب من القارب ثم اختفت. بعد وهلة ظهرت على الجانب الآخر من القارب. أدرك أن هذا هو الوقت المناسب لكى تضع السلاحف بيضها على الشاطئ، ود إبراهيم أن يرشد هذه السلحفاة لكى تبتعد عن شاطئ سفينة، وأن تتجه إلى شواطئ أكثر أمانا بجوار قريته جهيل حيث يمكن أن تضع بيضها بدون إزعاج.

السلحفاة أيضا هى من علامات الخير بالنسبة إلى أهله فى جهيل، فحيث وجدت السلحفاة إذن هناك وفرة من البلانكتون، هذا يعنى تجمعات رائعة من الأسماك. إلا أن منظر سلحفاة اليوم لم يرتبط بالصيد الوفير، لكن فكرة رحل إلى تلك الأصداف الضخمة للسلاحف التى تزين فراندة نيكلسون- لذا فكر، "هذا الرجل يهوى قتل كل ما أحبه!".

سأله المراكبى:

- كنت تعمل فى بلدة سفينة يا جهيلى؟ إنه مكان بعيد عن بلدكم.

- كنت أعمل هناك.

- أين؟

أخبره إبراهيم:

- لكن أنت لا تعمل الآن.

- لا. لقد تركت العمل...

ثم فكر: لما لا؟ لماذا لا يعترف لهذا المراكبى بكل شىء ويحاول أن يعرف وجهة نظره؟ لذا حكى إبراهيم قصته كاملة.

صاح المراكبى:

- يا الله! أنت أكبر المغفلين!

لم ينطق إبراهيم. أدرك أن رد فعل المراكبى هو نفسه ما سوف يكون عليه الحال مع أهله ووالده. بالكاد استمع ما اندفع من فم المراكبى من تعليق وهو يدعو أن لا يصير واحدا من أبنائه الستة فى مثل هذه الأنوثة والنزق، أن نهرب من الخير المتدفق الذى رزقه به الله، مثلا بسبب سحلية قتلت أو كأس من الخمر أو مداعبة جنسية بسيطة! ألا يعلم هذا الفتى أن وظيفته تلك هى حلم كل الشباب الفقير فى عسكره؟ أنهى المراكبى خطبته بالهتاف:

- أنت صحيح أجهل الجهال يا جهيلى.

وكان فى هذا أكثر من الكفاية.

أدرك إبراهيم أنه قد ارتكب خطأ آخر. هذا المراكبى سوف يتندر بقصته تلك ويحكيها لكى من يقابله على الشاطئ. أثناء سرده لها سوف تتضخم القصة وتكبر وتصبح لها شهرة مدوية بحيث تشبه قصة ذاك الشاب من قرية أم حوت الذى ارتدى ملابس نسائية ورجا والده أن يزوجه رجلا.

لم يجب إبراهيم على أى استفسار آخر من المراكبى. لم يستطع، بل أدار وجهه بعيدا ووجهه ناظريه نحو بلدة سفينة السابحة فى ضياء ما بعد الظهر، بينما هناك أفكار متدافعة قديمة وجديدة تتصارع داخل فؤاده.

الشمس وهى تقترب إلى مكة وقت الغروب، وصلوا إلى جهيل. على طول الشاطئ تراصت قوارب أهله وخلفها جلس الرجال يصلحون شباك الصيد استعدادا لليوم التالى.

أرسى المراكبى قاربه فى مياه ضحلة على بعد قليل من الشاطئ. قفز إبراهيم فى المياه وخاض فيها دون أن ينطق بكلمة واحدة مع المراكبى.

وجد ربيع وسالم، أبناء عمه منهمكين فى إصلاح شباكهما. وقف الاثنان وأخذا فى احتضان إبراهيم مرحبين به وفى أفواههما عديد من الأسئلة عن سفينة ونوعية المعيشة فيها. لكن إبراهيم أجاب باختصار وأخبرهم بأنه سوف يحكى كل شىء فى وقت لاحق. ثم حيا باقى الصيادين بكل أدب وأبدى رغبة أن يسرع إلى منزله ليرى والده.

أخذ طريقه وعبر بجوار البئر ثم الجامع بعده مدرسة تحفيظ القرآن الكريم. لا شيء تغير، لا شيء البتة. أحس بالخوف يمسك بتلابيبه وهو يلاحظ أن لا شيء قد تغير بالرغم أن هناك الكثير الذى تغير داخله. تبدو جهيل الآن فى نظره كأنما هى فخذ لحم مجمد موضوع فى ثلاجة نيكلسون. لشهور عدة تظل فى حالة من الكمون والتجمد، باردة، قاسية وغير متغيرة. ثم عندما تبرز الحاجة إليها، توضع على القرص الخشبى وتعود لتصبح لحما طريا تسرى فيه الدماء. قريته لم تتغير بالرغم من مرور الشهور والأيام عليها. تنهد وهو يعبر بعض النسوة المتجمعات حول البئر. لم يحس أنه راغب حقا فى العودة لموطنه بعد المدة التى قضاها بعيدا. لم يعد هو المكان المناسب الذى يمكن فيه أن تتلاحم كل الأشياء، حيث يمكن أن يعثر على إجابة مقنعة لأسئلة تلقى. كل شيء الآن تفكك فى ناظره وليست هناك إجابات جاهزة.

كالمعتاد، وجد منزل بيته مفتوحا على مصراعيه. خلع صندله المبلل ودخل. لاحظ أن لا شيء داخل المنزل قد تغير: الجدران، السقف، الهلاهيل المعلقة. كل شيء فى موضعه المعتاد كما تركه. جلس واخذ يحدق فى السقف. كيف يحدث هذا؟ انه بيته، هو جزء من كيانه العزيز لديه، هو كيان غير متغير وكله براءة بينما هو رأى واختبر أمورا تجعل بيته هذا يهتز ويرتعش وينتفض.

زحف صرصور عبر الأرضية بجوار المرتبة حيث يرقد. بشكل متعمد مد يده وخبط الصرصور بقوة. أنتجت الضربة بقعة دموية مختلطة ببقاى الحشرة لونها بنى أحمر على الأرض. أخذ إبراهيم يراقب هذا المنظر مندهشا. لاحظ أن إحدى سيقان الصرصور كانت ترعش بقوة. فجأة انفجرت ينابيع دموعه وشمله غضب عارم بسبب دموعه التى استمرت فى الانهمار.

همس لنفسه، "جعلك هذا الإنجليزى بنتا وحرمة!". هوت يده مرة أخرى على بقايا الصرصور وأخذ يخبط غير واع للألم الذى بدأ يسرى فى كف يده وذراعه. حينئذ، وللحال، رقد على فرشته وأخذ يحملق فى السقف.

كان نائما عندما حضر والده. أبوه لم يسمع بعودته، لذا صاح ما أن رآه:

-إبراهيم ولدى! الحمد لله! رجعت لبيتك يا ابنى.

لم يعثر إبراهيم ما يمكن أن ينطق به لذا جلس صامتا. استمرت عبارات الترحيب تنهمر من فم والده وهو يقبل ابنه يمينا ويسارا. إبراهيم تجمد فى ابتسامة ثابتة، لكن قلبه هبط فى ينبوع من اليأس. تحير كيف يخلع عنه هذا القدر من الألم الذى استقر فى صميم أعماقه. ود لو كان فى إمكانه أن يخلع عن نفسه روحه أيضا.

أخيراً انتهى والده من الترحيبات واستعد ليخرج مخبرا أقاربه ومعارفه، متفكرا أى معزة تلك التى سوف ينحرها احتفالا بعودة ابنه.

فكر أيضا بضرورة شراء كمية إضافية من الأرز والبيض ليصنع وليمة، وبلطف بالغ أخذ يلوم ابنه لأنه لم يخطر بموعد عودته.

فى وسط حديثه المتواصل، أشعل قطعة من الفحم ووضعها فى وعاء خاص وعليها بعضا من البخور فتصاعد على الفور شريط دخانى ازرق صاعدا فى اتجاه السقف، كأنما هو عصا مستقيمة قد انتشبت وسط الهواء الساكن. التفت نحو إبراهيم عميقا قائلا:

- بس لو كانت أمك حاضرة معنا الآن لأمكن لها أن تحسن التصرف أفضل منى. أنا يا ابنى رجل عجوز لا أعلم كيف أرحب حقا بعودة ابنى الوحيد. ليكن لك أكثر من زوجة يا إبراهيم. لا تشابهنى بحيث تصبح رجلا وحيدا قليل الحيلة.

حينئذ انخرط إبراهيم فى بكاء مر شمل جسده كله وهزه هزا، لدرجة أن أبية ظنه يضحك. فكر إبراهيم، إذن هذه هى الوسيلة الفعالة للتخلص من الآلام. لكنها أيضا ليست بهذه الطريقة. هجم عليه الألم بالأكثر عندما ضمه أباه بين ذراعيه متسائلا، "لماذا؟". ها هو السؤال الذى يخشاه أكثر من أى شيء آخر. لكن لم تصدر كلمة من فيه. تخيل ذاك المراكبى والكلمات تنطلق منه، "يا أجهل الجهال يا جهيلى!".

أخيرا استطاع أن يستجمع ذاته ليقول:

- مستر نيكلسون قتل سحلية بلا أى سبب. لذلك قررت أن أترك هذه الوظيفة.

وما زال مستلقيا فى صدر أبيه يتسمع إلى دقـات قلبه وهى تطن متوقعا تفجـر نوبة من الغـضـب. شـعـر كأنه ما زال طفـلا غـريرا وهو ملتـصق بجسـد أبيه، لكن فى تـلك اللحـظـة بالذات ود لو كـان فى حضن والدته.

انتظر. ثم شـعـر بيدى والده تمسك بكتـفـيه وتبـعـده قليـلا بحيث يستطيع أن يستجلى عينيه: – إبراهيم. ربما الخواجة لا يريد أن تقع عيناه على مثل تلك المخلوقات. الناس

المختلفين عنا بهم عاداتهم وعوائدهـم الخاصة. متـأكد أن هذا هو السبب الوحيد؟

– هذا هو السبب يا والدى.

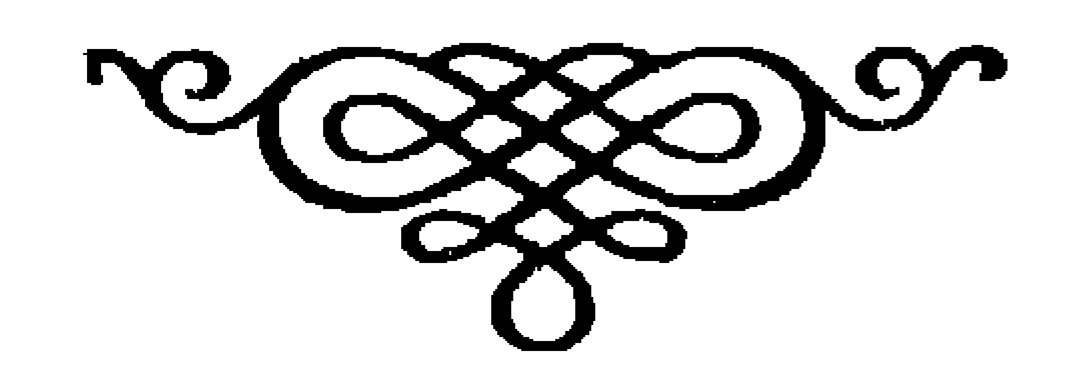
رفع الرجل العجوز يده اليمنى نحو السماء:

– أنت مـا زلت شابا يا ابنى. ليس لديك القـدر الكافى من الحكمة بحيث تدرك كيف يسير العالم. لكنك على أية حال قد اتخذت قرارا. لعل الله لم يشـأ أن تبتـعد عن بلدك. أعترف لك أن خطاباتك كان تشغل فكرى دائما. أحيانا كنت أتخيل أنك قد نسيت تماما طباعنا وعاداتنا. ربما هذا ليس بالأمـر السـيئ أن تعود إلينا. لا يجب بالطبع أن تقتل السحـالى. على الأقـل هذا يحـدث فى جهيل. هو منزل غريب أن يحدث فيه مثل هذا الأمر.

وقف الوالد وابتسم ثم استعد لمغادرة المنزل لكى يبحث عن أخته لكى تجهز لهما طعاما مناسبا لهما. ثم، بعد تفكير قال:

– نعم، ربما تكون هذه هى إرادة الله. إننى فى أشد الحاجة لمن يرعى معيزنا ويأخذ باله من قاربنا. الصيد انخفض معدله بشكل بالغ بدونك يا إبراهيم. هناك عمل ضخم ينوء بحمله رجل عجوز مثلى.

ثم ترك إبراهيم لنفسه.



(٥)

بعد عدة أسابيع من عودة إبراهيم لقريته، حطت طائرة فى المطار الدولى لعاصمة راس الصرة. بين الركاب كان هناك شاب إنجليزى نحيف القوام طويلا يلبس نظارة طبية. هو ذاك الذى سوف يلعب دوراً هاماً فى حياة إبراهيم – وبالحقيقة، فى حياة نيكلسون أيضا.

اسمه بيتر دروزى وهو الذى عين مفتشا للغة الإنجليزية فى المدارس الابتدائية فى المنطقة الشرقية لرأس الصرة.

لقد تم اختباره فى لندن بواسطة مستشار التعليم الذى كان قد حضر حفل نيكلسون، وقد وعد بأن يقضى المرشح سنتين كلها عبارة عن مغامرة، وسوف يحصل على سكن مناسب فى الصحراء وسيارة لاندروفر جديدة. كذلك أنذر المرشح بأن وظيفته سوف تكون نوع من التحدى، لكن ربما لن يكون الدخل كبيرا، إلا إنها سوف تكون تجربة مفيدة للغاية.

عندما حضر بيتر إلى مكتب المستشار فى شارع ديفيز فى لندن، علم هذا الأخير أن بيتر كان قد قضى عامين يدرس اللغة الإنجليزية فى إحدى قرى غرب السودان.

سأله المستشار:

- هل لغتك العربية جيدة ؟

أجاب بيتر باللغة العربية:

- أيوه

- رائع، هل لديك أى مشاكل صحية؟

- لا

- حسنا. أنت مرشح مثالى، متى تكون مستعدا لمباشرة عملك الجديد؟

- فى التو واللحظة.

- شىء جميل.

بعد قضائه ثلاثة أيام فى عاصمة رأس الصرة جالسا على مكتب صغير تابع لوزارة التعليم، طلب أن يرحل لمكانه الجديد. لذا حزم شنطته ووضعها فى سيارته اللاندروفر الجديدة متوجها إلى سفينة.

* * *

كان عليه أن يقود سيارته شمالا لمسافة عشرين ميلا فى طريق عام له ست حارات قبلما يدور ليسلك طريقا مفردا ناعما، لكن ما أن اتجه جنوبا حتى لاحظ أن الطريق المسفلت أصبح متقطعا. وهو يسير شاهد

عدد من رجال إنشاء الطرق الفرنسيين ومعهم آلاتهم الثقيلة يعملون في إنشاء الطريق الذى سوف يصل إلى سفينة. بعد قضائه حوالى الساعة فى هذا الطريق، سلك طريقا وعرا سيضطر أن يسير فيه حتى يصل إلى مقصده.

فكر، "الآن، أنا فعلا فى الطريق!". ثم ضغط على بوق سيارته جزلا منتشيا. هو شعور طيب أن يترك الطريق المرصوف خلفه ليتقابل مع المغامرة الجديدة، فهو قد قبل هذه الوظيفة بسبب ذلك، وهم لم يعدوه بغير هذا. كل شيء أمامه كان مشوشا. انه لن يتمكن فعل الشيء الكثير للغة الإنجليزية، فقط ما يمكن إنجازه خلال "الظروف الصعبة الطارئة" – وهذا هو الوصف الدقيق الذى صدر من مستشار التعليم. لكن، وبصراحة، العمل ليس هو ما يهتم به بيتر دوروى على الأكثر، كل ما يهتم له هو أن يرحل إلى آخر ركن فى الجزيرة العربية بكل ما يمثله هذا من معنى.

كانت الشمس تصعد إلى سمتها عندما قاد سيارته بجوار بعض التلال المخروطية، ثم شاهد عدة قرى كل جدرانها مبنية بالطين كذلك أبراج للمراقبة وتجمعات رائعة من أشجار النخيل، المنظر العام يبدو كأنه لوحة زيتية مرسومة أو كأنه غابة من غابات مقاطعة ويلز.

إنه ليس من مواطنى ويلز بانجلترا، لكن هى أصبحت موطنه بالتبنى. الظروف الحسنة جعلته يلتحق بجامعة مقامها فى ويلز، هناك حصل على بكالوريوس المعلمين بدرجات الشرف، لكن أعظم ما جذبه إلى ويلز هو

جبالها الشاهقة التى تفوق فى الأهمية ما إكتنزه من علم امتص طاقته وشبابه. فى مدينة سيدونيا بويلز لم يتواجد أى جبل يمكن تسلقه إلا وقد تشرف بطلعته النحيفة منذ صعوده بضع درجات بسيطة ليتسلم شهادة تخرجه. إلا أن بقائه فى هذه المدينة استمر عاما آخر بحجة أنه يود الحصول على دبلومة، لكن فى الواقع، كان السبب فى بقائه هو هوايته لتسلق الجبال. ثم، بعد ذلك، ذهب ليدرس ما تعلمه فى مدينة بانجور. لم يكن متأكدا أنه راغب فى موضوع التدريس هذا، لكن ما كان مدركا له جيدا هو ضرورة استمرار بقائه أطول مدة بجوار جبال بانجور.

كمدرس استطاع أن يأخذ أطفال مدرسته إلى الجبال. استطاع أن يطعم تدريسه دائما بحكايات عن الجبال، لذا اشتهر بأنه "زعيم النشاط الخارجى"، وهى سمعة طالما استمتع بها. لم يكن حريصا بمقدار وهو يقود مجموعة لأطفال إلى الجبال وبصحبتهم لفائف غذائهم ومعلق على أكتافهم زجاجات الترموس التى ما فتئت تنزلق وتقع مهشمة على الأرض، لكن كل هذا أفضل كثيرا من الحبس داخل جدران الفصول.

استمر هو فى تصفح إعلانات الوظائف فى الجرائد بحثا عن وظيفة تدريس يكون موقعها فى أماكن جذابة مثل: بيرو، نيبال، بورما. لذا بدأ فى طلب هذه الدول بالذات، لكن دائما ما تكون الإجابة على طلباته، "درسنا طلبك بكل عناية، لكن للأسف..". أخيرا تقدم للوظائف التطوعية أعالى البحار. ويبدو إنهم سروا من طلبه المقدم وأجابوا بأن طلبه هذا يمكن أن يتحقق فى السودان، هل يناسبك ذلك؟ ثم ذكروا اسم قرية

معينة تقع فى غرب السودان، لذا اندفع سريعا وفتح أطلسا. عندما شاهد ألوان بنية تغلب على الرسم، قال على الفور نعم- إلى أن اكتشف بعد ذلك أن الألوان البنية تعنى صحراء وليس جبالا. كانت هذه صدمة داهمته عندما وصل تلك القرية، لكن بقائه فى ذلك المكان استمر ثلاث سنوات بدلا من اثنين، ودمعت عيناه عندما استقل اللورى ليغادرها نهائيا بينما صيحات وداع الأطفال تتابعه، "مع السلامة يا سيدى". تلك التحية أخذت ترن فى أذنيه وتفتح لنفسها مجرى دائم للدموع فى عينيه أصبح ملازما دائما له بعد ذلك.

لقد أحب هؤلاء الأطفال السودانيين - الذين صنعوا منه مدرسا حقيقيا. على مدى ثلاث سنوات، علمهم أساسيات اللغة الإنجليزية. عندما غادرهم وهم يلوحون له، أحس أنه تسلق أصعب قمة جبل فى العالم كله. وقف شامخا فى مقتبل عمره والدموع تجرى من مآقيه، دموع فرح وأسى وامتنان.

هناك في السودان تعلم ما هو التحدى. تحديا يجعله قادرا على الحفاظ على قلمه الجاف أطول مدة ممكنة حتى يتسنى له أن يرسم خريطة لويلز على غطاء سريره، ثم يشرح تفاصيل الموقع لأبناء الصحراء هؤلاء. تحديا أن يستطيع وينجح فى تحفيظهم أغنية "الأرقام" كذلك أنشودة "الأوانى الخضراء" بينما هم لم يتناولوا أى إفطار هذا الصباح. تحديا أن يقف صامدا كالطود أمام الإهمال الذى يتصف به أهل السلطان والحكم. ترك تلاميذه قادرين أن يكتبوا على الرمال جملا إنجليزية كاملة -

فالرمال هى كراستهم. تركهم وهم يكررون عدة جمل باللغة الإنجليزية، مثل "لا تبذر، فلا تحتاج"، وهو يعلم أنه ليس بمقدورهم أن يبذروا لأنهم فى الأصل لا يمتلكون شيئا ويحتاجون لكل شيء.

فى المقابل، منحه هؤلاء الأطفال حبا غامرا، هم علموه أيضا أن الصحراوات والرمال الصفراء يمكن أن تحتوى أيضا على جبال شاهقة ومناظر خلابة، هم أيضا نجحوا فى عمل شق فى قناته الدمعية بحيث ما أن يتذكرهم حتى تسح عيناه. السنوات الثلاث التى قضاها فى السودان، شددت من قوة جسده لكن رققت من مشاعره.

بعد عودته إلى مدينة بانجور فى وطنه إنجلترا، صرخ فى تلاميذه الجدد وأهاليهم، "أيها البؤساء!"، فاشتكى هؤلاء وتذمروا. تحمل وضعه الجديد هذا لمدة سنة بأكملها، ثم انضم إلى دراسة مكملة تجعله مؤهلا أن يدرس اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية.

كم كره عودته إلى بريطانيا! لم يتوافق أبدا فى بلده. كان يشعر بانقباض يضغط على قلبه عندما تقع أنظار على تلك المولات الضخمة أمثال "و. سميث" وما فيها من عجائب عديدة يمكن أن تقدمه للأطفال من مسليات وكماليات. إذا تمكن الإنسان أن يصطحب واحدة من تلك الفروع الضخمة إلى قريته السودانية، فيا له من فرق يمكن أن يحدثه ذلك!. لكن هنا تجد الأطفال يجذبون أردية الأمهات طالبين أن يذهبوا إلى مكان آخر فيه متعة أكبر، فهم سرعان ما يشعرون بالزهق والملل من

آلاف الألعاب التى تحت تصرفهم. واحدة منها فقط كفيلة أن تجعل أطفاله في السودان يستغرقون فى تعجب لا نهائى وينشغلون بها لمدة عام كامل.

بعد تجربته السودانية، الاندفاع الاستهلاكى لم يأسره. شعر هو أنه قد التهم فعلا فاكهة معرفة الخير والشر. تجربته فى مشاركة الأغلبية فى معيشة الضنك وضح أمام عينيه حقيقة جوهرية، هى أن كل سياسى بريطانى وفى أى مكان آخر فى محيط العالم الثرى، يعلمون كل شىء لكن لا يواجهون الحقائق أو يعملون على إصلاح العالم: عظمتهم تدعوهم إلى الاستمرار فى النمو وتعزيز الثراء أكثر وأكثر، وهذا بالطبع يقود باقى العالم إلى مزيد من الفقر، ظلام دامس، أضلاع بارزة وبطون منتفخة.

أدرك بيتر درورى أن عليه أن يغادر انجلترا بأسرع وقت ممكن.

* * *

الآن وهو فى طريقه إلى بلدة سفينة، أخذ ينشد الأغنيات الحماسية، فروحه المعنوية فى أعلى صورها، ولعله يقود سيارته متجها نحو القمر، لكن فى الحقيقة، القمر هو فعلا مقصده. القمر والذكريات والتوقع اللذيذ، كل هذا المشاعر هو أقوى من احتماله.

بعد قيادته للسيارة لمدة أربعة ساعات، استدار يسارا ثم اتجه شرقا ليصل إلى "سفينة". أصبح الطريق أكثر وعورة عما قبل، لكن ما يعوض ذلك تلك المناظر الساحرة التى تترى أمامه. الطريق يسير فى وادى متدرج فى الهبوط، ولسعادته البارحة لمح مياه تبرق على البعد فى الأسفل وحولها تجمعات من أشجار النخيل بحيث تمثل واحة غناء وسط بساط بنى اللون من الصخور والرمال. هذا غمره بمرح بالغ، لذا ارتفع صوته بالغناء وأخذ يجول بناظريه باحثا عن مكان يمكن أن يركن فيه السيارة ويستحم. أخيرا عثر على مكان وركن سيارته بعيدا عن الطريق، لكن ترك السيارة تتنهد وتتك، ثم هبط جوانب الوادى متجها نحو المياه. بعد أن تجاوز بعض النخلات عثر على ما تمناه. وجد بركة عميقة مليئة بالمياه الصافية البراقة وسط الصحراء. شكل المياه كأنما هو ينظر من خلال كوب ماء شفاف وعمق البركة لا يقل عن عشرين قدما. تنهد بارتياح وشكر الله فى قلبه كذلك شكر السفارة البريطانية.

خلع كل ملابسه وغطس فى الماء، إلا أن شهقة ندت من حلقه بسبب برودتها. أخذ يعوم بقوة ويطرطش هنا وهناك ويملأ فمه بالماء ويمضمض ثم ينثر الماء عاليا محدثا نافورة محاولا أن يغرق الحشرات الطائرة. بعد ذلك لاحظ أن هناك عدد من الأسماك الصغيرة التى لا لون لها قد تجمعت حوله وأخذت تعضه برقة. شعر كأنما هى تقبله. أخذ صوته يعلو بالغناء بينما الصخور التى حوله تجاوبه بالصدى المرح. هذه هى الجنة بعينها.

أخيرا جلس بجوار البركة بينما الشمس تهبط وتفقد الكثير من قوتها، وهو جالس هكذا، استغرق فى حلم من أحلام اليقظة. تخيل أبنائه السود وهم يشاركونه اللعب فى هذه البركة بينما أجسادهم اللولبية تلمع وسط المياه وأفواههم محتشدة بأفضل أنواع الحلوى.

عندما استيقظ، لاحظ أن أشعة الشمس تداعبه من خلف أغصان النخيل. إذن حان وقت الرحيل. ربما لا يبعد مكان مقصده، لكن علية أيضا أن يتعجل.

قاد سيارته بعد مسافة وقع نظره على مكتب التعليم الذى وصف له بأنه يقع فى أطراف بلدة سفينة، لذا اتجه نحوه مباشرة. لاحظ أن هناك لوحة معلقة على أعلى الباب الرئيسى مكتوب عليها "شعلة التعليم".

كل العاملين غادروا العمل وذهبوا لبيوتهم، لكن أحدهم فقط بقى لأنه كان على علم بوصول المفتش اليوم. بعد السلام جلس بجوار بيتر الذى قاد فى نفس الطريق الذى أتى منه. عبر خلال ممر جبلى إلى أن وصل إلى منطقة مسطحة جرداء وعلى البعد شاهد مجموعة من النخيل ووسطها تقع بيوت قرية صغيرة. إنها "بلاد سفينة".

قاد السيارة إلى أن توقف وسط منطقة صحراوية جرداء انتصب فيها بيت غريب الشكل، جدرانه من الاسبستوس. قال بيتر:

– مصيبة أن يكون هذا هو مقرى؟

ابتسم رفيقه وأخذ يشخلل مجموعة من المفاتيح بين يديه. ثم سأل بيتر:

- لماذا شيدوا هذا البيت الغريب وسط الصحراء الجرداء؟

رد الرفيق:

- لعل في نيتهم أن يبنوا مدرسة بجوار منزلك تكون في خدمة قرية بلاد سفينة.

هز بيتر رأسه وبلع ريقه بصعوبة. توقفت السيارة وقام موظف التعليم بفتح باب المنزل له ودعاه بكل أدب أن يتابعه.

غابت الشمس الآن، لكن الحر كان مسيطرا، أما داخل هذا المنزل الاسبستوسي فإن الحرارة تضاعفت عدة مرات. فكر هو، أنه بيت عجيب يقودونه إليه بعد قضائه يوما بأكمله يقود سيارته، يتطلع على البعد نحو جدران طينية توراتية، تحيط بها أشجار النخيل، ثم يسير في طريق لم تتغير معالمه منذ عدة قرون.

المنزل كله مشيد من الاسبستوس والبلاستيك. حرارته الداخلية تشبه ولوج فرن متقد. النوافذ مصنوعة من الألمونيوم، لكن، صنعت بشكل سيئ وتفتح وتقفل بصعوبة بالغة. دهان الحوائط هو اللون الأبيض الزاعق وواضح أن لا احد سكن فيه من قبل. لكن هل يمكن العيش داخله؟. إنها الحرارة. يبدو أن هذا المنزل قد احتفظ بداخله بكل حرارة راس

الصرة وأشعتها مستخدما عدسة مكبرة. تخيل فى تلك اللحظة قمة جبل إدريس والريح الباردة تمرح وتبعث القشعريرة في جسده.

يقود الباب الرئيسى إلى صالة مربعة كبيرة ونوافذ فى حائطين منها تطل على الصحراء والتلال المستوية أماما. عبر الصالة تشاهد عدة فواصل معقدة، على اليمين يقع المطبخ ثم غرفة نوم وتواليت. على اليسار، غرفتى نوم أخريين وحمام. الورق الذى لفت به الأحواض لا يزال كما هو، مكتوب فيه أنه من صنع شركة "فوردهام". فى واحدة من غرف النوم عثر على كل الأثاث الذى يتكون من مائدة، مقعد، سرير مغطى بملاءة مطبوع عليها أزهار. أخيرا جلس على حرف المرتبة.

انهمر العرق من كل أجزاء جسده. أخذ يحدق فى مشمع الأرضية بنوع من القرف. جيش من النمل كان يعبر الأرضية. أخذ عرقه ينساب إلى الأرض محولة ذرات التراب المتجمع إلى طين. كان هناك مكيفا معلقا على الحائط. هذا شيء له اعتباره حقا. ذهب إليه وضغط على زر التشغيل. لم يحدث شيء. ربما ذهب هذا الأخ ليشغل الكهرباء، هذا ما شغل فكره.

سمع بعد ذلك ضوضاء مزعجة، غريبة، كأنما هو صوت سيارة لورى واقفة أمام الباب والسائق يضغط بقوة على بدال البنزين. أخيرا انخفض الصوت قليلا وأشبه سيارة أتوبيس تعمل بالسرعة البطيئة. لمبة عارية أنارت فوق رأسه. هى لمبة قبيحة الشكل وضعت داخل محتوى

غبى مصنوع من الألمونيوم، تقليد سيئ للمصنوعات الدانمركية. اشتغل المكيف باعثا موجة من الهواء البارد القذر. آه، هذا ما خطر بباله، أوه ثم أوه!

عاد الرجل، مبتسما، فخورا لأنه استطاع أن يشغل المولد الكهربى. بعدها أخذ ينتقل إلى كل غرف المنزل ينير اللمبات، ثم قال بالإنجليزية:

– بعد ثمانية ساعة... المولد ينام!

– لماذا؟

قالها بيتر وهو يتميز غيظا لأن لا أحد أخبره عن موضوع المولد.

– هذا المولد.. ليس جيد. ثمانية ساعة ثم يتعب. هو مولد هندى مش تمام، ليستر أحسن منه. هندى مش كويس.

أهمل بيتر التعليق على التفصيلات الشخصية:

– ما هى مدة نوم هذا المولد ؟

قالها بالإنجليزية ليتيح للموظف أن يستعرض مهارته:

– نوم كثير. ثمانية ساعة يعمل وستة عشر ساعة نوم.

– فقط ثمان ساعات! لماذا؟.

شعر بالغباء وهو يلقى بهذه الأسئلة، لكنه فعلها على كل حال.

أجاب الرجل:

– انه هندى. المولدات الهندية سيئة. تنام كثيرا. الرجل الهندى أيضا مش كويس.

طلب هذا الموظف من بيتر أن يمنحه علبة بيرة. عبس هذا الأخير ثم فتح صندوق التبريد الملازم له وأعطاه واحدة. لم يشربها الرجل لكنه اقترب ولثم يد بيتر ثم غادر رافضا عرض بيتر أن يوصله حتى مكتب التعليم.

فى تلك الحالة المغرقة فى الإحباط، أخذ بيتر فى احتساب الاعتبارات الواجب أن يتبعها خلال ثمان ساعات تواجد الكهرباء فى هذا الجو الحار القاتل. سيضطر أن يقسم هذا الوقت بكل حرص. التبريد هو أهم الأمور. فكر، على ذلك، هو سوف يقضى فى العمل جزء من النهار، فى الأمسيات يمكن أن يذهب إلى البحر أو إلى البركة التى اكتشفها، ربما أيضا يحصل على قارب... لذلك، إذا اشتعل المولد فى الصباح الباكر سوف يجعل المكان باردا ومقبولا، يمكن أيضا أن يستخدم الإضاءة حتى موعد نومه. هذه أفضل الحلول.

تجول داخل المنزل محاولا استكشاف أفضل ما فيه. تعجب من أحوال هذا المولد. ألم يخبره مستشار التعليم أن سفينة قد أنيرت كهربائيا مؤخرا؟. فى الحقيقة خيل إليه أنه قد مر على مبنى محطة كهرباء عملاقة أثناء قيادته للسيارة. نعم، هو الآن خارج نطاق البلدة. يا الله، الحرارة مخيفة! إنها صدمة حضارية قاسية. أخيرا استطاع أن يضبط نفسه؛ ليس من المناسب أن يكون بهذه الدرجة من السلبية. حاول أن يتذكر البركة المنعشة التى تقع على الطريق والأسماك التى تلثم! أيضا، بالمقارنة بالكوخ المسقف بأغصان الشجر الذى كان يشغله بالسودان،

يعتبر هذا قصرا. كان من الممكن أن تكون الأمور أسوأ من ذلك – أكثر بكثير.

ذهب إلى المطبخ وفتح الثلاجة. يا للمغفلين، إذا كان متاحا له ثمان ساعات للتبريد كل يوم، إذن كيف يتاح له تبريد طعامه؟ لم يفكر فى هذا. سوف يختفى الثلج تماما لعدة ساعات فى النهار! هذه صورة قاتمة للموقف كله، ما العمل أيضا بالنسبة للريكوردر؟

بدأ الوجوم ينزاح قليلا مع غروب الشمس. استطاعت الشمس أن تسيح عقله، مما دعا إلى ظهور رؤى خيالية شاهد فيها مناظر من وطنه انجلترا. على أية حال، معيشته فى بريطانيا لم تكن بهذه الدرجة من السوء.

فتح صنابير الماء. تدفق ماء لونه أصفر. فكر أن لا يشرب منه. دعا الماء يجرى أكثر، لكن اللون الأصفر لم يختفى. ثم تذكر أن لديه أقراص توضع فى الماء لتنقيه، لذا أمسك بغطاء الترموس وملأه من ماء الصنبور ووضع القرص وانتظر مليا حتى يذوب ثم شرب. شعر كأنه يبتلع مياه حمام للسباحة.

عاد إلى الغرفة التى به المرتبة. لقد فعل المكيف ما عليه، ببطء أخرج كل متعلقاته من الشنطة ووضعها على المائدة.

فى الساعة الحادية عشرة استعد للنوم. خرج ليطفئ المولد، لاحظ اختفاء الأنوار بسكون المولد، ثم عاد إلى المنزل مسترشدا بضياء القمر.

رقد على المرتبة، لاحظ أنها تشع حرارة. نهض وذهب إلى الحمام ووقف تحت الدش بملابسه الداخلية. تدفق الماء على جسده كان منعشا. رجع إلى سريره وما زالت فانلته وسرواله ينضحان بالماء، رقد هكذا على السرير وحاول أو يتناسى حاضره المؤلم ويركز على احتمالات المستقبل... كأنما هو غريق يتشبث بقوة فى عوامة نجاة.

* * *

بعد أسبوعين من وصول بيتر إلى سفينة، قال نيكلسون إلى هيبورث:

– لقد أفلتت الأمور من بين أيدينا.

– لما تقول هذا أيها الرجل العجوز؟

سند نيكلسون رأسه على المقعد الشيزلونج وأخذ يتطلع إلى النجوم التى تناثرت فوق سفينة. لقد التهم عشوة ظريفة وشرب بحرا من الخمور. لقد تفوق خادمه الهندى الجديد على نفسه. صعد القمر من البحر والآن هو على يساره وألقى ضوءا شاعريا على مجموعة القوارب التى من ضمنها قارب نيكلسون الضخم الأنيق. زجاجة الأرمناك وقفت ثابتة فى مكانها وهى نصف ملآنة قريبة من كوعه. يا له من منظر خلاب. كرر هيبورث القول:

– ما الذى يشغلك يا رجل يا عجوز؟

- أوه، لا شيء! لم تعد الأمور كما في السابق أيام الحرب الأهلية هنا - الآن لا شيء يحدث - لا شيء يبشر بالخير.

- عندك حق. أيامنا هذه مغايرة تماما لأيامنا الرائعة. مع ذلك، الحقيقة تقرر أن السلام الذى تنعم به المنطقة الآن يعود فى معظمها إلى جهودك يا سيمون.

يا للمغفل الكبير، هذا ما خطر ببال، وهذه كنية طالما أطلقها على زميله الإنجليزى الوحيد في سفينة. لذا ردد، "طبعا، طبعا!"

- إذن ما الذى تعتقد انه خارج عن التحكم؟

نعم، ما هو؟ لعله عب الكثير من الخمر. هز كتفيه وحدق بتمعن فى شمعة وضعت داخل إناء زجاجى على المائدة أمامه. ضوءها انعكس على زجاجة الأرمناك مما جعلها تتوهج وتعطى شكلا لنار تشتعل فى مدينة مختفية خلف جبل. أجاب نيكلسون:

- لقد نسيت.

فجأة أحس أنه ود لو كان بمفرده الآن وبجواره زجاجة الخمر، بل أكثر من ذلك، ود لو استطاع أن يهرب من منظر هذا الوجه الوردى المنهوب الماثل أمامه.

لكن بعدها تذكر:

- آه نعم، تذكرت الخطأ الذى وقعنا فيه. إنهم هؤلاء المدنيين الملعونين. هناك عدد كبير منهم أنا أكرههم.

أجاب هيبورث بهدوء:

– لم يستجد علينا سوى مفتش اللغة الإنجليزية وهذه الممرضة التى أوفدتها منظمة (أنقذوا الأطفال).

– هذه بداية الفساد كما أؤكد لك! مفتش اللغة الإنجليزية! إذا استمر الحال هكذا فسوف نجد أنفسنا محاطين بزوجات السباكين يدفعن أمامهن بعربات الأطفال ذاهبات وغاديات إلى السوق وعلى رؤوسهن عواقص الشعر.

– منظر مؤذى فعلا يا رجل يا عجوز.

– منظر غبى، وتعلم بالطبع ما الذى سوف يفعله هذا بنا. أليس كذلك؟ إنها صفعة قوية فوق أصداغنا.

– صبرا يا سيمون. اعتقد انك تبالغ نوعا.

– هل هذا صحيح؟ هل تظن أن أمير البلاد قد ترك اثنين من الأجانب هنا لأنه يريد ذلك؟. هل تعتقد أنه يدفع لنا مرتباتنا الضخمة والعز الذى نرفل فيه وأن هذا من الممكن أن يبعث بالسرور فى قلبه؟

– طبعا لا... لكن...

اعتدل نيكلسون فى جلسته وقرب وجهه من هيبورث قائلا:

– طبعا أنا على حق. ما أن يتحقق الأمير أن المتمردين قد انتهوا من المنطقة الشرقية وليس هناك فردا واحدا منهم متواجد فى سفينة،

حينئذ سوف يكون هذا مؤشرا لأن نستعد للرحيل من هنا، وعشانا عليك يا رب. بعدها سوف يستبدلنا بالهنود. وهذا ما يحدث فى مناطق أخرى. إذا سألتنى، أقول لك إننا معلقين بطرف إصبع واحد على قمة صخرة.

– اعتقد أنك على حق يا سيمون. المنطقة الشرقية تلك هى منطقة حساسة والأمير لم يزرها منذ توليه الحكم. أعتقد أن الأمن والأمان لن يتحقق كاملا إلا بعد أمد طويل.

– تعتقد ذلك؟

قاطعه نيكلسون وقد نفذ صبره. يا الله، هيبورث هذا مخه ضحل للغاية. شعر نيكلسون بحيرة بالغة. هل هو فعلا يكره هذا الرجل. على أية حال، ليس هناك سواه يمكن أن أنادمه الشرب، لا أحد فى سفينة يمكن أن أتباسط معه سوى هذا المغفل. يمكن له بالطبع أن يحضر إحدى اجتماعات الصلاة التى تعقدها الرئيسة مارى آن، لكن هذا شيء مختلف تماما. هناك بالطبع الممرضة الجديدة كذلك مفتش اللغة الإنجليزية. لكن لا، هؤلاء لا يصلحون له. هو فى حاجة لمن يماثلونه تماما، هيبورث هو المناسب لذلك.

قال نيكلسون وهو يائس من تلقى ردا يرضيه:

– أخبرنى عما حدث بحيث يؤكد وجهة نظرك تلك.

لوح هيبورث كأسه تجاه نيكلسون فى حركة احتجاج، لكن زميله استمر فى الحديث:

– أوه، اننى أعلم، أنت تكلف فرقتك بالتفتيش على أقصى مكان هنا. تفتش السيارات بل وتقبض على الأهالى وتستجوبهم – لكن ما الذى اكتشفته طوال العام الماضى وكان له قيمة حقيقية؟

– حسنا...

– أعنى أى موضوع بخلاف موضوع صندوق الويسكى؟

– وبعدين معاك يا سيمون، ليس من العدل أن تذكر هذا الموضوع.

– تظن ذلك؟

– كيف تظن أنه فى إمكانى أن أعلم؟

– حسنا، لكن ما الذى يمكن أن تظهره للمسئولين يستأهل ما نحصل عليه من دخل محترم يبرر تواجدنا فى المنطقة الشرقية من رأس الصرة؟

لم يجب هيبورث، كان مغموما بسبب الملاحظة الخاصة بصندوق الويسكى. كانت هى فى الحقيقة ورطة مؤلمة، لكن ليس هناك ما يدعو لذكرها الآن.

هيبورث ورجاله كانوا فى دورية، يضعون الحواجز على الطرق ويبحثون على البنادق والمتمردين، إلى أن أوقفوا سيارة لاندكروز أنيقة

وعثروا داخلها على صندوق من زجاجات الويسكى ماركة جونى ووكر. قام هيبورث بمصادرة الصندوق وقبض على سائق السيارة - لأن الكحوليات ممنوعة على المسلمين - إلا أنه علم لاحقا أن الصندوق يخص مندوب الـU.N في رأس الصرة. وهذا يمكن أن يحدث لأى إنسان.

كرر نيكلسون بصوته الهادئ المسيطر:

- أكرر لك، كيف يمكن لى ولك أن نظهر نفسنا أننا نستحق تلك الرواتب الضخمة؟ لا شك أن الحكومة تشعر بثقة تامة فى اكتمال الأمن هنا لدرجة أن يرسلون لنا آنسات بلا مرافقين ومفتش غلبان للغة الإنجليزية. بالمناسبة، هل رأيت هذا الشخص؟ كل هؤلاء عبارة عن أعشاب ضارة. انتظر، كل ما يلزمنا الآن هو أن يزورنا أمير البلاد ويجد أن كل الأمور مستتبة وفى أفضل الأحوال. لا متفجرات ولا حتى من النوع الذى يلعب به الأطفال، لا نظرة حاقدة متآمرة على الوجوه السمراء لأهل سفينة. لن يستغرق الوقت طويلا قبل أن نحزم حقائبنا مغادرين وحمولة كل شنطة لا تزيد عن عشرين كيلو، ثم يشحنونا فى طائرة بالدرجة الثانية إلى بلادنا. بعدها، كيف سيكون الحال بنا؟

صمت نيكلسون لكى يستقر هذا الحديث فى دماغ هيبورث السميك. استخدم هيبورث فترة الصمت تلك ليكرر لنفسه، "كيف سيكون الحال بنا؟ يا للجحيم!".

وصل هيبورث إلى رأس الصرة منذ أربعة سنوات، مماثلا فى ذلك نيكلسون، لكنه هو لا يماثله فى المركز المتميز. لقد شاهد واشترك فى بعض المناوشات التى حدثت أثناء الحرب الأهلية فى رأس الصرة، هو الآن يتمتع بثمرة السلام. لقد عاصر كل أوقات الشدة، ويستحق الآن أن ينعم بوضعه الحالى. بالتأكيد لن يحدث أى تغيير يطول مركزه، هل يمكن أن يحدث ذاك؟ كيف يكون الحال مع زوجته دورثى؟ وكذلك تعليم ابنتيه؟ انه يتكلف الكثير لكى يحصلا على تعليم متميز فى انجلترا، والمدرسة الديرية الملتحقات بها تستقطع جزءا كبيرا من راتبه - وهذا الراتب يستحيل أن يحصل على مثيل له إذا عاد إلى وطنه. إذن هذه هى نهاية وظيفته، لكن هذا مستحيل! نيكلسون فى استطاعته أن يحصل على عمل آخر، هو ما زال فى الثلاثينيات من عمره ومنبته فى الأساس من طبقة عليا، لعله أيضا على معرفة وثيقة بأحد اللوردات أو واحد أو اثنين من رجالات الصناعة. لكن هو؟ من يحتاج إلى ابن دخاخنى جاوز السادسة والأربعين من العمر وله ماض ملئ بالعنف؟

ثبت هيبورث عينيه نحو لا شىء خارجا. أخذ يردد فى ذهنه ما يتذكره من إعلان المعاش - هو إعلان كان قد اطلع عليه عندما كان فى العشرينيات من العمر، عبارة عن عدة رسوم تملأ صفحة واحدة - فيها رسم أول لشاب ضاحك، العالم كله تحت قدميه. يتحول فى الصورة الثانية لرجل بشعر رمادى اللون والقلق مرسوما على وجهه. تحت تلك الصورة كتب تعليق يقول، "قالوا لى أن وظيفتى تلك بلا معاش!". حسنا،

ربما لا يهتم هذا الشخص بهذا الأمر عندما يكون فى الخامسة والعشرين أو حتى فى الخامسة والثلاثين، لكن عندما يبلغ الخامسة والأربعين، فإن الظلمة تنتشر حوله ويحيطه الهم من كل جانب، لكن الوقت يكون قد فات وعدى. رسم الرجل وهو فى الخامسة والستين تعبر عن اليأس الكامل. لكن ما الذى يمكن أن أفعله أنا الآن؟ هل يجب على أن....

كان إعلان المعاش هذا هو المرشد لهيبورث، لكنه هو من النوع الذى يخالف النصائح دائما. لذا تجده يتسرع ويتزوج دورثى، تلك التى لا تشعر بالحياة تغمرها إلا وهى داخل محل من المولات الكبرى تتسوق، لذا لم يكن أبدا فى بيته ما يكفى.

حدج نيكلسون هيبورث ولاحظ أن العرق بدأ يتصبب فوق جبهته المتغضنة، لذا بادر بالقول:

– تفهم الآن ما أعنيه؟ لقد خرج الموضوع بأثره من بين أيدينا.

– نعم يا سيمون، أفهم ما تعنيه.

تنهد نيكلسون قائلا:

– هل تعلم اننى لم أكتشف أى مخالفة أمنية سوى موضوع قطعتى السلاح الذين وجدناهم فى ظاروت من خمسة عشر شهرا. خمسة عشر شهرا! هؤلاء المغفلين أصبحوا أنقى من الذهب الخالص.

عوى هيبورث:

– إذن ما الذى نفعله، نحن بذلك نكون قد طردنا أنفسنا بأنفسنا من العمل.

– الآن، تمالك نفسك قليلا.

قالها نيكلسون وهو يضع إصبعه بين عينه والقمر. انه أمر ساحر بالفعل عندما تتمكن بإصبع واحد أن تخفى القمر الهائل الحجم، ثم أضاف:

– نحن لم ننته بعد يا عزيزى هيبورث. لكن حقا، ما الذى يمكن أن نفعله؟ انه سؤال جيد، ما الذى يحب أن نفعله!

– تقول يجب. يبدو اننى لا أتابعك جيدا.

– أعتقد أن استخدامى لكلمة يجب هى إجبارية ومناسبة تماما، أليس كذلك؟ أعتقد أنه أمر مذل أن نرحل بهذا الشكل. إلى هنا أعتقد أننا على وفاق سويا. المستقبل بالنسبة لنا فى بلادنا ليس مبشرا بالخير. ليس هناك الآن عديد من الأماكن هناك ترحب بنوعيتنا من الإنجليز للسيطرة على الرعاع. نحن من فصيلة فى طريقها للفناء، مزنوقين فى ركن وظهرينا ملتصق بشجرة من الصمغ. أخذت بالك مما أقصده. إذن كلمة يجب هى المناسبة تماما فى حالتنا تلك، لكن ما الذى يجب أن نفعله؟ هذا هو الإشكال.

احتسى نيكلسون قدرا من الأرمناك متلذذا وأخذ يدير كلمة يجب مع كل شفطة قائلا:

– نعم، ما الذى يجب أن نفعله؟

اكتشف نيكلسون أنه باستطاعته أن يخفى القمر حتى بطرف إصبعه الأصغر:

– دعنى الآن أقدم لك سيناريو محتمل. لا، لا تقاطع. إليك هذا..

حول عينيه وأخذ يستعرض بناظريه كل أرجاء مستعمرته لكى يحدث التأثير المناسب، ثم تابع شريط الضوء الذى انتشر فوق البحر خلف ظل قاربه الفاخر، ثم إلى القمر الذى بدا كميدالية ذهبية فوق المحيط، ثم أضاف:

– هذا هو موقفنا بالضبط، نحن الأسياد هنا. نقول لرجل "تعالى" فيأتى مسرعا، نقول لآخر "اذهب" فيذهب. نقول لثالث "انحنى" فينثنى طائعا. نحن ملوك هنا. أنا وأنت وبالأخص أنا. هذه البقعة الرملية التافهة والبيوت المتداعية حولنا التى يقطنها فقراء ومحتاجين هى مملكتنا الخالصة... كذلك الجبال من خلفنا كذلك الصحراوات والربع الخالى كله، كلها ملك لنا، نحن الملوك. موافق على هذا التحليل؟

– حسنا، أعتقد أنك على حق.

وافق هيبورث غير مدرك للهدف الذى يسعى ورائه نيكلسون، فاستأنف ذاك حديثه بطريقة مسرحية:

– لكن للآسف، مملكتنا محاصرة. البرابرة على الأبواب. لقد اقتحم المكان ممرضة للأطفال كذلك خوجة للغة الإنجليزية ودهموا مملكتنا. سوف يصرح هؤلاء عبر أسوارنا قائلين، "انه مكان جميل، احضروا إلى هنا يا ناس!". إذن ما الذى يمكن أن نفعله؟ ما الذى يجب أن يفعله الملوك؟. يجب أن نقاوم هذا الغزو بلا رحمة. يجب أن ندافع عن مصالحنا وما نملك. أن نقنع ذاك الأمير القابع شمالا أن الأمور ليست مستقرة تماما فى المنطقة الشرقية كما يظن. أن الحالة غير مطمئنة.

– فكرة عظيمة.

قالها هيبورث متحمسا متأثرا بقوة منطق زميله. إنها تبدو كأنها لعبة من ألعاب الحرب."لكن كيف؟" كان هذا هو سؤاله.

– آه... كيف؟ هذا هو السؤال. كالعادة يا عزيزى هيبورث، وصلت إلى لب المسألة بشكل مباشر. كيف؟ لكى أجيبك عن هذا السؤال، دعنى أعود بك إلى الموضوع الذى ناقشناه سويا فى بداية حديثنا. تحديدا، ما هو الضرر الواقع علينا من قدوم هؤلاء الخبراء إلى سفينة وأن تستمر حياتهم بنعومة وسلاسة.

اعتمد هيبورث بمرفقيه أماما وكرمش جبهته فى هيئة تفكير قائلا:

- حسنا، هذا سوف يوضح للحكومة انه فى الإمكان أن يتعايش الأجانب هنا وإنهم لن يتعرضوا لأى أذى من المتمردين، بالتالى هذا سوف يؤدى إلى تآكل سلطتنا، وتكتشف الحكومة أن تواجدنا نحن الاثنين هنا ليس له لزوم.

قال نيكلسون بكل حماس:

- تمام. لقد عبرت عن فكرتك بكل دقة وبلاغة.

تساءل هيبورث وهو منساق تماما وراء سلسلة أفكار زميله:

- إذن ما الذى يمكن أن يفعله الملوك؟ يجب إذن ويلزم أن نوقف الزحف بأن نوضح لأمير الشمال أن الأمن ليس مستتبا فى الجبهة الأمامية للإمارة. لكن كيف نفعل ذلك؟

أجاب نيكلسون وقد ارتفعت درجة حدة صوته حتى انه أدهش الحارس الرابض على البوابة الرئيسة:

- طبعا يجب أن نبين لهم هناك أن الأمن ليس مستتبا كما يظنون.

* * *

عندما غادر هيبورث متوجها إلى معسكر فرقة الصحراء حيث يستقر سريره المفرد، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. مقر هذا المعسكر هو فى الطرف البعيد من "بلاد سفينة"، على بعد ستة أميال من مركز سفينة ذاتها.

دماغ هيبورث يكاد أن ينفجر بسبب الكمية الهائلة من الخمر التى احتساها، لكن بالأكثر بسبب حديث نيكلسون. بالتأكيد هو ليس جادا. هو حديث سكارى. أليس كذلك؟ لكن فيما يختص بنيكلسون، من الصعب على المرء أن يثبر أغواره. كان هيبورث يظن أن لعبة الروليت الروسية التى مارسوها العام الماضى كانت واحدة من نكات نيكلسون. لقد أطلق هو المسدس ماركة براون وماسورته داخل فمه ثلاثة مرات، مماثلا لما فعله نيكلسون بكل برود أعصاب. لم يحدث شىء إلى أن صاح فيه نيكلسون، لذا أخرج المسدس من فمه وبين لهيبورث إنها لم تكن نكتة على الإطلاق عندما أطلق رصاصة من هذا المسدس ذاته فى صدر أحد الكويتيين. فورا أظهر هيبورث إعجابه الشديد بهذه النكتة العملية بأن تقيأ بعنف على أفضل سجادة بختيارية يمتلكها نيكلسون. لا، أنت لا يمكن لك أبدا أن تفهم نيكلسون على حقيقته.

هيبورث رجل عامى. منذ طفولته كان هناك دائما شىء ما ينقصه. لم يكن على وعى بما يعيبه. فى الحقيقة هو كان يظن أنه كامل ولا يعوزه شىء. انه يعلم أين تستقر قدماه. كل مشاعره منطلقة نحو الله، الملكة، الوطن، الحياة الأسرية وأقساط البنك التى لا تنتهى. انه ربما استغرق ضاحكا إذا أنت أشرت إلى أن هوايته المفضلة هى غرامه بأن يقاد دائمًا؛ رغبته الدفينة هى أن يكون واحدا من جماعة؛ فى الحقيقة، يمكن أن تنالك لكمة قوية من قبضته إذا حاولت أن تشير إلى أى نقص يعتريه فى استقلالية الفكر؛ يمكن أيضا أن يكرر ذلك إذا تجاسرت وقلت بأنه أسير للكحوليات.

هيبورث تمتع بطفولة متميزة، فقد ولد فى سومطرة حيث كان والده يعمل فى زراعة أشجار المطاط. كان الوالدان يظنان أنهما بعيدين عن خط النار- يصنعان واجبهما الوطنى نحو الملك والوطن وذلك بإنتاج المادة الخام التى تجعل الحرب تدور بسلاسة - لكنهما كانا على خطأ بين. بعد أسابيع قليلة من مولد هيبورث، غزا اليابانيون سومطرة وسجنت الأم وطفلها فى معسكر يابانى طوال فترة التراشق بالنار.

يقول هيبورث أنه لا يتذكر أى شىء من تلك السنتين إلى قضاهما مع والدته فى هذا المعسكر، وأن أولى ذكرياته الواضحة هى وقوفه على عتبات فندق "رافل" فى سنغافورة قبل ترحيله إلى انجلترا. بعد عودتهم، لم يتوافق والده مع تلك الأجواء الجديدة بالنسبة إليه. لذا فقد كل مدخراته وانتهى به الأمر أن يقف مكشرا وراء محل لبيع السجائر حارسا للأرفف المفتوحة على مصراعيها للأيادى المتلصصة لأولاد المدارس الثانوية الحديثة مماثلا لحراسته السابقة لآلاف الأفدنة من أشجار المطاط ضد الحشرات الغازية. هذا الرجل العاثر الحظ علم هيبورث كل ما يعلمه عن العالم وساقه سوقا إلى انتهاج وسائل تصرف معينة وإلى أن يمتهن عملا فى الجيش.

البشرية، طبقا لنظرية هيبورث، منتظمة على مقياس يتدرج من صفر إلى عشرة. من يعرفهم فعلا تجدهم مستقرين ما بين الصفر ورقم خمسة. انه من النوع المسيطر ولا يحكم الرحمة والرأفة أبدا. هو بالذات يقف عند الرقم خمسة بالضبط. انه سعيد بكونه من "القطيع المتوسط من البشر".

فوق هذه الدرجة، نجد هؤلاء الذين يقفون عند الدرجات ٦-١٠. هيبورث، سواء علم ذلك أم لا، هو إنسان ديدنه الطاعة الكاملة، كأى خادم جاهيلى مطيع لسيده. نيكلسون بالنسبة لهيبورث، رتبته تقف عند أعلى الدرجات، بل ربما وصل إلى الرقم عشرة.

عبرت اللاندروفر منطقة المقابر، ثم المدرسة، ثم أبطأ السير عندما عبر منطقة المستشفى. التفت ليرى ما إذا كان هناك ضوء يسرى من المسكن الذى خصص للممرضة الجديدة إلى بعثتها هيئة "أنقذوا الأطفال"، الممرضة "جوانا". لاحظ أن هناك إضاءة. تحير ما إذا كان من المناسب أن يزورها الآن أم لا. قرر أن لا يفعل، لكن تصوره للفراش الخالى جعله يعيد النظر. من يعلم؟ هذه الليلة قد تكون هى الليلة! ربما ترضى جوانا أن تستجيب لنجواه ولا ترفض بثه لوعة الغرام. لذا دار بسيارته اللاندروفر وتوقف أمام باب المستشفى.

لقد حاول من قبل أن يغرى هذه الممرضة فور وصولها ومقابلته لها منذ أسبوعين سابقين. بعد يومين من وصولها طرق بابها وبيده زجاجة شمبانيا كان قد اختلسها من حفل عقد بالسفارة البريطانية بالعاصمة بمناسبة احتفال بعيد ميلاد الملكة. ظن أن منظره الكاكى ربما يجذب هذه الفتاة ويقنعها، لكن جوانا شربت نصيبها من الزجاجة ثم رفضت بكل إباء عروضه الغرامية وهى كلوح الثلج. ما أن واجهته بهذا الشكل حتى أيقن أنه لا سبيل أمامه سوى أن يرتعش ويتراجع بانتظام.

لكن الليلة شعر أن بمقدوره أن يقاتل أسدا؛ وهذا أصعب من التقرب من جوانا الباردة. أدار سيارته حتى بلغ عتبة بابها وأوقف السيارة.

طرق الباب ثلاث مرات قبل أن تفتح جوانا الباب. كانت ترتدى روبا منزليا وتنتعل شبشبا مزينا بشواشى. قالت:

– ليس الآن يا بوب

رفض هيبورث أن يتحرك من مكانه قائلا:

– لكن كل قطة لطيفة تجدها دائما فى حاجة إلى قليل من الحب والمصاحبة.

قال ذلك وهو يحاول عبور الباب، لكن جوانا أرادت رده، قال هو:

– أوه. وبعدين يا جوانا، ألن تعزمى على ضابط غلبان وحيد بعيد عن وطنه وتمنحيه قدرا قليل من الحنان والربت عليه؟

أجابت جوانا ببرود:

– الوقت متأخر. أنا الآن منشغلة بجرد وفرز بعض الأدوية. وسوف أستقل غدا طائرة هليكوبتر لأزور داخلية البلاد.

– إنهم محظوظون تأكيدا! لن أعيقك عن عملك. دعينى أراقبك وأنا ممسك بيدى فنجان من القهوة وأعدك أن أكون ولدا مؤدبا.

- أوه، حسنا.

فتحت جوانا الباب مجبرة ثم ردته. شعر هيبورث بالسعادة وشكر حسن حظه:

- كنت اعلم أنك سوف تقبلين إضافتي.

ذهبت جوانا إلى المطبخ ووضعت البراد ثم عادت إلى أكوام الأدوية، حيث تناثر على الأرضية عدد من السرنجات والغيارات بجوار كرتونة كبيرة. سأل هيبورث:

- أى مكان داخلى سوف تزورينه؟

- سوف ازور عسكرة وبعدها جهيل وبعض الأماكن الصغيرة الأخرى فى الصحراء. سمعنا أن هناك بعض حالات من شلل الأطفال، أردت أن أتأكد من ذلك. إذا وجدنا أى حالة مرضية هناك سوف نحضرها هنا إلى المستشفى أو ربما نطير بها إلى العاصمة. وسوف نترك هناك مساعدين لنا لكى يحقنوا الأطفال.

- أنت إذن تمثلين دور الممرضة راشيت.

قالها وهو يتأرجح فى مكانه.

- من هذه ؟

- الممرضة راشيت - هذا هو الاسم الذى أطلقه نيكلسون على الرئيسة مارى آن سيسون، اقتبس الاسم من فديو فيلم أمريكى، نسيت اسمه الآن.

– إنه فيلم "طار طائر فوق عش الكوكو". لا اعتقد أن الاسم متطابق، الممرضة راشيت كانت إنسانة شريرة، لكن مارى آن تكاد أن تكون قديسة.

– أنا باهزر يا جوانا، أروى نكتة.

– حسنا، المفروض أن النكتة تكون مضحكة، لكن هذه ليست كذلك. إنها نكتة قاسية. – تتمتعين بمؤخرة رائعة يا جوانا!

– أعلم ذلك. لكن بالمناسبة، كيف حال زوجتك ؟

– إنها تبعد عنى بثلاثة آلاف من الأميال تنعم بالخيرات التى أرسلها لها.

– هى تستحق ذلك.

– أنا.. أنا أحبك.

– نعم، هذا ما تقوله، لكنى لست مهتمة بذلك، آسفة.

فارت المياه فى البراد، لذا توجهت جوانا إلى المطبخ. فتابعها هيبورث:

– حاولى أن تتغلبى على خجلك يا جوانا.

ضحكت جوانا بصوت عال قاس:

– أتغلب على ماذا؟ ليس هناك ما يمكن أن أتغلب عليه هنا سوى شلل الأطفال والجدرى والملاريا. الآن عد إلى مكانك واجلس كطفل مطيع وسوف أحضر لك قهوتك.

أطاع هيبورث وعاد إلى مقعده، ثم فكر، "أكيد عملتها سابقا مع سائقها الأسود الضخم". كره تماما طريقة معاملتها له كأنما هو طفل صغير، وكيف انه في كل مرة يعود إليها. كان دائما في شوق لأن يذكر اسمه في قاعة طعام ضباط العاصمة، وأنه طالما هز قدميه تحت طاولة هذه الممرضة. لقد صدقه الضباط قائلين، "بالطبع هو هيبورث العجوز، لا يعوزه جهد في العثور على من تسرى عنه وتطفئ أشواقه. هو له طريقة خاصة في معاملة صنف النساء! هذا الوحش زير النساء، هيبورث العجوز"!

انتابه شعور بأنه قاتل للنساء وليس زير للنساء. نادرا ما كان يرفض بهذا الشكل. هو دائما ما يفوز في معاركه. لكن معركته مع جوانا أخذت تطارده كأنما هي سراب يتوافق تماما مع سلسلة خيبات الأمل التي صادفها في حياته. جعله ذلك يشك في نفسه ويتعجب من ذلك. ثم تذكر صورة الرجل في الخامسة والستين من العمر التي كانت مرسومة في نشرة المعاشات.

– هل هذه المعاملة بسبب انني متزوج؟

سألت جوانا وهي راكعة بجوار أدويتها:

– ماذا تعني بشخص متزوج؟

– أنت تعلمين جيدا ماذا أعني.

– ربما إلى حد ما لأنك متزوج، لكن على الأكثر لأنني لا أشعر بالانجذاب نحوك، ولو لدرجة بسيطة.

- ولا حتى هباية من الحب؟

- بطل شغل السهتنة يا بوب!

- فهمت. إذن أنت تعتقدين اننى من النوع السهتان المدلوق، أليس كذلك؟

قال ذلك بفظاظة ساخرة.

- لو فقط استطعت أن تشاهد نفسك.

- أشاهد نفسى. إذن هكذا الموضوع؟

زمت جوانا شفتيها واستمرت فى عد علب الأدوية.

بعد فترة قال هيبورث:

- أنا فهمت.

لم ترد عليه. ثم أردفت بقولها:

- إذا كنت حضرتك قد انتهيت من شرب قهوتك، من فضلك ارحل.

أحست فجأة بالإنهاك والانقباض من هذا الرجل لأنها تناضله، بينما هى لديها الكثير يجب أن تناهضه فعلا كل يوم. والغد هو مثال لذلك.

- حسنا، سوف أغادر.

وضع فنجانه على حافة المائدة، لكنه انزلق ووقع على الأرضية وتحطم وبعثر بقايا القهوة على بعض من الأربطة الطبية المجاورة لجوانا.

- يا الهى! أنا آسف يا جوانا.

قالها بينما هى تنظر إليه بعينين ضيقتين. ثم زعقت فيه:

- فقط. تفضل أخرج

- حسنا، حسنا. أنا خارج، سلام.

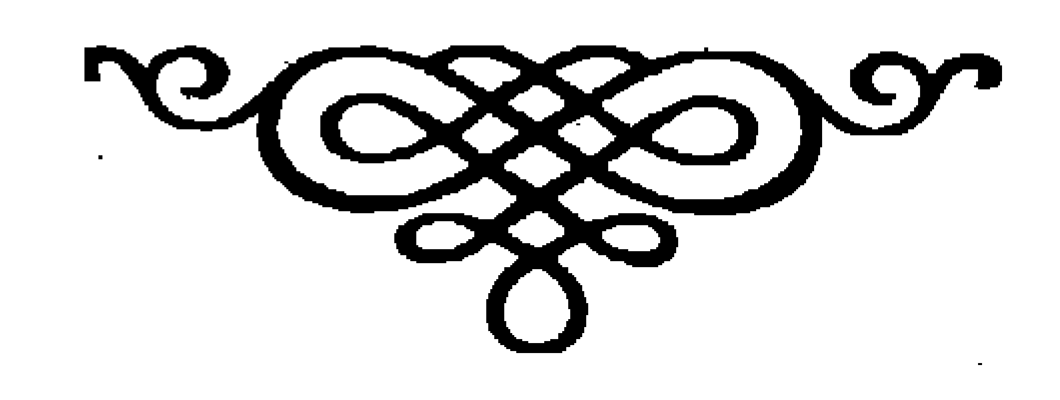
فتح الباب وخرج مترنحا ثم صفق الباب وراءه.

ساق سيارته متوجها إلى مقره بسرعة جنونية ناثرا حوله الحصوات ووراءه غمامة منخفضة من الغبار تتابعه. عبر ثعلب برى الطريق سريعا، انحرف نحوه قاصدا قتله. لم يكن متأكدا انه فعل ذلك، لكن المحاولة أرضته. لعن الله جوانا، ماذا تظن هذه الملعونة نفسها؟ إنها ممرضة! الممرضات، إنهن مشهورات بذلك.

اندفع نحو بوابة المعسكر. نهض الحارس متثاقلا ليفتح له. على الفور كتب رقمه.

"حضرته مستغرق فى النوم! رآنى على بعد ميل لكنه لم يشأ أن يرفع مؤخرته لكى يفتح تلك البوابة الملعونة! لا أعلم ما هو مصير هذا المكان"!

فرمل السيارة أمام مقره. دخل وخلع قميصه. رقد على السرير. تأكد أن مسدسه تحت مخدته محشوا. ثم استغرق فى نوم عميق.



(٦)

نعود مرة أخرى إلى جهيل. تحولت الأيام إلى أسابيع والأسابيع إلى شهور، فى دورة متكررة من العمل، الصلاة، الحديث والنوم. أيضا استقرت الشمس فوق مدار السرطان كأنما هى تريد أن تختبر مقدار الألم والشواظ الذى يمكن أن تسببه للجزيرة العربية. ثم، بعد أن ظن الجميع أن الراحة لن تأتيهم أبدا، انتقلت الشمس نحو مدار الجدى وأصبحت الحياة مقبولة مرة أخرى وبدأ الناس يعيشون حياتهم، بدلا من الهروب منها بأن يبكروا بالنهوض قبل شروق الشمس ثم يتجمعون تحت الظلال وقت الظهيرة، بينما ترسل الشمس بعضا من جهنم وهى عالية فى كبد السماء.

وضعت السلاحف البحرية بيضها على الشاطئ، ثم غادرت أو ماتت، بينما تحول الشمس آباء السلاحف الزاحفة إلى رماد وهم يراعون البيض. ما أن يفقس البيض حتى تسرع الولدات الصغيرة نحو البحر. لكن الطيور تهاجمها وتلتهمها، أيضا تشترك السرطانات والأسماك فى تلك الوليمة. أما الطيور ذات الألوان الزاهية الواردة من أفريقيا، فإنها تقضى صيفها فى تلك المنطقة. هى تبدو مبهرجة كأنما هى جماعة من السواح المجانين، ثم تغادر المكان ما أن يصبح الجو أكثر برودة.

سارت الحياة كما نعهدها فى جهيل. إذا كان هناك أى اختلاف يمكن ملاحظته فربما تكون تلك الهالة الضوئية الخافتة التى تسطع على قمم التلال جنوب القرية، التى تنبعث من أنوار شوارع بلدة سفينة. أه، بالطبع، عاد بعض من ناس جهيل من سفينة وفى جعبتهم العديد من الحكايات. هناك مدرسة جديدة افتتحت اليوم فى "سفينة" والسوق أصبح مليئا بآلات غريبة الشكل تستطيع غسل الملابس. أحد القادمين قال أيضا أن هناك آلات جديدة تجعل النساء راقدات على أسرتهن ينهلن من السعادة، بينما أزواجهن فى الخارج يتسامرون مع أصدقائهم!. لكن هذا العالم العلامة تم إخراسه وإجباره على السكوت. هؤلاء المسافرين أتوا أيضا بحكايات عجيبة عن الأجانب الذين وفدوا إلى سفينة. لقد تم إنشاء ميناء جديدا؛ كذلك افتتح مصنعا لعمل نماذج للمراكب والقوارب، وأن هذه النماذج الجديدة لها سوق رائج فى العاصمة، بل وقد صدرت للخارج. أيضا فلان الفلانى تم تصويره وهو عائد من سفينة وبجانبه امرأة ذات شعر أصفر ترتدى قطعتين متناهيتين فى الصغر على هيئة مثلثات. وقد عرضت هذه السيدة نقودا لكى يقبل التصوير معها، إلا أن فلان الفلانى رفض هذا العرض. لكن، أليس الحياة أصبحت غريبة الشكل؟

بالنسبة إلى إبراهيم، استمرت الحياة فى سيرها المعتاد كأنما هو لم يغادر المكان من قبل. لقد عمل بجد واجتهاد على قارب أبيه وكان صيده دائما وفيرا. ثم، عندما يكون الجو هادئا، يمسك هو بشبكته

اليدوية ويلقيها بكل خبرة فى المياه الضحلة. فى يوم حسن، يمكن لتلك الشبكة أن تمتلئ بل وتتخم بالأسماك الصغيرة والسردين. هو يترك تلك الأسماك تحت الشمس ثم يضعها فى جوالات ويحفظها، وعندما تصبح المراعى شحيحة الخضرة فإن المعيز تقبل على أكل هذه الأسماك المجففة. كان حظه حسنا فى صيد هذه الأسماك المجففة، لدرجة أن والده فكر أنه ربما يرسل بعض من هذه الجوالات إلى سفينة حيث تباع بسعر جيد وتستخدم هناك كعلف للجمال.

وخلافا لم يحس به إبراهيم من مخاوف، فإن ناس جهيل لو يؤنبوه على هجره العمل فى سفينة. فمن جراء عزلة تلك القرية، اعتبرت نفسها محيطا متكاملا مكتف بذاته، فالقرية التالية وغيرها تمثل قطرا آخر، له طرقه وعاداته وأسلوب معيشته المتميز، كذلك فإن قيمهم مختلفة. لأن تغير من كيانات هذه القرى المختلفة، فكأنك تتحدث عن العالم بأثره. هذه الكيانات المنفصلة لم تحسد سفينة أبدا على حصولها على محطة للكهرباء أو ما حدث فيها من تطورات، فهذا سوف يلحقها على كل حال بعد حين - اللمبات التى تعمل بالكيروسين كافية تماما بالنسبة لها، بل أن من خط الشيب لحاهم ما زالوا يتذكرون أيام أن كان زيت السمك هو الوسيلة الوحيدة للإضاءة. أيضا، فإن الطرق الترابية الملتوية التى حفرها آبائهم تعتبر كافية جدا فى نظرهم. جهيل هى قرية غاية فى البدائية وغاية فى السفسطائية - تشعر إنها هى الكل فى الكل - لكن لم يرد إلى ذهنها أبدا هذا السؤال: لما الأمور مختلفة هناك فى سفينة عنا؟ لن تحصل إلا هزة كتف وقول مأثور: إنها مشيئة الله.

لعدة أسابيع شعر إبراهيم بارتياح عميق لأن توقعاته عن الكارثة المتوقعة والفضيحة لم يكن لها أى أساس. لذا استمر فى حياته العادية اليومية متأكدا من موقفه ودوره فى القرية؛ يعززه إيمان عميق بلياقة وأدب سكان قريته.

لكن هناك شيئا ظل بالنسبة إليه غريبا، كأنما هو مسافر وحوله كل متعلقاته وحقائبه، لكنه يعتقد اعتقادا جازما أن هناك شيئا ضائعا منه. هو لا يستطيع أن يحدد ما هو أو لماذا طرأ هذا الفكر على باله. كان إبراهيم يشعر بغربة مقيتة لكنه لا يدرى لها سببا أو غورا .

إحدى مظاهر التغيير فيه هو أنه أصبح أقل رغبة فى المخالطة. هو الآن يفضل أن يقضى جل وقته بمفرده ولا يختلط مع شباب القرية: سواء عندما يتسامرون حول لمبة كيروسينية أو يصيدون الأسماك فوق قارب مهتدين بنور النجوم.

لكن والأكثر أهمية، فقد إبراهيم قدراته على التخيل والاستغراق فى الأحلام.

الناس فى قرية إبراهيم، فى الحقيقة، والناس المماثلة حول العالم كله، لديهم مقدرة على تقبل كل ما تأتى به الحياة باستمتاع وقدرية. قبلما يغادر قريته ويذهب إلى سفينة، كان من الممكن مشاهدة إبراهيم مع معزاته فى الوادى الكبير طوال النهار يرعاهم. تجده معظم الوقت جالسا فى مكانه بينما عصا الرعاية مثبتة فى الأرض وفوقها غطاء رأسه تحميه

من أشـعـة الشـمس. يمكن له أن يظل السـاعـات وهو بهـذا الوضع ولا يلتفت إطلاقا لفوات الوقت. أنه ليس نائما أو في حالة تشبه الغيبوبة، لكنه أيضا لا يشعر بأى نوع من الملل، هو لم يكن على علم باسم الكلمة حينئذ، وأن هذا الاندماج الكامل اسمه أحلام اليقظة، تلك التى تتوارد على مخيلة إبراهيم وأمثاله عندما ينشغلون فى أنشطة ثابتة غير متغيرة لعدة ساعات متوالية، ومعظم الحياة تسير بهذا الشكل.

لكن فى الشهور التى لحقت عودته، أدرك إبراهيم أنه فقد تلك الميزة التى يجدها عند أهله، بالرغم انه لا يستطيع التعبير بدقة عما فقده بالفعل. الساعات التى كانت تنقضى بلا طائل سابقا، الآن تجر ساقيها جرا بكل تردد - الساعة اليابانية الثقيلة التى اشتراها من "سفينة" وتعلم استخدامها لا تساعده الآن البتة، بل هى أصبحت المذكر الدائم بحالة الملل التى يعيشها الآن - هى حياة مختلفة تماما عما كانت عليه أيام عمله عند نيكلسون، عندما كان كل يوم جديد يمر يحمل معه كل ما هو جديد.

اقترب فصل الشتاء وتحول ملل الولد من شعور بالأسى إلى حالة من الحمى جعلته يجفل ويقفز بطريقة فجائية ويعبس طوال أيامه.

لم يستغرق والده فترة لكى يتيقن أن ابنه ليس على طبيعته وأخذ يفكر فى الأسباب. لم يعثر فى ذهنه على سبب محدد. أخيرا ذهب إلى المسجد لكى يناقش هذا الموضوع مع المؤذن.

قال هذا للوالد:

– ليس كل الناس مثلك يا أبو إبراهيم. إنهم لا ينتظرون حتى يبلغون نصف المسافة المؤدية إلى الجنة ثم يفكرون فى الزواج. ربما يكون إبراهيم فى حاجة إلى زوجة. انه الآن فى السابعة عشر أو الثامنة عشر، أليس كذلك؟

فكر الوالد بعمق:

– شيء من هذا القبيل. نعم، هو يمكنه أن يحلق ذقنه الآن.

– حسنا، إذن هذا هو الوقت المناسب. انه على استعداد لسرير الزواج، لا عجب أن يعتريه هذا الحزن والبعد عن الناس.

لكن والد إبراهيم قال كأنما هو يخاطب نفسه، "لكنه ما زال صغيرا". فأجاب الآخر:

– أبو إبراهيم، ربنا يعطيك طول العمر! لكنك أنت دائما ما تنظر إلى إبراهيم كولد صغير، لأن رجولته سوف تكشف جليا مدى نفاذ قدرتك وقوتك.

– اننى أبعد عن أن تكون لحيتى قد شابت!

قال أبو إبراهيم ذلك وهو يحك ذقنه الرمادية اللون.

– أنت بالتأكيد هكذا. لكن إذا لم يكن هذا هو السبب، إذن لما يتصرف ابنك بهذا الشكل، أخبرنى.

– أنت على حق.

قالها والد إبراهيم وفى التو بدأ فى البحث عن عروس لابنه. بعد أسبوع أخذ الوالد ابنه على جانب وأخبره عن مشروع الزواج المعد له.

– لقد اخترت لك البنت "منى" العلوى. إنها من عائلة محترمة تمتلك أكثر من قارب وعندهم كرم من نخيل البلح يتكون من ثلاثين نخلة بقرب وادى بنى عمر. والدها وأخيها أكدوا لى أن منى فتاة جميلة فى الجسم والعقل. أنا متأكد أنك سوف تسعد باختيارى هذا، سواء الآن أو فى الأعوام التالية.

حدق إبراهيم فى والده قائلا:

– أشكرك يا والدى، أرجو أن أوفق وأكون زوجا صالحا لمنى هذه وأن نرزق بأبناء كثيرين يكونون سلوى لك فى سنينك القادمة.

بينما هو ينطق بتلك الجمل المحفوظة المنمقة، شعر بالخجل داخليا بسبب هذا السيل من النفاق الذى أخذ ينساب بشكل طبيعى من فمه، وهو الذى يشبه السم الحلو.

لم يهتم بالاقتراح بأى شكل من الأشكال، لكنه لم يجرؤ أن يوضح ذلك لوالده. لقد اتخذ الوالد القرار. فى جهيل يعتبر هذا القرار هو نهائى وبات ويلزم أن يتخذه الأب بمفرده: فهو الذى يختار العروس لأبنه، وأن يعارض الابن اختيار والده هو أمر لا يمكن مجرد التفكير فيه. انه نوعا من الشرك ومخالفة شنيعة للعرف والتقاليد والعادات العائلية. بالنسبة

للمسلم التقى، فالزواج لازم وضرورى كأنما هو العماد عند المسيحيين. العادات القديمة ثبتت واستقرت فى جهيل أن الوالد هو الذى يختار عروس ابنه. أن يرفض الشاب الزواج، فهذا معارضة للحق الذى أوضحه نبى الإسلام بأجلى بيان.

أحنى إبراهيم رأسه أمام والده وشكره، لكن فى صميم قلبه قرر أن يهرب.

بينما يذكر الوالد واجبات الزوج تجاه زوجته، كان إبراهيم يخطط. عندما تحدث الوالد عن الشبكة والحفل والعقد، أخذ ابنه يفكر عما إذا كان من الممكن أن يقبله نيكلسون مرة أخرى. وبينما يجاهد الأب مع المعيز لكى يسمنها، كان ابنه يصرخ فيه صامتا، "لا أستطيع الزواج يا رجل يا عجوز، لست مستعدا بعد لذلك".

فى نفس الوقت، كره نفسه بسبب تمرده هذا واشتعل قلبه بثورة عارمة. شعر إبراهيم أن أى إنسان يستطيع أن يختبر قلبه الآن، فإنه سوف يقع ميتا فى التو واللحظة.

فى اليوم التالى أخذ إبراهيم يستطلع تلك الأزمة التى حلت به. لذا هجر قارب الصيد وقضى كل الوقت وحيدا مع معزاته فى الوادى الكبير منهمكا فى حوار فردى مع تلك الحيوانات.

نتائج الشرك كانت معروفة وجلية بالنسبة له. إنها حالة ذهنية، هى سم يغمر القلب. شكوكه وتمرده الجامح هذا يعتبر شركا أيضا.

والخوف من أى شيء يعتبر شركا أيضا، لأن الخوف من أى إنسان يطغى على الخـوف الذى يجب أن يظهـره الإنسـان نحـو الله وحـده. الآن هو يخاف من والده. هل يعتبر تصرفا شجاعا أن يواجه والده برفض الزواج؟ لكن بالطبع لا يستطيع فـعـل ذلك. إذن كيـف يتصـرف؟ أن يهـرب؟ يهرب إلى سفينة؟ لا، نعم. شعر إبراهيم بحيرة بالغة.

المظاهر والاعتبارات الإسلامية منسوجة بشكل قوى فى حياة القوم بجهيل، بحيث لا يمكن وضع حد فاصل ما بين ما هو للدنيا وما هو للدين. لقد تلاحم كل من المسجد والسوق، وأن تخرق قواعد المجتمع، تكون بذلك قد خرقت الأوامر والنواهى التى أرساها الله فى القلوب.

أخذ إبراهيم فى مراقبة معيزه وهى تمرح فى الوادى المنبسط.، شعر انه يتكسر إلى قطع صغيرة، كما تهشمت تلك الصخور تحت قدميه بفعل الريح والمطر خلال قرون متوالية.

لقد تعجب كيف أن حياته المستقيمة قد أصبحت عبارة عن شظايا بالخبرات التى واجهها خلال الشهور الماضية.

فقط خلال السنة الماضية، سار فى جنبات هذا الوادى وراء معيزه، عقله وقلبه منحصر فى حيواناته تلك وبلدته جهيل التى تقع خلفه. فى ذلك الوقت، لا شيء كان بقادر أن يقطع عليه استغراقه فى أحلام اليقظة، أما شيطان الرغبات أو الملل فكان ينزاح بسهولة بالغة إما بأغنية يصدح بها أو ببعض الحصوات يلقيها على معزاته. الآن هو يشعر أنه

أكبر عمرا بمقدار، وكل ما يقدر عليه هو أن يحنى رأسه نحو الأرض ويتعجب كيف سار ذاك الفتى المتكامل على نفس ذاك البساط من الأرض.

اتخذ طريقه نحو قاعدة تل فى الوادى تفترشها بركة مائية صغيرة. خلفها يتواجد كهف منحوت يطل على السماء ويتخلله ضوء النهار.

قفز عبر البركة محاذرا تلك السنون الغاطسة. داخل زور الكهف، كان الجو باردا ورطبا. أحس بالانتعاش وهو يقفز وسط الأحجار صاعدا الفوهة إلى حيث الضياء الذى تسلل من نفس المكان الذى هطلت داخله الأمطار. وصل إلى منتصف المسافة ثم جلس وظهره مستند على صخرة. بجواره، لاحظ وجود نبتة بازغة بعيدا عن ضياء الشمس، إلا من فترة صغيرة أثناء النهار عندما ينساب الضوء داخل القمع العلوى.

هذا المكان هو المفضل لإبراهيم. جلس باسترخاء يهدئ من نفسه. حدق فى تلك النبتة، إنها موجودة وكائنة فى نفس المكان منذ كان صغيرا. يبدو إنها لم تكبر حجما، لكن أوراقها الرمحية كانت خضراء ينبعث منها رائحة عطرية إذا فركت أوراقها. لقد حافظت على نفسها بطريقتها الخاصة وهى لا تطلب الكثير سواء من الشمس أو الرطوبة. لقد استقرت بذرتها فى هذه الحفرة ثم نمت واستمرت فى الحياة بشكل إعجازى. هى مماثلة لأهالى قرية إبراهيم الذين عاشوا ملاصقين للتربة ولم يتعرف عليهم كائن سوى التربة وجذور النباتات.

خطط إبراهيم للهرب، لكن إلى أين يذهب؟ هناك احتمالين فقط: إما إلى سفينة أو العاصمة. لكن العاصمة هى مكان بعيد. انه يرتعب عندما ترد على باله، لكن سفينة تعتبر على بعد كاف، لذا من الممكن أن تكون هى البداية.

سوف يعود إلى سفينة – لكنه تحير كيف يدبر ذلك. داهمه أيضا الهم عندما فكر فى رد فعل والده وناسه فى جهيل. لم يركز فى ذهنه سوى أن يختفى عن أنظارهم.

إبراهيم، بلا تفكير أو مشاعر، زحف نحو النبتة الخضراء وامسك برقبتها وبكل قوة، جذبها فانتزعت زاعقة من مكانها الأثير فى الوادى الكبير.

* * *

بينما يجهز إبراهيم موضوع هروبه من جهيل، استعدت القرية كلها للاحتفال بعقد قرانه ليصبح عضوا كاملا فى مجتمعها، واحد من رجالها وكضمان لاستمرارية القرية فى النمو والبقاء.

بينما جمع هو بعض متعلقاته وذهب متلصصا ليخبئها فى الكهف، عقل والده ثلاثة معزات خارج المنزل. سوف يظلون فى مكانهم هذا على أن يتم تسمينهم بأفضل عليقة ممكنه إلى أن يحين وقت ذبحهم، حيث سوف يسحبون مقيدين من أرجلهم الخلفية ويعلقون على شجرة ثم تجز رقابهم وتسيح دمائهم إلى الأرض لتختفى فى الرمال.

تواجد المعزات مقيدات خارج المنزل جعل الأمور تتحرك بشكل أسرع، لذا توافد القرويون إلى المنزل لكى يقدموا مساهماتهم فى احتفال الزواج، البيض وشكائر الدقيق والأرز وصلت حتى باب المنزل. قدم حامد نصر عدة صناديق من المشروبات المرطبة، لكنه أيضا لم يخفى من درجة احتقاره لإبراهيم منذ عودته الفجائية من سفينة.

العائلات الفقيرة التى لا تستطيع أن تساهم بشىء، أرسلوا أطفالهم محملين ببقايا الطعام ليقدمونها للمعين، لذا هم بشكل غير مباشر يساهمون فى إحياء حفل الزواج.

إبراهيم، وقد انتفخ جلبابه ببعض من متعلقاته، كان عليه أن يخطو فوق الهدايا كلما رغب الذهاب إلى الكهف لكى يضيف إلى ما سوف يلزمه فى هروبه. هذه الهدايا طالما فكرته بالذنب الموشك أن يقترفه، كذلك فعلت فيه تلك التحيات التى يتلقاها من أناسه الذين يلقاهم فى طريقه. كل القرية تآمرت لكى تربطه بهم بينما هو يجاهد ليتخلص منهم.

قرر أن يغادر قبل ليلتين من الاحتفال، لكنه لم يقرر بعد ما الطريق الذى سوف يسلكه لكى يصل إلى سفينة. أما أن يسلك الطريق الجنوبى كما فعل سابقا؛ أو، ربما يسلك طريق الوادى الكبير خلال الجبال ثم يهبط مخترقا وديان المنطقة الداخلية، وعندما يصل إلى الطريق العام ربما عثر على توصيلة حتى سفينة. هناك ليس من المحتمل أن يتقابل مع أحد، لذا قرر أن يسلك هذا الطريق الأخير.

لم يكن القمر قد ظهر بعد عندما ترك إبراهيم قريته جهيل سالكا الطريق المؤدى إلى الكهف. أخذ يتلمس طريقه وسط الظلام داعيا أن لا يخطو فوق عقرب أو ثعبان. أثناء الوقت الذي استغرقه ليصل إلى الكهف، نشب داخله خوف مقيم من أن يصيبه ما توقعه، فطبيعته تتوقع دائما أن يسمح الله بحدوث مثل تلك الأمور كعقاب له لما يقترفه الآن.

من فوهة الكهف، أخرج كل متعلقاته وصرها فى قطعة قماش كبيرة. كان فى امكانه أن يلمح بعض الأضواء الخافتة الصادرة من جهيل على يساره. فى استطاعته أن يحصر هذه الأضواء بل ويمكنه أن يحدد أسماء مالكيها. استدار ثم بدأ فى ارتقاء مرتفعات الوادى الكبير.

فى ذلك الظلام الدامس، انتصبت الجوانب المرتفعة للوادى تناطح السماء، كأنما هو الحد الذى تتلامس فيه المياه الضحلة مع الأعماق السحيقة للبحر.

حاول أن يتناسى قريته والعار الذى سوف يلحق باسمه ويغمره فى التراب وتناثر العديد من اللغط والحكايات بشأنه، لكن ما ساعده لنسيان ذلك هو وعورة الطريق الذى يسلكه الآن. كان يقع وينكفئ كثيرا بسبب الصخور المتناثرة، لذا سرعان ما ندت الدماء من ساقه وذراعيه بينما قدميه تصرخان من الألم. مع الألم أتى النسيان. لقد ركز كل ذهنه بمقدار قدم أمامه، لذا حصل على قدر من السلام.

بعد فترة وجد نفسه يتسلق جدران الوادى ونظر الاتسا ع المنبسط أمامه. انه وادى بنى عمر، خلفه يقع الطريق المؤدى إلى سفينة. كان هذا هو الجزء الأصعب فى الرحلة وهو لم يطرقه من قبل. تقليديا كانت هذه المنطقة هى مقر قبيلة عمر، هو يتذكر قصص قديمة تحكى كيف أن محاربيهم كانوا يحرسون حدود منطقتهم ولا يتركون الغرباء يعبرون دون دفع مبالغ خيالية. كثير من الحكايات تقول أن العديد من أهالى جهيل قد تعرضوا للذبح من أولاد بنى عمر! وهذا يبرر عدم ترحيبهم بالدخول فى هذه المنطقة – بالرغم أن الأمير فضل جاهد فى منع حدوث مثل تلك الأمور المشينة.

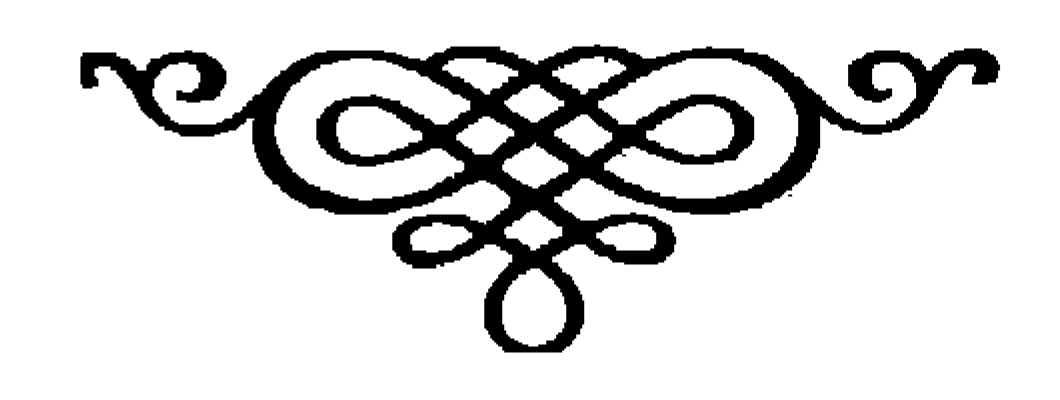
ثم، فى اتجاه بلدة سفينة، سمع إبراهيم صوت انفجار هائل. هذا الصوت كان له صدى هائل على حوائط جبال الوادى الكبير. توقف عن السير، متعجبا ما إذا كان هذا الانفجار له أى صلة به أم لا. حل صمت يتخلله ذكرى هذا الانفجار الذى أخذ يدور فى ذهنه كأنما هو قطيع من الذباب. فجأة سمع صوت انفجار آخر آتيا من نفس الاتجاه، ثم الصدى مرة أخرى... ثم حل الصمت. استيقظت طيور الوادى وأخذت تحوم هنا وهناك، تبدو كأنها أشباح سوداء تتراءى فى السماء، بينما استيقظ على البعد نباح كلاب القرى القريبة الكامنة فى وادى بنى عمر.

ما هذا الانفجار؟

خفتت الصورة من ذهنه وهو يقترب من حدود قرية مجاورة لبلدة سفينة. سمع صوت المؤذن، "... الصلاة خير من النوم، الله أكبر، الله أكبر، لا اله إلا الله "

لم يركز إبراهيم ذهنه على دعوة الصلاة تلك. إنها ليست له فهو وحيد وغريب، كل أفكاره مركزة على الهروب.

قبل الظهر كان قد وصل إلى الطريق المؤدى إلى سفينة.



(٧)

استعد نيكلسون للاستغراق فى النوم، النوم، النوم. فقد أفلحت قطعتى الجلجنايت اللتين ثبتهما فى خزانات الوقود المغذية لمحطة الكهرباء بحيث ينفجرا واحدة بعد الأخرى بعد ثوان معدودة.

كان فى مقدوره أن يظهر فى الفراندة بحيث يشاهده الجميع انه بمقره المعتاد واقفا بشعره المنكوش يشاهد مذعورا ما يحدث لمحطة الكهرباء الجديدة.

"اننى لا أدمر، لكنى أحرق!"

استخدم نيكلسون نفس العبارات التى نطق بها الاسكندر الأكبر ورددها أمام أتباعه المنفذين لكل أوامره ونواهيه. انه يحرق رمز سفينة كما حرق الاسكندر الأكبر مدينة بيربوليس، وهى الرمز الأعظم للقوة الفارسية - ليس سيئا هذا النشاط الليلى. بالطبع لا توجد فى سفينة سيارات للإطفاء تندفع للإنقاذ ولا يمكن لأحد أن يفعل شيئا، إلا أن ينطق احدهم بإحدى المأثورات الإسلامية التى تشبه "يا للأسف، يا للمصيبة! حسبى الله ونعم الوكيل" بتشكيلاتها المختلفة.

لقد فعل ما يتوجب فعله، بصوت متهدج أخذ يحث ويدفع رجاله أن يصنعوا سلسلة من الجرادل البشرية، على أن يراقبوا بعين الصقر أى تواجد أو مشاهدة لأحد من المتمردين ليقبضوا أو يقضوا عليه. إذن لقد عاد هؤلاء الشياطين مرة أخرى! وهذا ما أخبر به حراسه من البدو. ثم، دخل وعلى وجهه إمارات الألم وقام سريعا بعمل غزوة على ثلاجته الضخمة وصب لنفسه كأسا مترعة من الشيرى الفاخر. تفجر الشيرى الحلو فى سقف فمه مختلطا بطعم من الذنب المرح.

وهو فى سن الطفولة، كان دائما يعتذر عن البقاء فى حضرة الكبار المملة، ثم يسرع ليختلس شفطة من زجاجة الشيرى، بعدها يشعر نيكلسون الطفل بالشيرى وهو يطلق نارا فى جسده مما يحوله إلى إنسان آخر. بعدها ينطلق فى حديقة عمته ليلعب ألعابا وحشية مع القطط والطيور والحشرات والديدان.

"لا يجب أن تعذب القطة بهذا الشكل الوحشى أيها الولد الشرير".

"انه يحب ذلك يا عمتى !"

"أنظرى، أنظرى. إنه قادم نحونا. أوه، لقد خربش ركبتى واخذ يموء كالقطة"!

* * *

الليلة الماضية، كان نيكلسون وحيدا يشعر بملل لا يطاق.

بعد عشاء مكون من المشويات والسلطات، ذهب إلى غرفة المعيشة وجلس أمام الأرغن وحاول أن يعزف بعض من مقطوعات باخ. بعد أن لعب جزءا من مقطوعة "يسوع" ثم مقطوعة "رغبات الإنسان المفرحة". توقف ثم اتجه نحو مجموعة نظام الهاى فاى. ضغط على مفتاح التشغيل، ثم ثبت ميكرفونا بلا أسلاك على قمة الأرغن المصنوعة من خشب الورد.

اختار أولا أن يعزف، "لازمنى ولا تتركنى"، ثم تحول إلى قطعة، "الرحيل على طائرة نفاثة". كل شىء ملائم عند عزفه على الأرغن، هذا كان ظنه واعتقاده. كل ما يلزم الإنسان أن يفعله هو أن يدق على مفاتيح الأرغن بكل اقتناع وثبات. لقد استطاع قبلا أن يخدع هيبورث بنفس الأسلوب، فقد أجلسه وقدم له كأسا من الويسكى وأعلن انه سوف يسمعه بعض القطع التى سوف يعزفها على الأرغن كتبها له خصيصا المؤلف بنجامين بريتن. ثم، بكل ثقة فى النفس، اختار عشوائيا بعض المعزوفات من أول وآخر القائمة.

جلس هيبورث حالما يتلذذ بامتصاص مشروبه ومستعدا لتقديم التعليق المناسب. سأله نيكلسون:

– حسنا، ما رأيك؟

- تعلم اننى لست خبيرا فى الاستماع لتلك المقطوعات الحديثة، لكـن...

- نعم؟

- حسنا، هى تحتوى على عظمة وفخامة كامنة.

- أشكرك.

انه لم يطلع هيبورث بالطبع على السر، لقد انخدع هذا لأنه مغفل كبير لا أمل فى إصلاحه. غنى نيكلسون وهو يتابع عزفه على الأرغن، "قدنى أيها الضوء الحنون، وسط تلك الظلمـــة الدامسـة، قدنى إليك! فالليل بهيم، وأنا بعيد عن بيتي"، بينما الميكرفون الذى بلا أسلاك ينقل كل شىء.

ترانيم نيومان هى المفضلة إليه، لكن الضوء الذى يقصده نيكلسون مختلف تماما عن ضوء نيومان. شاهد نيكلسون الضوء فى نهاية نفق طويل من الإيمان والخيالات. خلال كل طفولته، كان دائما ما يدفع ويحشر نفسه داخل هذا النفق، مركزا نظره باستمرار نحو الجائزة التى سوف تكون من نصيبه فى النهاية. بالرغم من المعوقات والضربات ومحاولة العالم أن يبقيه فى ظلام دامس، لكن نيكلسون استطاع أن يتلاقى مع ضوء معرفى غريب. لا شىء فوق ظهر كوكبنا الأرضى غير متوافق مع اهتماماته ومنافعه الشخصية، كذلك ليس هناك اله من الممكن أن تتقرب نحوه، أو أن هناك ما يسمى بالحب والواجب والفضائل التى

تنبثق من تعاليم السماء، كل هذه الأمور هو يمجها وينكرها. لقد رفع نيكلسون مستوى الأنانية إلى مرتبة الإيمان العميق وقام بخلطها بنوع من البرجماتية وتداولها كأنما هي نوع من المقدسات في كل لحظة من لحظات وجوده. إيمانه هذا لا يظهر وضحا جليا في ضوء النهار. يجب أن تكون مختبئا في ركن مكين- هنا تظهر البرجماتية - وأي مظهر كاذب من الاحترام والشرف والإخلاص يعرضه كأي دور مسرحي يمثله على خشبة مسرح الحياة. انه يسلك هذا الطريق مضطرا لكي يخلق لنفسه مسلكا خلال عالم يسوده الظلام.

أخيرا أحس بالتعب من اللعب على الأرغن. جلس على مقعده المفضل وأخذ في قراءة رواية بوليسية لساعتين من الزمان.

نعم، من المهم أن يتأكد من مدى انتصاره. الآن هي مهمة هذه الليلة. إذا دعت الضرورة، اذن هو مضطر الى ممارسة ألعاب خشنة، لكي يتيقن كل فرد أن وجوده في "سفينة" ضروري للغاية، إذن فيكن الأمر هكذا. انه لم يشاهد هيبورث منذ تلك الليلة التي ملأ فيها أذني هذا الغرير بأفكاره الخاصة. تقريبا هو متأكد انه قد نسي كل شيء، أو لعله ظن أن نيكلسون يهزل. حسنا، غدا سوف يعلم شيئا مختلفا بالكلية.

كيف سوف يكون رد فعله؟ نيكلسون متأكد وبشكل قاطع أنه ما أن يحضر حتى يكون أول نطقه، "من فعلها بهذا الشكل؟" وسوف يتابع هيبورث طريقه كأنما هو بطة صغيرة تمشي وراء خرقة قماش وهي تظن أنها تتبع أمها. على الإنسان أن ينطق بأي حديث لكن فيه أكبر قدر من

الإقناع والتوكيد - لا، كلمة التوكيد هى خطأ، الأصح يكون الحديث بالأمر - أناس مثل هيبورث لا يصلح معهم إلا ذاك لكى ينتظموا فى صف واحد، بل وربما قد يضطر الفرد أن يزعق ويصرخ فى وجه هذا الآخر لكى تستقر المعلومة داخل المنطقة الرمادية فى مخه. والمحاولة تستأهل ذلك، وما أن تثبت الفكرة فإنها لا تتغير أبدا. هذا هو إيمان واعتقاد نيكلسون الجازم. قل ما تريده بصوت عال: "يسوع على حق؛ محمد على حق؛ هتلر على حق؛ تشرشل على حق؛ جزر فولكلاند هى ملكنا؛ أنا فى أحسن الأحوال؛ أنا إنسان ممتاز؛ القطة تفرح عندما أضع الأنشوطة حول رقبتها يا عمتى!"

القصة التى كان هو منهمكا فى قراءتها أمتعته. عندما نظر إلى ساعة يده وجد أنها الساعة الثانية صباحا. الجميع نيام كالأطفال، كل شىء هادئ، لم يتبق سوى تنفيذ المهمة.

فى غرفة نومه، خلع ملابسه وبقى بملابسه الداخلية ثم توجه إلى أحد الدواليب وفتحه. كان أمامه عدد من الأزياء العربية مختلفة الأشكال والألوان، وهذه طالما استخدمها على مدى السنوات السابقة. انه الآن نادرا ما يستخدمها بالرغم أنها أكثر راحة فى عند ارتدائها بالمقارنة بالبنطلونات. اختار عباءة لونها أحمر بلون الدم. هو كثيرا ما كان يستخدمها كنوع من التخفى فى مأمورياته أثناء الحرب الأهلية. لقد منحها له أحد المتمردين الذين عاملهم حسنا أثناء الاستجواب. بعد تقديم هذه الهدية الرائعة، وهى الهدية الوحيدة التى يمكن أن يقدمها السجين،

صعب على نيكلسون الأمر وهو يتحرك بخفة خلف الرجل ومسدسه مصوبا على خلف رأسه. حرص تماما أى لا يشعر الرجل بما سوف يحل به. شعر نيكلسون أن هذا أقل واجب يمكن أن يقدمه لهذا الرجل الكريم.

أخيرا، تناول غطاء للرأس لونه أسود وضعه على رأسه، ليس كما يفعل أهالى راس الصرة، لكن كما يفعل المتمردين، بعدها جمع فى يده نهايات الشال ثم أداره حول وجهه، حاجبا كل ملامحه ما عدا عينيه. استعرض شكله فى المرآة، ثم من درج تناول مسدسا وضعه بين طيات حزامه الجلدى العريض.

بشكل متلصص، رأى أنه فى حاجة إلى أن يكون حذرا للغاية، خطا نيكلسون خارجا من غرفة نومه إلى مخزن صغير بجوار المطبخ. هناك فتح دولابا صغيرا وتناول منه قطعتى الجلجنايت اللتين كان قد أعدهما سابقا أثناء النهار. هما عبارة عن تشكيلات بسيطة وليست معقدة موصلة إلى جهاز للتوقيت. نظر إلى ساعته وجهز القطعتين بحيث ينفجرا بعد ساعتين. فكر أن هذا وقتا مناسبا تماما.

بعد ذلك شغل جهاز الريكوردر وانتظر حتى يسمع بداية أغنية "قدنى أيها الضياء الحنون". هذا الصوت سوف يقنع الخدم، إذا صحا أحدهم، أنه يستمع للموسيقى فى غرفته. أصبح الآن مستعدا، لذا غادر مقره مستخدما الباب الخلفى النادر الاستخدام. خارج المنزل، عثر على المكان الذى كان جون دى لوبو قد وسعه بين الأسلاك الشائكة لكى

يسلك طريقا مختصرا إلى الشاطئ لكى يصيد. أخذ نيكلسون يفكر الآن فى جون ويتعجب عما يفعله الآن فى الهند، تخيله وهو واقف أمام موقد وحوله تنتشر أبخرة الهامبورجر، يا له من ولد عبيط!.

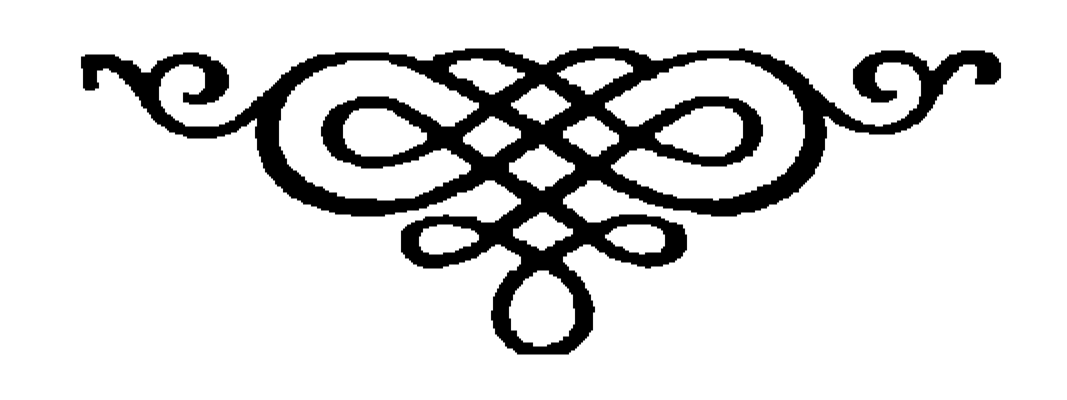
بعد أن خرج من الأسلاك الشائكة، سهل عليه بعد ذلك أن يتسلل عابرا المنطقة الفاصلة التى تصل إلى محطة الكهرباء. لقد بنيت منشآت هذه المحطة بعجلة واضحة لدرجة أنهم لم يثبتوا أسلاكا شائكة أو أسوار حول المكان. الأعمدة المعدنية كانت منتصبة، لكن الأسلاك لم تصل بعد. الحراس وهما اثنين من أتباع هيبورث، بالتأكيد هما يغطان فى نوم عميق الآن داخل الكوخ المعد لهما ويقع على بعد مئة ياردة إلى اليسار.

التزم نيكلسون بالسير فى الظلام، انه يعلم أن الحذر عموما لا لزوم له. ما أن يصل إلى مخزن الوقود الأول، وضع عليه العبوة الأولى. المغنطيس القوى صنع صوتا مكتوما واضحا، لذا فوجئ بهذا الصوت غير المتوقع. يجب أن يكون أكثر حرصا وهو يضع العبوة الثانية. يبعد المخزن الثانى عن الأول حوالى ستين باردة، ينتصب فى منصف المسافة بينهما كشكا ملك الشركة التى تعاقدت لإصلاح وتشغيل محطة الكهرباء. لا توجد أى إنارة داخل الكشك، بالتأكيد أدرك النوم العمال الوافدين من بنجالاديش ولبنان الذين بداخله منذ ساعات سابقة. ما أن وصل إلى المخزن الثانى، حتى وضع العبوة الثانية بمنتهى الحرص على السطح المعدنى.

لذا استخدم غطاء الرأس لكى يكتم الصوت. كاد أن يسحب الغطاء، لكن طرأت على ذهنه فكرة هائلة. من المناسب أن يجد الباحثين بعض من بقايا ملابس المتمردين بعد الانفجار. هذا أفضل تخطيط، لذا غير رأيه. لذا عاد إلى مقره بعدما ترك الغطاء فى حفرة تبعد قليلا من محطة الكهرباء.

بعد أقل من ثلث ساعة، عاد إلى منزله وأخذ يستمع إلى أرغنه. لعدة دقائق وقف صامتا ينهج وسط غرفة معيشته. بعدها أطفأ الجهاز، لعل تشغيل الجهاز الموسيقى لم يكن له ضرورة على الإطلاق. أطل من نافذته واستعرض كل معسكره المستغرق فى نوم عميق. لا شىء يتحرك.

عاد إلى غرفة نومه وخلع ملابسه واستحم ثم ارتدى ملابس النوم وأخذ يقرأ فى روايته قليلا. نظر إلى ساعته، مرت نصف ساعة. أطفأ نوره وانتظر صوت الانفجار المدوى الذى سوف تصل أخباره حتى العاصمة معلمة إياهم هناك أنهم فى حاجة ملحة إليه. هو المطلوب والمرغوب والمستحيل الاستغناء عن خدماته أبدا.



(٨)

كان بيتر دروري بعيدا عن سفينة عندما حدث الانفجار في محطة الكهرباء وحدث تدمير هائل لها. بعد أكثر من شهر من بقائه في سفينة، بدأ في تفهم كيف تعمل الأشياء وكيف لا تعمل. يعلم الآن كم هي مهمة صعبة تلك التي قبل القيام بها. ذاك التحدي الذي تقبله بكل ترحاب وهو في لندن، ظهر أنه حمل ثقيل عندما حضر إلى رأس الصرة.

استلزم منه الأمر أن يقضي أسبوعا بأكمله لكي يعرف أماكن المدارس في رأس الصرة. المنطقة المسئول عنها، كما خمن، قد تزيد مساحتها عن مساحة مقاطعة ويلز. هي منطقة هلالية الشكل حدودها شرقا المحيط وغربا الربع الخالي. قرر على الفور أن يستكشف منطقته ويطلع على مشاكلها. لقد شعر بارتياح بالغ وهو يغادر مكتب التعليم بعد أسبوعه الأول المربك وامتطى سيارته اللاندروفر لكي يطلع على هذا أو ذاك.

هذا وذاك لم تكن أشياء تسر القلب. مدارس المنطقة الشرقية لرأس الصرة ليس بها كتبا على الإطلاق. لم يخبره أحد بذلك، بل في الحقيقة

لم يجد أحد يعترف بتلك الحقيقة. أين الكتب؟ هذا كان سؤاله فى منطقة العاصمة، متى سوف تصل؟. لاحظ أن كل من قابلهم من المدرسين كانوا يتطلعون إلى السماء وهم يستمعون إلى هذا السؤال.

المدارس كانت تشبه معسكرات الغجر. التلاميذ يجلسون على الأرض يتصببون عرقا. المدرسون يفعلون كل ما فى وسعهم لتحسين الأمور، أو ربما عكس ذلك، كذلك مهمة توصيل المعرفة للتلاميذ، ثم يعودون بعد انتهاء اليوم الدراسى إلى مساكنهم الاسبستوسية، وهى نسخ طبق الأصل من مسكنه، ما عدا أن كل واحدة منها يشغلها ثمانية من المدرسين، لا يتمتعون بخدمة مولد للكهرباء، يتجمعون حول مائدة فرش فوقها أوراق الصحف ليتناولون الطعام، بينما مشمع الأرضية يشع نارا ولهيبا. خلال هذه الجماعة المحبطة سوف يتدخل بيتر. ما أن ذكر لهم الخطط الحديثة فى التدريس وضرورة استخدام الأدوات المساعدة والآفاق الجديدة فى تدريس اللغات حتى نظر إليه المدرسين كأنما هو قد وصل حديثا من كوكب القمر.

أخبروه، "ما الذى يمكن أن نفعله، نحن فى سجن هنا!". وهذا حقيقى. هم يرغبون أن يصنعوا شيئا، كذلك تلاميذهم مشتاقين للتعليم، لكن ليس بأيديهم كتب، لا تخت، لا مقاعد. فلتكن أولى واجباته هى توفير هذه المستلزمات، أما التفتيش على الفصول فليكن لاحقا بعدما يلعب مستر كريم دوره المناسب.

فى رحلته تلك، تقبل احتفاء وكرما بالغا من المدرسين، لكن فى قرية "صباب"، وهى قرية تقع فى منطقة تهب عليها رياح شديدة على حافة الربع الخالى، رفضت سيارته اللاندروفر أن تتحرك، بينما وقف المدرسون على طول السيارة يودعونه. لكن الوداع هذا لم يكن ممكنا. اللاندروفر لا تنطق. الجميع أطل خلف كبود السيارة. وجدوا السبب على الفور، السيارة فى حاجة إلى مضخة بنزين جديدة. لكن أين يمكن أن يعثر على مضخة فى قرية صباب؟ بالطبع لن يجد. لذا اضطر أن ينتظر هناك لمدة عشرة أيام إلى أن وصلت واحدة من العاصمة.

مع ذلك، كان وقته الذى قضاه فى صباب مملوءا بالضياء والمعرفة. تعرف هناك على مدرس مصرى يعلم اللغة الإنجليزية اسمه شكرى. أحس أولا أنه لا يميل إلى هذا الرجل، لكن، أثناء فترة بقائه الإجبارية، ذهب مع شكرى هذا إلى واحدة من فصوله. وجد أن الرجل عبارة عن دينامو متحرك أثناء التدريس، والذى أثناء قيامه بالتمثيل الحماسى، بدا قادرا ومتمكنا من تعليم تلاميذه الفقراء هؤلاء. هو أيضا لم يغلق ذهنه عندما عرض بيتر بعض أفكاره التطويرية.

فى لحظة معينة، قال شكرى:

– يبدو لى منطقيا أنه يجب أن نتقرب لهؤلاء الأولاد، وأن نكرر الجمل مرة بعد أخرى، بهذه الطريقة فقط يمكن لنا أن نؤكد لهم نطق اللغة الإنجليزية بشكل جيد، شىء مؤثر وعميق أن نحضر

رياح العالم وندفعها داخل فرجة الهواء الضئيلة المتواجدة هنا ثم نقول للأولاد، هذه واحدة من رياح العالم! تذوقوها، شموها! تحسسوها!

هز بيتر رأسه بسعادة. إنها هي بالفعل أفكاره الخاصة. لذا التصق بمستر شكرى هذا طوال فترة إقامته الإجبارية واكتسب شعورا بالشجاعة والأمل مع توقعات حسنة، طالما تواجد في تلك المنطقة مثل هذا الإنسان اللطيف المخلص.

عندما تيسر له أن يشق طريقه متجها إلى سفينة، شعر بتعب غامر وشاء أن يعود إلى منزله بأقصى سرعة ممكنة، لكن عندما تذكر احتياجات شكرى وتلاميذه - إذا ضربت عدد هؤلاء التلاميذ في مئة، فهذا يعطيك فكرة تقريبية عن حجم المنطقة التى هى فى أمس الحاجة لمجهوداته - لذا تنهد واتخذ طريق الشمال الذى يقوده إلى العاصمة -- يجب أن يحصل على الكتب. بدون الكتب والأدوات المساعدة، إذن لا يمكن أن يعتبر أن مهمته الأساسية قد بدأت.

قضى أسبوعين فى العاصمة بصحبة مفتش آخر له صلة بمنطقته. قضى أيامه الصباحية متنقلا من مكتب إلى آخر متوسلا الحصول على الكتب. حصل على عديد من الوعود وأن الكتب سوف تصل حتما، لكن متى؟ هذا علمه عند ربى.

أثناء تواجده بالعاصمة، تجول بيتر فى أنحائها ورأسها ملتفتة إلى أعلا متعجبا من هذه الهندسة المجنونة - هى عبارة عن أفكار الهندسة اليابانية وما تمثله كلمة "عربى" فى أذهانهم. هز رأسه بينما رقبته تتحرك كالبندول، هذه خيمة بدوية هائلة وضخمة لكنها مصنوعة من الخرسانة المسلحة. عندما عثر على مبولات نظيفة وجد ملصقا عليها ورقة مكتوب فيها كيفية استخدامها لتكون نظيفة دائما!. متحف الآثار والمقتنيات العربية يشبه فى تصميمه غـــلاف بذرة الحبهان! مبنى وزارة الخارجية به جناح على شكل خنجر عربى تقليدى موجها نحو - نحو البحر!

أخذ يفكر فى "سفينة" وناسها الطيبين ومسكنه الاسبستوسى وبركته الخاصة المجاورة للطريق المؤدى إلى سفينة؛ هو الذى اكتشفها منذ يومه الأول وما زال يتذكر السمك الصغير الذى تجمع حوله يغمره بالقبلات. العاصمة بالنسبة له ليست ســوى قطـر أجنبى آخر لا يشبه أو يشبه فى القليل بالأنحاء التى تقع خلفها، حيث أتى هو مخلصا ومؤمنا بأهمية عمله.

أخيرا، أخذوه ليشاهد قصر الأمير الجديد، صعق عندما رأى هذا البناء الشاهق الاسمنتى الذى اعتدى على معظم منتصف تلك العاصمة الصغيرة. تملكته ثورة عارمة وأخذ يزعق فى زميل مفتش آخر معبرا عن دهشته من تواجد هذا المبنى الغشيم بينما لا يجــد أطفاله لا الكــتب ولا حتى الأدراج. ماذا يظن هذا الأمير فى نفسه؟

المفتش الآخر قاده بعيدا هامسا فى أذنه، "هش..". شعر هذا أن بيتر قد زودها حبتين، وأخبره بأنه من الأفضل أن يعود إلى مقر عمله.

فى طريقه وهو عائد إلى "سفينة" مستعرضا أبراج المراقبة على الطريق والأكواخ المتداعية التى يعيش فيها القرويين، شعر أنه عائد إلى بيته. كان غباء منه أن يستثار هكذا. يجب أن يعلم أفضل من ذلك. الرحلات التى كان قد قام بها إلى الخرطوم عاصمة السودان، كان لها نفس التأثير على نفسيته. هناك أيضا ثار على حكام السودان الذين وضح إنهم ليسوا على أى قدر من العلم بالمآسى التى يرفل فيها رعاياهم. بدا الأمر كما لو إنهم شاءوا أن ينقلوا حرفيا ما شاهدوه بأعينهم فى بلاد الغرب. هل تنهد هؤلاء الحكام وهم يغادرون مانهاتن ثم بعدها يجاهدون لخلق نسخة طبق الأصل منها فى صحاريهم وسط مجاهل غابات المنجروف وينصبونها وسط تلك القرى القديمة المتهالكة؟. عندما يصل رؤساء الدول الأخرى إلى تلك البلاد، تجد الأمير وقد شيد سورا طوله عشرة أقدام حول قصر الضيافة لكى يخفى مظاهر الفقر التى ربما تؤذى أنظار ضيوفه الكرام. هؤلاء الحكام الجدد قد أداروا ظهورهم تماما لأهاليهم.

"إذا كنت أميرا أو ملكا فى هذه البلاد، لكنت آخر شخص يقتنى سيارة، أو كتبا لأولادى". هذا ما كان يردده بيتر لنفسه وهو يقود سيارته باقتناع كامل. ثم طرد هذا الفكر ضاحكا واستغرق فى استرجاع ذكرياته عن استحمامه فى بركته الخاصة والعودة إلى مسكنه.

في ليلة الانفجار كان بيتر في "صباب"، حيث أخبر الجميع أنه سوف يقوم بجولة تفتيشية جديدة، لكن في الحقيقة هو أراد أن يتقابل مع الأستاذ شكري ويقضي بعض الوقت معه، لذا قاد سيارته وارتمى في حضن كرم شكري. ما أن شاهده ذاك، حتى فشخ فمه بابتسامة عريضة وفتح ذراعيه على وسعهما مرحبا به قائلا، "ليس لدينا الكثير يا عزيزي المفتش! لكن اللي عندنا هو عندك!". ثم قاده داخل منزله.

أحس بيتر بمشاعر دافقة من الامتنان والسرور؛ كأنما هي امتنان طفل صغير تاه في مول كبير ثم أمسكت بيده سيدة فاضلة تستعرض كل المشترين بعينيها ثم تطمئنه قائلة، "سوف أجد أمك يا صغيري، جفف عينيك!". في المقابل، هو ساعد شكري في وضع بعض المرئيات المساعدة وشرح دروسا في بعض فصوله، تحدث معه طويلا عن مصر وكيف تسير الأمور في رأس الصرة بشكل غير مرض. أيضا، كان هناك عدد من التلال المرتفعة حول صباب، لذا باشر بيتر هوايته القديمة وحاول تسلق بعضها.

في رحلته للعودة إلى سفينة، وهو اليوم التالي للانفجار، رأى فتى عربي يسير في اتجاه سفينة على الطريق. ما أن جاوزه بيتر بسيارته حتى لاحظ أن الفتى كان يلوح بيده. حينئذ، من مرآة السيارة، في اللحظة التي احتار فيها بيتر عما إذا كان مفروضا أن يقف له أم لا،

رأى الفتى يلقى بمتعلقاته على الأرض ثم يقعى بجوارها على الطريق. ضغط بيتر على بدال الفرامل بعنف ورجع بسيارته حيث يجلس ذلك العربى.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى سفينة، هل تأخذنى معك؟

- بالطبع، اركب.

استعرضه بيتر وهو يبدأ فى إدارة السيارة:

- يبدو عليك التعب. من أين أنت؟

- من قرية جهيل.

- جهيل؟ إنها مسافة كبيرة حتى هنا. هل عبرت الجبال؟

- نعم.

وضع بعد ذلك يده فى سيالته وأخرج سيجارة. أشعلها وأخذ يدخنها بعمق. وضع يده مرة أخرى وأخرى سيجارة أخرى عزم بها على بيتر.

- لا، لا أدخن. كنت أدخن سابقا لكنى توقفت الآن.

هز إبراهيم رأسه.

استمر الصمت بينهما. لاحظ بيتر طريقة تدخين الفتى. لاحظ أن أناس رأس الصرة يدخنون السجائر كما تفعل نسوة بلده. السيجارة هى وسيلة استعراض فقط، بطريقة تود أن تقول، "نحن هنا. أنا كبير. أنا مستقل"، لكنها تدل أيضا على شعور واضح من عدم الأمان والهم المقيم. تساءل بيتر:

- لما أنت ذاهب إلى سفينة؟

هز إبراهيم كتفيه:

- للعمل.

- عمل؟

- ربما.

- اسمك إيه؟

- إبراهيم. وأنت؟

- بيتر.

- ما وظيفتك؟

- أنا مدرس.

- مدرس؟

قالها إبراهيم، ثم ألقى بعقب السيجارة من النافذة وسأل:

- هل أنت إنجليزى؟

- نعم.

- أين تعيش؟

- فى سفينة - حسنا، بقرب سفينة، فى بلاد سفينة.

هز إبراهيم رأسه، ثم سال:

- هل تحتاج إلى ولد للخدمة؟

- ماذا تعنى؟

- أنا فى حاجة إلى عمل. لدى خبرة كافية فى العمل كخادم بالمنازل.

لم يدرى بيتر بما يجيب. أحس بأنه ليس فى حاجة لمن يخدمه.

- أرجوك يا سيدى. سوف أعمل بكل جهدى فى خدمتك مقابل القليل من المال. أنت من الممكن أن تُعلمنى الإنجليزية وأنا أعلمك العربية.

لقد سمع بيتر مثل هذا الحديث من قبل:

- لكنى أنا أستطيع الحديث بالعربية.

- نعم، لكنى أستطيع أن أساعدك هنا. أنت لا تعرف الناس فى سفينة. أستطيع أن أشترى لوازمك وأحصل على أفضل الأسعار. أرجوك يا سيدى.

شعر بيتر بالارتباك وهو يستمع لكلمة سيدى هذه. شعر أنه لا يستحق هذا اللقب. لكن بالأكثر، لم يشعر أنه قد كبر فى مدارج العمر بحيث يخاطب بها. تزاحمت فجأة الخواطر فى ذهنه، أحس أنه ربما يكون قد كبر سنا. بالنسبة إليه، لاحظ أن لا فرق عمرى كبير بينه وبين هذا الشاب العربي. تعجب ما إذا كان قد تمعن فى نفسه مليا فى مرآة مؤخرا، هل يدرك حقا ما هو رسمه وشكله؟

عندما رجع من السودان، كان نحيفا للغاية، ما أن شاهدته والدته حتى صاحت، "ما الذى فعلوه بك؟ بالكاد تعرفت عليك!". ضحك من حديثها هذا، وبينما هو فى منزله أبدى تعاونا فعالا بأن يلتهم كل ما يقدم له.

اليأس الواضح فى لهجة إبراهيم أثرت فى بيتر. لكنه تماسك، فوجود خادم فى مسكنه يعنى أنه لن يستطيع التجول داخل منزله وهو بملابسه الداخلية المبلولة.

- أين سوف يكون مقرك فى سفينة؟

سأل بيتر، آملا أن يغير الموضوع، لكن خطته لم تنجح. قال إبراهيم:

- لا أعلم أين.

لم يتبادلا الحديث مرة أخرى حتى بدأت السيارة اللاندروفر فى الجزء الأخير من الرحلة، وهى فى الاتجاه الشرقى من شاطئ البحر.

بدأت مظاهر الضعف تنتاب بيتر. فعلى كل حال، هو لم يتصادق مع أحد حتى الآن فى سفينة. لقد شاهد كل من نيكلسون وهيبورث، بالرغم أنه لم يتعرف على نوعيتهما، بل ولم يكلفا خاطرهما أن يلوحا بالأيدى كتحية وهما منطلقان سريعا بسياراتهما الرينجروفر. سمع أيضا أن مؤسسة "أنقذوا الأطفال" قد أرسلت ممرضة إنجليزية تعمل حاليا فى سفينة، لكنه لم يرها أبدا. مرة، فى بداياته، ذهب إلى المستشفى وقدم نفسه على أمل أن يقابل الرئيسة الأمريكية. فقد أوصاه السيد ناصر، رئيس مكتب البوستة بأن يتعرف على تلك السيدة واصفا إياها بأنها "سيدة محترمة". لكن هذه السيدة كانت دائما مشغولة بمهامها العاجلة ولم تواتِ بيتر الشجاعة لأن يذهب مرة أخرى ليتعرف عليها. لذلك، من يمكن أن يدعوه صديقا؟ ألم يرتمى فى أحضان مستر شكرى لأنه كان يسعى وراء الصداقة الخالصة؟. نظر إلى إبراهيم وتعجب عما إذا كان هذا الفتى ملائما لأن يكون صديقا. أخيرا قال:

– انظر، إذا لم يكن لديك مكانا تذهب إليه، تعال. أمكث معى. لكنى أحذرك، بالرغم أن منزلى ليس قصرا، فهو ليس مريحا البتة. ربما عندما تراه تقرر أنك لست معجبا به.

– أشكرك يا سيدى!

أمسك إبراهيم يد بيتر من المقود ولثمها. خطر على بال بيتر على الفور صورة روبنسون كروزو وخادمه فريدى. لذا بانفعال سحب يده متعجبا عما سببه لنفسه. لكنه أقنع نفسه أنه لم يلتزم التزاما طويل الأمد.

أنه يفعل مثل ما يفعله العربى فى تلك المواقف، مثلما فعله معه مستر شكرى وهو فى صباب. هو يقدم ضيافة كريمة للغريب، أنها شيمة عربية طالما خلبت لبه. حان الوقت لكى يبين للجميع أنه قد ولج داخل طيات أسلوب الحياة التى تغلف رأس الصرة.

– ليس لدى الكثير لأقدمه لك، لكن بيتى هو بيتك!

* * *

أسرع هيبورث بسيارته متجها إلى مستعمرة نيكلسون. ما زالت النيران مشتعلة فى محطة الكهرباء، مرسلة طيات متواصلة من الدخان الأسود عاليا فى الهواء فى اتجاه داخل البلاد. لقد شاهد هيبورث هذا الدخان وهو فى مأمورية عمل على بعد ثلاثين ميلا من سفينة.

وجد نيكلسون جالسا فى مكتبه. قال وهو مندفع يلهث:

– هل رأيت ما حدث لمحطة الكهرباء؟

نظر نيكلسون نحو السماء وهز رأسه بأسى:

– يا الله، مخك تخين يا هيبورث!

اختار سكرتير نيكلسون الهندى تلك اللحظة بالذات لكى يرفع رأسه من دفتره وابتسم لهيبورث. انه لم يسمع إجابة رئيسه، لكن هيبورث ظن أنه سمع ولذلك ضحك. لذا زعق:

– ابعد هذا الكوكا من هنا حالا يا نيكلسون.

أشار نيكلسون نحو سكرتيره لكي يغادر- فعل الرجل كما أمر وبهدوء أقفل الباب وراءه. التفت نيكلسون نحو هيبورث غاضبا:

- لا تستخدم كلمة كوكا هذه أبدا في حضوري أبدا. كذلك ليس لك أن تخبرني عما يجب أن أفعله أو لا أفعله في مكتبي الخاص. هل هذا واضح؟

حملق فيه هيبورث مبهوتا:

- إنني لم أستخدم كلمة كوكا هذه إلا بعدما علمتني إياها.

تجاهل نيكلسون هذا:

- من الأفضل أن تجلس.

جلس نيكلسون وأخذ يحدق في محطة الكهرباء المحترقة التي بدت واضحة من شباك مكتبه.

- ما الذي حدث؟

- عملية تخريب كما أظن. ألا ترى كذلك؟

- أنت لا تعني أن...

- لا. لا أعني أن المتمردين قد عادوا مرة أخرى. لكن هي سوف تبدو هكذا. أليس كذلك؟

- لكن إذا لم يكن هم المتمردين الذين فعلوها، إذن من...؟

هز نيكلسون رأسه وأشار بيديه بما يعنى أنه يجب على هيبورث أن يكبر مخه. مرت وهلة من الزمن، ثم سقط هيبورث جالسا فاغرا فاه. ثم سأل بشكل هادئ:

- لست أنت؟

- نعم هو أنا. أنا الإنسان البسيط. كله حدث بمعرفتى أنا. ما رأيك؟

شعر هيبورث بانحطاط مفاجئ:

- مش ممكن تكون أنت.. معقولة دى؟

تساءل هكذا بدون أمل يراوده غير ذلك. شمل زميله بنظرة أى خاسر يكتشف فجأة مقدار خسارته، وكل طرى ناعم عندما يكتشف أن العالم الذى يعيش فى كنفه كله قسوة وبرودة.

- نعم. أنا الذى فعلتها. لقد أخبرتك من قبل ما هو المطلوب منا. وقد بدأت أنا العمل.

خبأ هيبورث وجهه بين يديه قائلا:

- يا له من أمر كريه سوف يحدث ويحل!

- بالعكس يا رجل يا عجوز، على العكس. الحكومة سوف تشعر بنوع من الصدمة - فما حدث هو شكل من الأشكال التى يخشونها. لا يمكن أن تتصور إنهم سوف يصبحون فجأة من رجالات النخوة والشجاعة ويأتون إلى هنا لينظفوا الأجواء وينظمون، تعتقد ذلك؟

إننى سوف أندهش للغاية إذا فعلوا هكذا. لا، إنهم بالطبع سوف يتذكرون أن لديهم هنا إدارة للمباحث كلها إخلاص وتفان، أيضا لديهم فرقة الصحراء التى يمكن الاعتماد على كفاءتها وحسن تنظيمها. الآن بالذات، أجهز مذكرة سوف ترسل للمختصين سوف أذكر فيها إننى أشك فى المتمردين. لقد كنت أحذرهم من ذلك منذ أمد طويل. سوف أؤكد لهم بأننى سوف نفعل كل ما فى طاقتنا البشرية لكى تمنع حدوث مثل ذلك مستقبلا. بعد يوم أو اثنين سوف يفعل هذا التلكس مفعوله، سوف يكون رد فعله كالآتى، "نحن فى خوف مقيم! افعلوا كل ما يلزم من مواقف! من فضلكم أقبلوا تلك الزيادة فى مرتباتكم وكذلك سيارة لاندروفر جديدة مع خالص تحياتنا!". نعم، هذا ما أتوقع أن تجرى به الأحداث التالية.

هيبورث، وما زالت رأسه بين يديه، أخذ يموء بسبب براءته الضائعة، ما أن انتهى نيكلسون حتى صرخ:

– أرجوك. أخبرنى أن ما أسمعه هذا ليس سوى نكتة كبرى!

رد فعل هيبورث أزعج نيكلسون إلى حد ما. إذن حان الوقت لأن يلعب بعنف. لذا رفع من درجة صوته:

– لقد تناقشنا فى ذلك من قبل يا هيبورث. لدى شريط تسجيل يؤكد ذلك. ابتعد عنى الآن وفكر فيما قلته. لكن ركز كل تفكيرك فى الخطوة التالية الضرورية. إننا فى البداية فقط أيها العجوز.

تأوه هيبورث قائلا:

– لا اصدق أننى أسمع ذلك.

– صوتك يشبه شخصية فى مسرحية أوبرا شعبية تعيد وتكرر ما لا لزوم له. لقد عادت الدراسات المسائية مرة أخرى.

قالها نيكلسون وقد سابق فكره فيما يجب أن يفعله لاحقا ويثبت مدى إخلاص هيبورث. لذا سأل:

– كيف حال الممرضة الصغيرة؟

قالها محاولا أن يرفع من معنويات زميله. وقف هيبورث وأخذ يحدق خارج النافذة شاردا.

– إنها فى منتهى البرود معى.

– باردة؟ وهى ممرضة؟ هل أنت متأكد بأنك تتقرب إليها بشكل سليم؟

لم يجب هيبورث. ظل يحملق فى المحطة المحترقة. لذا سأل:

– لكن ماذا حدث للرجال الذين كانوا يعيشون فى الأكواخ المقامة داخل حدود المحطة؟

– للأسف أخشى أنهم لم يجدوا الفرصة المناسبة، لقد انفجر المخزنين تقريبا فى نفس الوقت. حدث هذا بسرعة بالغة، إنهم لم يدركوا أبدا ما الذى أصابهم.

ثم أضاف بصوت خشن:

– مع ذلك لا تقلق. لقد أوردت ذكرهم في مذكرتي وسوف تعوض عائلاتهم بشكل محترم.

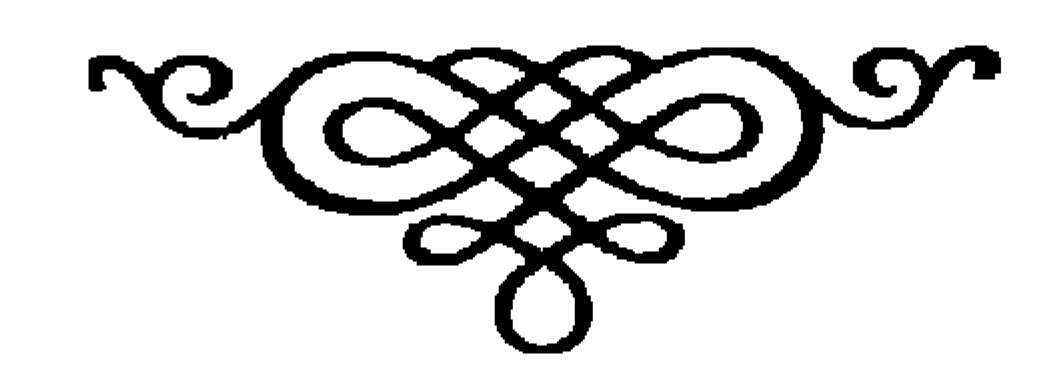
استدار هيبورث محملقا في نيكلسون بثبات، بدا، حسب ظن نيكلسون، كأنما هو كلب تلقى علقة سخنة:

– بعدين معك يا هيبورث! أنفض عن نفسك هذه الحالة! لا أسمح لك أن تخرج من هنا هكذا مبلول.ثم أضاف "لدينا عمل نؤديه! هذه الشعلة البسيطة ليست سوى البداية. يجب أن نستمر في تغذية النار لكي لا تنطفئ. بالمناسبة، هل رأيت المدرس الإنجليزي؟

هز هيبورث رأسه نفيا. أخذ يبحث بجهد في جيوبه عن علبة سجائره، بينما أخذت أصابعه ترتعش بلا توقف.

لم يتوقف هذا الاهتزاز حتى ونيكلسون، بيد ثابتة كأنها قدت من حديد، أمسك بصندوق سجائره المصنوع من خشب الورد، ثم، من لا مكان، ظهر لهب مستقيم من ولاعته.

انحنى هيبورث نحو اللهب البسيط وأشعل سيجارته. دخان الولاعة أثر في عينيه فامتلأت بالدموع.



(٩)

خرج بيتر دروري متوجها إلى مكتب التعليم صباح اليوم التالى وهو يخطر فى مشيته، كان فى شوق لرؤية كل فرد هناك ويسأل عن أخبار الكتب التى طلب إرسالها من العاصمة.

لقد تشارك فى مكتب واحد مع السيد/ عبد الوهاب نصراوى وهو خبير مصرى فى وسائل الإيضاح المرئية. هذا الرجل كانت معاملته طيبة لبيتر، وكان قد اصطحبه فى جولة عندما وصل هنا للمرة الأولى لكى يقدمه لكل موظف فى مكتب التعليم. لكن، عندما وصل بيتر هذا الصباح، وجد مذكرة على مكتبه بخط يد الأستاذ نصراوى فيها:

– أين أنت يا عزيزى؟ أرجو أن لا تكون قد تقدمت باستقالتك من وظيفتك (أنا أهزل). يجب علىَّ أن أطوف بوسائل إيضاحى حتى أطراف العالم! يحزننى أن أهجر المرات القليلة التى أعمل فيها بسفينة لكى أتمتع بقسوة الصحراء. لكن هذا يا عزيزى، هو الثمن الذى يجب أن ندفعه لكى نقدم العلم للجهال! يحفظنا الله!

عبد الوهاب نصراوى

(رئيس وسائل الإيضاح)

مكتب التعليم هذا كان فى الحقيقة مركبا سائبا. اسميا يرأسه رجل من مواطنى رأس الصرة، لكن دائما ما تجده غائبا. باقى العاملين كانوا خبراء عرب من فلسطين، الأردن، مصر والسودان. أحس بيتر بقليل من الحرج وهو وسطهم، وتعجب عما إذا كان وعد بلفور، أزمة السويس والنفوذ الإنجليزى كان يخطر على بالهم عندما يشاهدونه أم لا.

لكن، وقد شعر بالوحدة وهو بمفرده فى مكتبه، لذا قام واتجه إلى المكتب المجاور له فى زيارة لزميل عربى. حالا لاحظ امتلاء المكتب بآخرين، جميعا عاملوه بكل لطف وكياسة واعتبروه صديقا وزميلا.

أخبر الجميع انه فى انتظار وصول الكتب، لكن هذا قوبل بقدر من الشك. لاحظ أن الجميع كان متشوقا لسرد أحداث ونتائج تلك الأحداث المؤسفة التى حدثت منذ ليلتين.

صاح السيد/ صديقى وهو مفتش اللغة العربية السودانى الجنسية:

– يبدو أن الشيوعيين المجرمين قد ظهروا بيننا مرة أخرى!

إنه شخص طويل القامة رفيع القوام وهناك خطين متوازيين محفورين على خديه، هذا أعطاه مظهرا ملوكيا. يشعر بيتر بالاندهاش عندما يتملى فى وجه الأستاذ صديقى ذا اللون الناعم المتجانس وعظام الخدود المرتفعة، لكن فوق كل شىء، هالة اللازمن واللاعمر التى تحيط به.

شعر أنه ينظر "الإنسان الأول" وليس مجرد وجه إنسان. السيد صديقى هذا هو مفتش مثله، هو شخص عادى مثله له وظيفة يؤديها ويبرع فيها. سأل بيتر:

– ألا يمكن أن تكون تلك عبارة عن حادثة عادية لا غير؟

أجاب صديقى بكل تأكيد:

– ليست حادثة! المتمردون عادوا مرة أخرى يا عزيزى.

أخذ بيتر فى استعراض مكتب صديقى، جهاز التكييف المثبت فى الحائط لا حياة تنطلق منه. المروحة المعلقة فى السقف أصبحت ملاذا مفضلا للذباب. قال صديقى:

– وكما ترى يا بيتر، طالما رحبنا بالقرن العشرين ومنجزاته، لكن تلك المنجزات فضلت أن تغادرنا سريعا. فى مجموعة المساكن المخصصة للمدرسين، زاد معدل صرير الأسنان بعد دمار محطة الكهرباء. كنت قد اشتريت لزوجتى حلة كهربائية لتسوية الأرز طالما رغبت هى فى امتلاكها، أيضا هناك أيضا مروحة كهربائية جميلة اشتريتها من العاصمة. تصور مدى حزننا. هناك قدر كبير من البكاء يعم سفينة الآن يا عزيزى وكثير من الزوجات يلعن أدواتهن الكهربائية.

– نعم أنها مأساة وقد حلت.

علق على ذلك الأستاذ أحمد، وهو مفتش الرياضيات:

- إنها غلطة كبرى أن تحضر زوجتك المسكينة إلى هذا المكان المرعب. النساء هن مخلوقات رقيقة يجب أن يصانوا من مواجهة حقائق الحياة الصعبة.

سأل بيتر:

- لكن أنت يا مستر أحمد، أين زوجتك؟

ابتسم هذا قائلا:

- إنها ترعى أطفالنا فى غزة.

- لكن أليس... أليس هناك مشاكل عديدة فى غزة؟

اتسعت ابتسامة أحمد قائلا:

- فى كل مكان هناك متاعب. هنا تجد المتاعب، بل أظن أنه حتى فى الجنة هناك متاعب.

رد صديقى منفعلا:

- اختشى يا رجل. فى السماء يحل السلام والهدوء وحب غامر من الحوريات.

- إذن سوف تحدث مشكلة لتحديد من يستولى على حورية من. الرئيس العراقى سوف يرغب فى الحورية التى صدرها كحبتى الليمون،

بينما خوميني يطلب نفس الحورية، وبذلك سوف يرسل حرسه الثورى لكى يؤكد حصوله عليها!

لم ينطق صديقى، لكنه كشر وأخذ ينظر بتعجب نحو أحمد.

– لقد سمعنا أنه قد حدثت مذابح فى مكة ذاتها. مسلم يذبح مسلما، خالى عبد الله شاهد كل هذا. إذن صدقونى، سوف يكون هناك مشاكل حتى فى الجنة

هز أحمد رأسه توكيدا لكى يوضح أن المناقشة قد انتهت وهو الذى كسب الجولة الأولى.

حوالى نهاية فترة الصباح، ذهب بيتر إلى مكتبه الخالى لكى يباشر عمله. ما أن ظل هناك عشر دقائق حتى دخلت إليه فتاة سمراء جميلة ترتدى رداء شفافا يشبه السارى. قالت:

– أنا واحدة من رعاياك !

– نعم؟

– نعم، أنا مدرسة فى مدرسة ظاروت للبنات. أنت فين؟

– أنا فين؟

– نعم. نحن انتظرنا وانتظرنا، لكن للآن لم نشاهد مفتش اللغة الإنجليزية.

- آه فـهـمت. أنـا آسف. لكن أقـول لك الحق. أنـا لا أعلم أن هـناك مدرسة للبنات فى ظاروت. بالمناسبة، أنا بيتر دروري.

- تشرفنا . اسمى بتول الشنرى.

أرسلت له ابتسامة عاجية نجومية نحو بيتر، لكنها سرعان ما غطت فمها بيدها .

- اجلسى يا مس شنرى.

- مرحبا بك.

جلست بتـول كأنما هـى منطاد يفـرغ هوائه. مـلابسـهـا الشـيفـونـيـة استقرت أخيرا حول تكوينها بالكامل. سأل بيتر:

- تشربى شاى؟

- لا أشكرك، شربت شاى قبل حضورى إلى هنا .

- حسنا .

حدث صمت طويل بينهما . أخذت هى تحدق فـى وجهه بثبات، لذا حول هو وجهه. كان على وعى أن تلك هى أول أنثى يخاطبها خارج أى مدرسة زارها فى رأس الصرة. لكن إلى حد ما، يصعب عليه أن يصف بتول الشنرى بأنها فتاة. فمثلمـا يمثل صـديقى فى وجهة نظره "الإنسان الأول"، هى أيضا تمثل "المرأة الأولى". هى تبعد بأميال عنه بسبب الاعتبارات الدينية والثقافية، وفوق كل شىء بسبب جمالها .

- كيف يمكن أن أساعدك؟ أنت إذن مدرسة اللغة الإنجليزية بمدرسة ظاروت للبنات.

- حسنا، أنا مدرسة الكيمياء، لكن عندما حضرت إلى هنا للمرة الأولى قالوا، من يعرف اللغة الإنجليزية؟ لذا رفعت يدي. فقالوا: أنت تذهبين إلى مدرسة ظاروت للبنات. لكن أنا لغتى الإنجليزية سيئة. أليس كذلك؟

- أبدا. هى جيدة. الآن أخبرينى كيف أذهب لمدرسة ظاروت؛ سوف أقوم بزيارتكم.

أجابت بتول وكأنما هى تنطق بجمل من لغة القرن التاسع عشر الإنجليزية:

- إنها رحلة مليئة بالمصاعب.

- لكن أنا يجب أن أزوركم.

أعطته بتول إرشادات الوصول، ثم بدا على وجهها مظاهر الحزن. ثم قالت:

- أنا من الخرطوم.

- صحيح؟

- نعم، هل تعرف الخرطوم؟

- أعرفها قليلا. إنها مدينة جميلة. عملت لفترة فى غرب السودان، بقرب حدود تشاد.

حركت بتول رقبتها الرقيقة بحركة إلتفات فجائية:

– إنها مدينة جميلة للغاية يا مستر بيتر، أكثر جمالا من سفينة؟

دفعت بتول بشفتها السفلية إلى أسفل وخفضت من رأسها، لم تنطق بشيء، لكن هى لم تكن فى حاجة لذلك. نظرتها كانت فيها الكفاية.

– أفهمك.

ثم اخبر بتول بأنه سوف يزور مدرستهم غدا بمشيئة الله، لذا غادرت بتول سعيدة.

كان المكتب حارا بشكل لا يطاق. شعر بيتر بسعادة بالغة وهو يرى الجميع يغادرون، لذا تابعهم فورا، متعجبا عما يكون قد صنعه رفيقه الآن فى المسكن هذا الصباح.

* * *

بينما يقود بيتر سيارتهم متوجها إلى منزله، طارت فوق رأسه طائرة هليوكوبتر على ارتفاع منخفض. لوهلة أرعبه اقترابها غير المتوقع وصوتها المزعج، مما أضاف إلى شعوره بعدم الارتياح الذى سببه تدمير محطة الكهرباء. لكنه فى التو أدرك كنهها. بينما شاهدها تختفى فى الأفق، تمنى لو كان هو الآن داخلها.

الطيار، هو كيد كيندال، كان قد طار هذا الصباح الباكر من العاصمة، وإذا صارت كل الأمور في مجراها الطبيعي، سوف يعود إلى منزله الفاخر في العاصمة وموقعها بجوار المطار الدولي. الليلة الماضية، كإجراء روتيني اطلع على خرائط الطريق المؤدي إلى سفينة. لكن الهليوكوبتر تأكل الأميال أكلا وتلتهم المسافات في دقائق معدودات. سوف يعبر فوق القوارب والمراكب والتجهيزات الساحلية التي قد يستغرق منها الوقت يومين لتنجز نفس رحلته تلك بينما هو يقطعها في ساعتين فقط. رأى وهو يطير ذلك الطريق الإسفلتي الجديد الذي رسم في الخريطة كخط أحمر. حاول بعض أصدقائه أن يقطعوا المسافة ما بين العاصمة وسفينة بواسطة سيارة مجهزة جيدا، لكنهم فقدوا المحور الخلفي لسيارتهم عند "إبنا". إنها منطقة بعيدة وعرة، لكن في القريب العاجل ستتغير الأحوال. عندما يحدث ذلك وعندما تتلاقى السكك الفرعية مع الطريق الرئيسي، سوف يعني هذا نهاية تواجده في إمارة رأس الصرة. حينئذ سوف تحل وسائل أرخص للنقل. على أية حال، ربما تظهر أمامه فرص أخرى. انه سوف يأسف للرحيل، لكنه سوف يصطحب معه العديد من الذكريات اللذيذة.

كيندال هذا كان يفضل أن يدير طائرته وهي على ارتفاع منخفض ويتخذ الطريق الساحلي كمرشد. ينخفض لكي يشاهد المناظر الجميلة، أو يرتفع لكي يتجنب رؤية ما يشغله أو يحزنه. هناك الكثير مما يحزن منذ وصوله إلى سفينة، أيضا هو مكلف بنقل الممرضة الجديدة جوانا في زياراتها إلى القرى الداخلية للبلاد.

جوانا كانت جالسة بجوار كيندال. من جراء الإثارة والقلق، أخذت ترقب السيارة اللاندروفر التى تسير فى الأسفل، ثم ركزت أنظارها نجو الجبال الشامخة التى ظهرت أمامها. هذا الجزء من الرحلة دائما ما يبث فى قلبها الرعب والخوف. فى رحلتها الأولى بالهليوكوبتر اعترف لها الطيار أنه لم يكن متأكدا أنه سوف يعبر هذه السلسلة من الجبال بسلام. الهواء كان خفيفا للغاية، والرياح تهب بطريقة عجيبة.

إنها المرة الأولى التى يصبح هو طيارها وقد أعجبت به من اللحظة الأولى التى تقابلا فيها. "لو كان اصغر من ذلك سنا..."، سمحت لنفسها أن تفكر هكذا بينما تساعد المعاونين للصعود وتناول كيندال لصناديق الأدوية.

"لو كانت أكبر من ذلك عدة سنوات..." هكذا كان يفكر كيندال بينما يحيى جوانا وهى تمتطى الطائرة لتجلس بجواره.

طارا فوق محطة الكهرباء التى ما زال الدخان يتصاعد منها، قال هو:

– شىء فظيع.

زعقت هى:

– ها أنت تخبرنى، لقد استغرق منا إعادة الحياة لمولد كهرباء المستشفى ساعة بأثرها، هى مصيبة وحلت فوق رؤوسنا.

- إنهم منزعجون جدا فى العاصمة. هذا ما أخبرك به.

- بالطبع يجب أن ينزعجوا.

توقفا عن الحديث والطائرة تقترب من قمم الجبال. ركز كل الركاب أمنياتهم أن تتمكن الطائرة من الوصول إلى الارتفاع اللازم حتى تنزلق فوق الحافة. بعد عدة دورات وشكوى مرتفعة النبرة من مراوح الطائرة، أمكن لها أن تحقق المطلوب.

فى الأسفل امتدت هضبة واسعة يغلب عليها اللون الأبيض وتبدو خالية كأنما قد غطت وجه الأرض كلها. انخفضت الطائرة إلى ارتفاع مريح، شعرت جوانا بمعدتها تلعب، لعل هذا هو شعور أى طائر يهبط فجأة من علو شاهق.

حومت الطائرة حول مكان صغير مخصص وسط الهضبة ثم استقرت فى مكان مهجور بجوار عمود معلق عليه راية رأس الصرة التى تتكون أساسا من اللون الأحمر والأصفر. لا يوجد أى إنسان على مدى البصر. ثم، من رحم بعض المساكن الطينية التى تقع خلف بعض الكثبان، شاهدت جوانا فردا ثم آخر، ثم بعض الأطفال الذين تسابقوا جريا نحوهم. حالا كانت الطائرة محاطة بعدة مئات من مرتدى الملابس المهلهلة. قال كيندال:

- هذه هى عيادتك يا جوانا. اسمعى، على أن أبحث عن شيخ هذه القرية لأسلمه خطابا من الحكومة. سوف أعود بعد عشرين دقيقة.

– عشرون دقيقة؟

أخذت تحصى هؤلاء الذين تجمعوا حول المرض الذى معه الأدوية.

– الأفضل أن تقول بعد عشرين عاما.

فعلت هى كل ما فى استطاعتها، لكن هذا لم يكن بالقدر الذى يرضيها. أخذت تقطر فى عيون بيضاء دمرها مرض التراكوما، ودفعت بحبات من المضادات الحيوية إلى أيدي مليئة بالدمامل والعدوى، ثم أعطت عجوزا بعض حبات الأسبرين لأنه كان يشكو من التعب السريع؛ داعبت الأولاد وأخذت تلقى محاضرة تصويرية على الأمهات... ثم أتى الممرض ليقول لها الأدوية قد نفذت. انتظرت قليلا تحدث الناس على قدر طاقتها، لكنها شعرت أن جهودها بلا فائدة.

هذه العيادات هى بالتأكيد أفضل من لا شيء؛ هى تعلم ذلك علم اليقين، لكن ليكون التأثير أعظم يجب أن تتوافر عيادة فى كل قرية مصابة بالهجمات الوحشية للذباب– لكن فى الوقت الحالى، فإن هذه الرحلات تستطيع أن تفعل شيئا.

هى تحاول قدر إمكانها أن تغمض عينيها وهى تشاهد تلك المشاهد المؤلمة المرتسمة على وجود هؤلاء الناس الذين حاصروها. انتظرت عودة كيندال بفارغ الصبر. كان الناس يتوسلون إليها بلغة بالكاد تستطيع تفهم ماذا تعنى. وجدت نفسها تهز رقبتها جيئة وذهابا إلى أن شعرت بالألم ينتشر فى فقرات عنقها. أخذت تتوسل للمرض أن يحاول تذكيرهم

بأنها سوف تعود مرة أخرى. ثم، وبشكل فجائى، تخيلت أنها عادت إلى انجلترا تتمتع بمباهج الحياة العادية هناك، لكنها أدركت فجأة أنها تقف هنا كأنما هى جنية القصر وسط الكثبان والمتاهات.

دارت حول الهليوكوبتر وتابعها الناس من بعيد. تذكرت حفلات البانتومايم وقصة علاء الدين والمصباح السحرى التى كانت هى المفضلة عندها. تذكرت كيف أنها عندما كانت صغيرة زعقت أمام الجنية السمينة التى ظهرت فجأة من خلف جبل ثلجى جاف، وقالت لها، "أريد عروس داخل بيت لها، أما الأمنية الثانية فهى عبارة عن أطقم ملابس عديدة للعروس"، ثم صمتت ونطقت بأمنيتها الثالثة، "أتمنى أيضا أن تخف والدتى من مرضها".

هى حصلت فعلا على أمنيتين، لكن الأمنية الثالثة كانت تفوق قدرة ساحرة المصباح السحرى، ماما كانت فى المستشفى أثناء عرض البانتومايم ولم تغادرها أبدا. كانت تلعب بعروستها الجديدة عندما حضر والدها وأخبرها بأن ماما الآن فى السماء مع الجدة والجد، وكذلك مع القطة تيجى.

لم تلعب جوانا بعروستها تلك بعد ذلك أبدا.

كطفلة وحيدة، عاشت مع والدها؛ تحضر من المدرسة كل يوم لكى تطبخ له وتؤدى أعمال المنزل من مكوى وتنظيف. كبرت هى سريعا، علمت وهى ما زالت فى الثانية عشر من عمرها أنها ترغب أن تصبح ممرضة، ولم يتغير فكرها هذا أبدا. فى عمر الثانية عشر كانت تعلم عما

إذا كان والدها قد غير ملابسه أم لا، وأى قميص هو الذى يتماشى مع هذا البنطلون. تدربت فى مستشفى محلى فى شيستر وبعد تدريب جاد حاولت إجادة موضوع التوليد. لم يعد عندها الوقت الكافى لكى تهتم بالشبان. أما والدها الذى كان قد تعدى عمر الأربعين عند مولدها، فإنه خرج على المعاش فى نفس اليوم الذى حصلت فيه على دبلوم التوليد. جاهد والدها لمدة عام كامل أن يجيد الأعمال المنزلية، لكنه طالما حرق الطعام وحصل على قمصان مكرمشة بسبب الكواء السيئ. عادت هى ليلة للمنزل لتعثر عليه مغمى عليه عند قاعدة السلم. حاولت أن تعطيه قبلة الحياة وتضغط بقوة على صدره لتعود إليه الحياة لكن بلا فائدة. مات والدها وأصبح من العسير عليها أن تمر بهذا السلم دون أن تدمع عيناها. بعد ذلك أصبحت لا تطيق البقاء فى هذا المنزل، لذا عرضته للبيع وقبلت الوظيفة التى عرضت لها فى بلدة سفينة التى قدمتها لها هيئة "أنقذوا الأطفال".

عاد كيندال مصطحبا معه امرأة مقنعة تحمل طفلا صغيرا.

– أعتقد يا جوانا أن لدينا حالة جدرى.

فحصت جوانا الطفل قائلة:

– نعم، اعتقد أنك على حق.

دعيت هذه المرأة بطفلها أن تصعد إلى الطائرة لكى يتم نقلها إلى عيادة سفينة. تجمع الناس، بعضهم مادا يده على هيئة استعطاء، ثم دارت المراوح فاندفع الجميع بعيدا وخفضوا وجوههم إلى أسفل

بسبب الغبار الذى أحدثه دوران المراوح، وعندما ارتفعت الطائرة أمكن لها تشاهد خلال الغبار المثار دائرة من الناس المتجمعين.

كانت المرأة التى معها الطفل ترتعش خوفا. حاولت جوانا أن تهدئ من روعها، عندما نظرت إلى أسفل، لاحظت أن الهضبة عادت إلى شكلها المستوى الأبيض كالسابق، ولا يتواجد أى مظهر من مظاهر الحياة. قال كيندال:

– منطقة ملعونة.

– إنها الجحيم ذاته.. لكنى اشعر بالقلق بسبب حالات الجدرى تلك. سمعت أن هناك حالة أخرى فى ظاروت، لكن الأم أبت أن تذهب لمستشفى سفينة. أعتقد أنه يلزم أن أذهب إلى هناك لأفحص هذه الحالة.

هز كيندال رأسه قائلا:

– المغفلين فى العاصمة لا يدرون شيئا عما يحدث هنا.

– هناك عالم مختلف تماما. إلى أين مسارنا التالى؟

ابتسم كيندال:

– وراء ما وراء الوراء. سنذهب على قرية أم حوت.

تنهدت جوانا:

– آه.. أم حوت.

* * *

وصل بيتر درورى إلى منزله ليجد إبراهيم يشوى سمكا على نار خشب على بعد ياردات قليلة من الباب الرئيسى، أيضا لاحظ أن هناك خيمة بدائية تمتد من حائط المنزل والطرف الآخر مربوط بدوبارة فى جزع شجرة "مشواك". تحت ظل الخيمة ركع إبراهيم بجوار النار يراقب السمك.

صاح بيتر وهو ينقل شنطة يده من السيارة حتى باب بيته:

– حسنا، الآن عرفت ماذا كنت تفعل.

– كنت أصيد. "قالها وهو لا يحول نظره عن النار".

– يعنى هذا أنك كنت تصيد سمكا هذا الصباح، لكن كيف ذهبت حتى البحر.

– ذهبت مشيا فى الذهاب والعودة. صدت ثلاثة سمكات فى حجم هذه. لم تستغرق منى وقتا طويلا.

– حسنا، شىء جميل، ليس لدى فى المنزل أى طعام. كنت أنوى أن اذهب إلى بلاد سفينة لكى اشترى علبة طعام صينى. لكن هذا أفضل بالتأكيد.

– أرجوك. تحدث بالإنجليزية.

– آه، نعم. الإنجليزية.

علم إبراهيم كلمات مثل "سمك"، "نار"، "غذاء"، "مروحة". كان إبراهيم يستخدم مروحة ورقية فوق النار. أخذ إبراهيم يكرر مرارا وتكرارا. ثم دخل بيتر لكى يغير ملابسه. فى الحال شعر أن المكان مختلف: ملابسه وكتبه رتبت جميعا فى أكوام منتظمة؛ لا يوجد أى أثر للتراب أو الغبار فى أى مكان؛ الحمام نظيف للغاية. حتى المرآة التى كان ملتصقا بها علامة صانعها، وجدها خالية من أى ملصقات. أخذ بيتر فى التجول من غرفة لأخرى، كل شىء نظيف ومرتب. الأغطية التى منحها لإبراهيم كانت منتظمة وموضوعة على أرضية الغرفة الخلفية. عاد بيتر إلى الباب الرئيسى. قال بيتر بالانجليزية:

– أشكرك يا إبراهيم. المنزل نظيف جدا.

أخذ إبراهيم فى ترديد الجملة. ثم أشار إلى المنزل قائلا "هاوس"، فهز بيتر رأسه موافقا.

قال إبراهيم وهو يعود للاهتمام بالنار.

– اختبرنى.

أشار بيتر نحو السمك:

– ما هذا.

– فيش.. هذه سمكة.

– ما هذا؟

– فاير.. هذه نار.

استمر بيتر فى اختبار ذاكــرة إبراهيـم واندهـش لأنه لم يخطئ فى أى كلمة. انه يمتلك ذاكرة مدهشة. صاح بيتر:

– برافو

أجاب إبراهيم بالإنجليزية:

– ثانك يو بيتر.

كان بيتر متشوقا أن يسأل بيتر عما يفعله هنا، لماذا اختار أن يبقى معه. كان يتوقع أن يغادره هذا الفتى بمجرد عـودته من العمل، لكنه فوجئ بأنه ما زال موجودا!

لم يلاحظ عليه انه اندهش من منزله الخالى ولا ساندويتشات البولوبيف التى أعدها بيتر لعشائهما. شىء جيد أنه قرر أن يبقى لفترة. شىء حسن أن يشعر مرة أخرى أن هناك من يشاركه، لأن يحب إنسانا ويفكر بشأنه ويسير بجانبه بل وربما ليتناقش معه.

أكل كليهما من السمك المشوى بأصبعهما فى ظل الباب الخارجى. كان السمك ساخنا، ولم يكن سـيئا بل لذيذا، هو فى الواقع أطعم من أى سمك أكله بيتر من قبل، يشبه طعمها الفراخ المشوية، لكن بطعم أفضـل.

أكلا فى صمت، لكن بعد الانتهاء، سأل إبراهيم:

– أنت مدرس، أليس كذلك؟

– نعم.

هز الفتى رأسه قائلا، "فش، فاير، لنش.. ما هذا؟ ستيك، فان، ثانك يو، هاوس، از فيرى كلين. قال كل هذا باللغة الإنجليزية وأخذ يرمق بيتر بعيون مترقبة. ضحك هذا قائلا:

– تريد أكثر من ذلك، أنت لحوح!

– نعم، أريد أن أتعلم كثير من الكلمات.

لم يكن بيتر مستعدا لكل هذا الحماس. وسريره المرتب يناديه لكى يستريح وينام ساعة القيلولة، لكنه كان يشعر انه غير قادر على خذل آمال هذا الفتى، فليس كثيرا ما يتم العثور على إنسان بهذا القدر من الحماس والرغبة.

تنهد، مستسلما لما لا بد منه. نهض وذهب إلى غرفته لكى يعثر على كراس، ثم طرأت على ذهنه فكرة. أمسك بجهاز التسجيل وعاد إلى الباب الأمامى.

بينما يلاحظه إبراهيم فى كل حركاته، كتب بيتر الحروف الإنجليزية فى الكراسة، ثم رسم أسهما صغيرة توضح اتجاه كتابة الحروف، بعدها أدار جهاز التسجيل وببطء بدأ فى نطق اسم كل حرف. بعد ذلك وضح لإبراهيم طريقة تشغيل الجهاز، واختتم بقوله:

– تعلمهم وسوف أذهب لأنام.

هز إبراهيم رأسه. قال بيتر وهو يغادر:

– إذا لم أصحو فى ظرف ساعتين، احضر إلى، من الممكن أن نذهب لنستحم فى البحر.

نام بيتر وحلم بجبال ويلز. كان يتسلق جبلا مرتفعا لكنه لم يعانى أى مشقة، شعر كأنه يطير. أحس بفرح غامر لأنه وصل إلى القمة بأقل مجهود. تسلق بعد ذلك جبلا آخر بنفس السهولة ووصل إلى القمة وأخذ يستجلى المنظر أسفل مكانه. شعور الابتهاج والانتصار السهل غمره بشكل بالغ.. فهناك انتصار يتلوه انتصار آخر يمر أمام عينيه الناعستين. هوذا ممالك العالم تنبسط تحت قدميه وهو يستطيع أن يقاوم أى إغراء. هو لا يرغب أن يمتلك شيئا، هو فقط يود أن يتطلع عليها جميعا من أعلى ومجرد نجاحه بفضل مجهوده فيه الكفاية وأكثر.

اضطر إبراهيم أن يهزه لكى يصحو. لذا سأل:

- ما الذى أقوله بالإنجليزية لكى أجعلك تصحو ؟

- ويك أب! تايم تو جت أب!. "ثم أخذ يقلد له هذه الأفعال".

أخذ إبراهيم يراقبه باهتمام. ثم ذهب بيتر إلى الحمام وصب بعض الماء على وجهه وبعدها ذهب إلى الفراندة.

فقدت الشمس بعض من جبروتها وكانت ترحل تجاه الأفق، أخذ بيتر يستطلع ما أمامه فشاهد إبراهيم يتدرب على اللغة. لاحظ أنه ملأ صفحة تلو الأخرى بالحروف. ذهب إليه وأمسك بالكراس ولدهشته لاحظ أن خط إبراهيم يتحسن من صفحة للأخرى. لذا قال مبتهجا:

- حسنا جدا يا إبراهيم، حان الوقت لنذهب لننوم، أنت تستأهل ذلك.

– أين نعوم؟

قالها إبراهيم بالعربية.

– فى البحر طبعا، بقرب سفينة. نستطيع الذهاب باللاندروفر.

– لا. لا أرغب الذهاب لسفينة.

هرش بيتر رأسه:

– نعم؟ لا تريد. حسنا، من الممكن أن نذهب للوادى.

– أين هذا المكان؟

– داخل البلاد.

– حسنا.

أحضر بيتر منشفته وركبا سويا السيارة.

بدأ إبراهيم فى تكرار الحروف الأبجدية الإنجليزية. نطقها جميعا بترتيبها بدون خطأ.

– أنت مدهش يا إبراهيم.

– مدهش؟

فترجم له معنى الكلمة وبدأ فى تعليمه كل الكلمات التى يتذكرها وهما فى الطريق إلى الوادى. أخذ إبراهيم فى تكرارها وظلت جميعها عالقة فى ذهنه كأنما هى ذبابة التصقت بورق لصق. لقد سمع بيتر كيف

أن الذاكرة العربية مدهشة، لكن لم يشاهد مثل هذا يحدث أمامه هكذا. تعليم إبراهيم لن يكون صعبا بأى حال من الأحوال وسوف يفعل ذلك بكل سرور. على كل حال هو لديه الوقت وإبراهيم يعتبر رفيقا جيدا.

وصلا الوادى، خلع بيتر الروب، ثم وهو عار تماما غطس فى الماء، وأيضا أقبل إليه السمك الصغير ليداعبه كالمعتاد. الماء كان باردا ومنعشا فى نفس الوقت.

نظر إلى إبراهيم، لاحظ أنه قد خلع دشداشته لكنه ظل بملابسه الداخلية، ثم تقدم بحذر يلمس الماء بطرف قدمه. نثر بيتر عليه الماء ثم امسك بساقه ودفعه نحو الماء وأخذا يهزلان مع بعضهما ويغطسان ثم يسرعان بالصعود التماسا لالتقاط الأنفاس. بعد فترة شعر إبراهيم أنه اكتفى، لذا خرج من الماء وجلس على حافة البركة فى الشمس بينما استمر بيتر فى استمتاعه بالماء.

أفضل ما فى تلك البركة هو صفاء مائها. هو يستطيع أن يغطس إلى الأسفل وكل مرة يظل مدة أطول محاولا أن يبث الذعر فى قلب إبراهيم، لكن ما أن ظهر آخر مرة على سطح الماء، قال إبراهيم، "جود".

ثم فى واحدة من غطساته، لاحظ أن هناك حفرة ينبعث منها الضوء فى أحد جوانب البركة، لاحظ أن فتحتها واسعة ويمكن له أن يعبرها. أراد فعل ذلك، لكنه رأى انه فى حاجة إلى مزيد من الهواء قبل تنفيذ محاولته – لذا عاد مرة أخرى إلى السطح.

بدأ إبراهيم فى غسل دشداشته فى الماء. نظر نحو بيتر وابتسم له. رفع بيتر رأسه نحو الشمس لفترة دقيقة أو اثنتين شاعرا بسعادة متناهية تغمره، ثم تنفس بعمق وغطس متجها نحو الحفرة. دخل فيها بأقل مجهود وصعد إلى أعلى فوجد نفسه فى بركة صغيرة أخرى ملاصقة للكبرى، لكن تحيطها صخور عالية تفصلها عن البركة الكبرى تصل فى طولها حوالى ١٥ قدما.

سعيدا باكتشافه هذا، بدأ فى تسلق هذه الصخرة. لم يكن الأمر سهلا كما ظن، ولأنه عارى فإن الصخور الساخنة لسعته ووجد صعوبة بالغة فى الإمساك بأطرافها ليصعد إلى أعلى. ما أن وصل إلى قمتها، حتى لاحظ أنه يطل على البركة الكبرى من أعلى، وشاهد إبراهيم وهو يحملق فى الماء مشغول البال ومنزعج.

لم ينطق بيتر بحرف وهبط الصخرة بحرص وأنزل نفسه فى الماء وسبح حتى ظهر فجأة أمام إبراهيم. نظر إليه هذا غير مصدق.

– أنا جنى يا إبراهيم!

– أنت لست كذلك يا بيتر! أنت مهرج! أين اختفيت؟

استند بيتر على حافة البركة وهو ما زال فى الماء، قال:

– انزل وسوف أجعلك تشاهد اكتشافى.

بعد قدر من الترغيب، نزل إبراهيم وعام خلف بيتر وعبرا الحفرة حتى البركة الصغرى. صاح بيتر:

- أليست مدهشة؟

هز إبراهيم رأسه:

- أنا فعلا اندهشت. شيء غريب.

عاما عائدين وعبرا الحفرة. جفف بيتر نفسه وارتدى إبراهيم دشداشته التي استطاع الريح أن يجففها.

- تعالي يا إبراهيم نعود للمنزل لكي نستكمل دروس اللغة.

- قالها بيتر وهو يشعر بسعادة بالغة لأنه حصل على رفيق.

* * *

جلس بيتر مع إبراهيم أكثر من أربع ساعات تلك الليلة يعلمه، ثم وهو يستعد للنوم تناول الريكوردر وسجل كل ما علمه إياه تلك الأمسية. ثم تركه وبجواره شمعة لكي يذاكر على ضوئها، فحمل إبراهيم كل مقتنياته إلى غرفته ثم عاد:

- تصبح على خير يا أستاذ.

- تصبح على خير يا إبراهيم.

بيتر دروري وهو ذاك المدرس السعيد، نظف أسنانه بالفرشاة ثم رقد على المرتبة. فكر، "تصبح على خير يا أستاذ!"، إنها أفضل كثيرا من كلمة "يا سيدي". الصفة الأولى تناسبه تماما لا سيما هذه الليلة.

هو مماثل للمهندس، يشيد ويبنى فى عقل إبراهيم آلية معقدة سوف تغير من طريقة تفكيره وتوسع من آفاقه. كل يوم سوف تضاف أنبوبة جديدة ومجرى حديث. هناك رضى كامل يكتنف عملية البناء المتأنى لإتقان لغة جديدة على الفرد. تنهد سعيدا.

لمبة الجاز كانت فى متناول يديه وتعطى ضوءا كافيا يمكنه من القراءة. لذا تناول كتاب "الأصغر هو الأجمل" وبدأ فى القراءة.

فجأة سمع خبطا على شباكه العارى. شعر على الفور بقلق وانزعاج، لذا نهض سريعا ممسكا باللمبة واقترب من الشباك وفتحه بحذر. قال بالعربية:

- أيوه.. من يخبط؟

- أنت هدف سهل للغاية! أستطيع أن أرديك برصاصة واحدة بطريقة أسهل من قيامك بقراءة *هذا الكتاب الملعون*! اسمى هيبورث، رئيس فرقة الصحراء. آسف لأننى لم أحاول من قبل أن أتعرف عليك. لكن هاأنذا.

استطاع بيتر أن يميز بعض من ملامح وجه هيبورث بمعونة اللمبة.

- جميل أن أقابلك يا مستر هيبورث، هل تود الدخول؟

- فى الواقع، أنا الكابتن هيبورث.لا، لقد جئت أدعوك لزيارة إدارة المباحث عند المستر نيكلسون.

- مباحث؟

- لست مندهشا أنك لم تسمع عن هذه الإدارة من قبل. هذا شىء محمود، من الأفضل أن لا تعرف. ارتد بعض من ملابسك وهى بنا.

بيتر لم يكن متحمسا لمصاحبة هذا الرجل الغريب، لكنه شعر أن يجب أن يغتنم هذه الفرصة للحديث مع بعض من مواطنيه.

- حسنا، سوف أحضر معك.

انسحب وارتدى سريعا قميصا وبنطلونا، ثم دخل غرفة إبراهيم.

- سأذهب لزيارة أحد الإنجليز فى سفينة. سوف أراك صباحا يا إبراهيم.

كان إبراهيم جاثيا على ركبتيه ينسخ الحروف فى كراسته، ثم أخذ يجول بعينيه فى المكان.

- من هو الرجل الإنجليزى؟

- سيمون نيكلسون، لما تسأل؟

- لا شىء. أراك صباحا. من فضلك كيف تقول هذه الجملة بالإنجليزية؟

رددها له بيتر بالإنجليزية.

- أشكرك يا أستاذ..."ثم نطقها بالإنجليزية".

غادر بيتر المنزل مسرعا. هيبورث كان فى انتظاره أمام الباب الخارجى.

– لديك أحد بالداخل؟

– نعم.

– من؟

تردد بيتر. كان على لسانه أن يخبر هيبورث بأن هذا ليس من شأنه. هو فى الحقيقة لا يستسيغ هذا الرجل، لذا أجاب:

– انه صديق، سنستخدم سيارتى أم سيارتك؟

– سيارتى.

قالها هيبورث بشكل قاطع متضايقا من أن بيتر لم يفصح عن هوية رفيقه.

فى طريقهما إلى مستعمرة نيكلسون، شاء هيبورث أن يعطى بيتر نصيحة مخلصة: – كان من المفترض أن أزورك قبل ذلك.. وأنا مرتدى الزى العسكرى.

– حسنا، لم أتقابل حتى الآن بأحد الأوروبيين، لكن كل العاملين بإدارة التعليم كانوا فى منتهى اللطف والرقة معى.

– هم عرب؟

– عرب وسودانيون، نعم.

زفر هيبورث، واستأنف حديثه السابق:

- حسنا، كان من المفترض أن أتعرف عليك من قبل. لكنى أود أخبارك بأنهم كانوا فى قمة الجنون عندما بعثوك إلى هنا، فأنت شخص أعزل وليس لديك أى سلاح تدافع به عن نفسك وأنت فى كوخك هذا.

شعر بيتر بنوع من الإهانة عند وصف منزله بالكوخ، لكنه لم يعلق بشيء. لذا أضاف هيبورث:

- أعتقد أنهم ظنوا أن الأمن قد استتب هنا لذا أرسلوك، لكن أنت شاهدت ما حدث لمحطة الكهرباء. الأمور بدأت تسخن من جديد.

كانت هناك نبرة استمتاع فى لهجته. أجاب بيتر:

- نعم، أعتقد أن ما حدث شيء يدعو إلى القلق

- هل لديك بندقية؟

- بندقية؟ أنا؟ بالطبع لا.

- سوف أعطيك واحدة- لحمايتك بالطبع.

- حقا يا مستر.. يا كابتن هيبورث، لا أعتقد أن هذا يناسبنى. مهمتى الرئيسة هنا هو أن أزور المدارس، وأنا ليس معى طباشير أعطيه للمدرسين أو كتب للتلاميذ. لا أعتقد أن البندقية لها لزوم معى- إلا إذا استخدمتها لكى تصحو الحكومة من غفلتها.

لم ينطق هيبورث بحرف، لكن زاد من سرعة سيارته. طارت اللاندروفر بشكل كله خطورة على طرق غير معبدة.

ثم سلكوا طريقا موازيا للشاطئ، وبدأ هيبورث فى إطلاق نفيره وإشعال وإطفاء أنواره وهو يقترب من مستعمرة نيكلسون، لذا قام الحراس بفتح البوابة مسرعين. حياهم هيبورث واندفع سريعا حتى استقر فى مكان ركن السيارات.

رأى بيتر رجلا اعتقد أنه نيكلسون يخرج من باب الفيلا. كان يرتدى دشداشا ابيض اللون ويقبض على كأس بيده. كان طويلا فى حوالى الخامسة والثلاثين من العمر ومنظره ذكره بشكل رعاة الإرساليات.. الوجه الطويل المنقارى والذقن الضعيف يحوطه مظهر نسكى. ردد هذا الرجل القول وهو يمد يده:

– نيكلسون.

– بيتر درورى. جيد أن أقابلك يا مستر نيكلسون.

– دعنى باسم سيمون.

قدم إليه نيكلسون شرابا. طلبه كان جن وتونيك. شرب كأسه بتلذذ. شىء عظيم أن يتذوق الكحوليات مرة أخرى، لا سيما هذا النوع بالذات. فضل هيبورث أن لا يتشارك فى الحديث، لذا أمسك بجريدة أسبوعية وأخذ فى تصفحها. ثم سأل نيكلسون:

– هل تحس بالراحة فى سكنك وعملك الجديد؟

– اننى فى أحسن حال، أشكرك. هناك مشاكل بالطبع، لكن كلها متوقعة. نحن فى حاجة إلى مستلزمات لا نهاية لها خاصة بالمدارس ومن الصعب الحصول عليها. هناك تباطؤ غريب من جهة الحكومة.

مال نيكلسون قليلا إلى الأمام وقد بدا على وجهه ألاهتمام. سأل:

– ما هى احتياجاتك بالضبط؟

– حسنا، الكتب مثلا. من النادر أن تجد كتابا دراسيا باللغة الإنجليزية فى المنطقة كلها. نحتاج أيضا إلى طباشير، سبورات، ومثل هذه المستلزمات.

– سوف أرى ما يمكن عمله بشأنكم.

شعر بيتر بالاهتمام:

– إذا استطعت فعلا، فهو سوف يكون جميلا منك.

– مجلس التعليم دفعك إلى مكان عجيب. ليس لديك كهرباء بالطبع، أليس كذلك؟

– لا. لكن لدى مولد صوته مزعج للغاية، لدرجة أنى أفضل أن أتعايش بدونه. على أية حال، كل سفينة الآن بلا كهرباء بعد دمار المحطة الجديدة. ربما أصبح الحال أسوأ من ذلك.

– الخلاصة إذن هى، أنك تشعر بالرغم من كل هذا بسعادة غامرة؟

– نعم. اننى أكون صداقات مع أناس إدارة التعليم هنا. هم ناس لطاف للغاية.

– هل تتجول كثيرا فى المنطقة؟

– نعم. فأنا مسئول عن كل المنطقة الشرقية، وهى منطقة بالغة الاتساع.

– بالطبع هى كذلك. تشرب كأسا؟

لم يصدق بيتر أن كأسه قد فرغ بهذه السرعة.

– نعم أشكرك. أنا آسف. يظهر اننى قد ازدرت الكأس الأول. شىء لطيف أن يكون بيدك كأس به بعض من الثلج.

– بالطبع.

تناول بيتر كأسه الثانية قائلا:

– أنت تعلم بالطبع أن سفينة وكذلك كل المنطقة الشرقية هى أماكن خطرة.

– حسنا، لا أعلم ذلك، لكن الكابتن هيبورث أخبرنى عن نوعية المشاكل هنا.

ضحك نيكلسون عاليا.

– مشاكل! إنها كلمة غير موفقة يا عزيزى. نحن وسط حالة قد تتطور لتصبح أزمة وكارثة حقيقية يا مستر درورى. لو كنت مكانك لفكرت مليا فى موقفى فى ذلك البلد.

كان هذا اتجاه مخالف لم أظـهـره نيكلسـون من ود حتى الآن، لذا استقر بيتر فى مكانه ساكنا.

انتهز نيكلسون فرصة صمت الآخر ليقول:

- حسنا، أستطيع أن أتلمس الأمور طبقا لوجهة نظرك وهى إنها تسير على ما يرام، بالرغم انك لم تستنتج شيئا مما حدث لمحطة الكهرباء. أنا فى موقف أستطيع منه أن أعرف كل هذه الأمور. فالمباحث هى الاسم المحلى لكلمة "الاستخبارات". اننى هو الشخص المفترض أن يعرف هنا كل الخفايا. وأعتقد اننى ناجح فى هذا المجال. صدقنى، هنا أناس يدبرون المكائد والمؤامرات لكى يشعلوا ثورة طاحنة تطيح بالأمير "فضل". لا شىء يمكن أن يوقفهم. هم لا يهتمون ولا يحترمون بالمرة أرواح الآخرين. ألا تعلم أن هناك سبعة من الخبراء قد ماتوا عند تفجير محطة الكهرباء. آسف أن أقول ذلك. لا، لا أحد يريد أن يحل السلام فى هذه المنطقة مثلى. لذا كان رأيى المخلص أن تفكر فى مغادرة هذه المنطقة فورا قبل حدوث شىء آخر.

رجع نيكلسون بظهره فى مقعده الوثير وانهمك فى رشف خمر كأسه. أخذ يراقب بيتر باهتمام ليرى مدى تأثير حديثه عليه. رفع هيبورث نظره عن الأوراق التى بيده ليراقب ما يحدث أمامه.

تحير بيتر وصعب عليه أن يجد ما يمكن أن يعلق به. تملكه العجب، لعل السبب هو تلك الخمر التى عب منها، هى التى جعلته لا يأخذ كلام

هذا الرجل على محمل الجد. أخذ يدور بناظريه حول الغرفة. السجاجيد فاخرة، الأثاثات كويتية ممتازة، الكهرباء المخصوصة. كل شيء ينطق بالقوة والنفوذ – وقد تعزز كل هذا بما أخبر به نيكلسون. هو يعتبر نفسه مغفلا إذا لم يصدق ما صرح به هذا الرجل الحكومى – أليس كذلك؟. لكن مع ذلك، هناك شيء دافق ينبع من أعمق أعماقه يجعله غير متيقن من حديث هذا الرجل وتابعه هيبورث. هناك تراسل خفاشى يحوم ويتحرك بينهما. تذكر تلك الطريقة السخيفة التى تسلل بها هيبورث إلى منزله. لاحظ أنه قد قدم إليه كأى بلطجى مدرسة يريد أن يخيف تلميذا غلبانا. ربما تكون هذه الأمسية ليست سوى مؤامرة نصبها له مجموعة من البلطجية، "دعنا نتلاعب مع هذا المعلم ونخيفه قليلا وهو فى منزله". بعد كل ما شاهده فى أرجاء المنطقة الشرقية من مدارس وقرى، لاحظ أن هناك شيء كريه يحيط بنيكلسون ونفوذه وما يمتلكه هنا. شعر كأنه يعيش فى زمن ماض، زمن بريطانيا العظمى التى طالما حاول أن يقنع نفسه انه مضى وتولى. فى السودان، عندما كان أى سودانى يحاول أن يشعره بالذنب بشأن ماضى بلاده وما فعلته انجلترا بالشعوب الأخرى، كان يرد قائلا إنها الآن هى ليست كذلك. فانجلترا ليست سوى جزيرة صادف أن رغب الآخرين فى تعلم لغتها. لكن هل يعتبر هذا الدفاع كافيا؟ انه لم يوفق دائما فى إقناع أصدقائه السودانيين.

ما الذى يفعله هذين الاثنين هنا على أية حال؟ كيف يعيشون هنا، بهذا الأسلوب وبتلك الطريقة؟ قال نيكلسون أنه يتمنى أن يعم السلام إمارة راس الصرة. هل فعلا يرغب هذا الرحل بحلول السلام يوما هنا؟

ألا يحس بأن إصبعه متشوق دائما إلى لمس زناد بندقيته؟. بأى حق يتسيدون هكذا على أناس رأس الصرة؟ فكر فى بتول والأستاذ شكرى فى داخلية البلاد وإبراهيم المنهمك فى حفظ الأبجدية الإنجليزية هناك فى منزله. هل يمثل هؤلاء الناس أى تهديد لأحد؟ هل ينشر هؤلاء تهديدا لأحد؟ إلا أنه بلا شك، هناك شخص ما - شخص عملى - هو ذاك الذى فجر محطة الكهرباء. أخذ بيتر يحدق فى كأس الخمر، لا يدرى فيما يفكر فيه. ثم ركز نظره فى عينى نيكلسون الزرقاوين.

- حسنا، لقد أعطيتنى القدر الكافى من المعلومات التى تدعو للتفكير يا مستر نيكلسون، أقصد يا سيمون.

- هذا واجب على يا بيتر.

ثم تحدث قليلا عن ظاروت، وهى القرية التى سوف يزورها بيتر فى الغد. ثم تحدثا عن ويلز. تحدث نيكلسون عن البريطانيين الناعمين الذين ينقصهم قدر كبير من الشجاعة الخلاقة، وأبدى أمنيات حارة أن تتمكن مسز تاتشر أن تجعل تلك البلاد جديرة بسكنى السادة والنبلاء مرة أخرى. شرب بيتر كأسه الثالثة وأبدى ملاحظة مفادها - كما عبر عنها الكاردينال نيومان يوما - أن النبيل هو ذاك الذى لا يتسبب فى أذية الآخرين. حل الصمت على نيكلسون، بينما بدت مظاهر عدم الارتياح على وجه هيبورث وأخبرهما بأنه سوف يوصل بيتر إلى منزله.

فى المنزل، لاحظ بيتر أن إبراهيم قد استغرق فى نوم عميق وكراسته فى يده. لذا أطفأ الشمعة وغطى إبراهيم ببطانية. فكر، "بالتأكيد سوف أعلمك اللغة الإنجليزية!"

عاد إلى غرفته، خلع ملابسه ورقـد على مرتبته. تحير فى فكره وهو يحاول تحليل كل أحداث تلك الليلة، ثم قرر أن يؤجل ذلك واستغرق فى نوم عميق.

* * *

فى الصباح الباكر من اليوم التالى، مر نيكلسون بجوار منزل بيتر بينما كان هذا الأخير وكذلك إبراهيم مستغرقين فى النوم.

ساق سيارته عبر واحة بلاد سفينة ثم تبع الطريق المؤدى إلى معسكر فرقة الصحراء. عند البوابة ضغط على النفير لكى يوقظ الحارس، ثم دخل مندفعا واستقر بسيارته بجوار مقر هيبورث. دخل فلاحظ أن هيبورث مستغرقا فى نوم عميق وهو عار وبجوار سريره استقرت زجاجة ويسكى شبه فارغة بينما هناك كأس على ملقى على المخدة.

أخذ نيكلسون فى مراقبة هيبورث لفترة. يا الله، أنه شخص مشعر للغاية، هذا ما خطر على فكر نيكلسون. الشعر فى كل مكان من جسده ما عدا رأسه. لون شعره يتدرج فى ثلاثة ألوان: الأبيض، الأحمر والأسود. لم يكن منظرا محببا فى أولى ساعات الصباح. لكن نيكلسون وقف مبهورا يشاهد جسدا يسير حثيثا نحو درب الفناء. و... كأنما هو منزل مبنى فوق حافة جبل يتهادى تدريجيا ساقطا نحو السفح فى اتجاه مقبرة فى انتظاره هناك.

تقدم على أطراف أصابعه حتى السرير. بكل حذر وضع يده تحت المخدة ولمس المسدس. بكل بطء بدأ في سحبه ثم صوبه على رأس هيبورث ثم فك الزناد.

الصوت أيقظ هيبورث، وجعد من وجهه كما يفعل الطفل الذي يقرر ما إذا كان هو الوقت المناسب لأن يبكي أم لا. فتح عينيه، ما شاهده بعينيه أخرسه تماما. رأى نيكلسون بوجه باسم خلف فوهة مسدسه.

– سيمون، ماذا تفعل؟ لا تفعل!

ضحك نيكلسون من جماع قلبه وخفض المسدس قائلا:

– ها أنت في ذلك السن المتقدم وتتعلم درسا جديدا يا صديقي العجوز. لقد حصلت على هذا المسدس من تحت رأسك الصلعاء. إذا كان في إمكاني أن أفعل ذلك، إذن من الممكن أن يفعلها أي شخص آخر ويؤدي هذه المهمة.

– نعم. أعتقد أنك على حق. يجب أن أكون أكثر حذرا.

قالها هيبورث وهو يغطي جسده بملاءة مكرمشة، أضاف:

– سوف أنهض لكي أغسل وجهي. لن أتأخر سوى دقيقة واحدة. شغل ماكينة القهوة والولد سوف يكمل تجهيزها.

ذهب إلى الحمام ووقف تحت دش الماء البارد. كان يرتعش، لكن هذا لم يكن من تأثير ما قربعه من ويسكي في الليلة السابقة. لا،

لكن السبب هى تلك الرؤية الصادمة التى فوجئ بها عند استيقاظه من النوم. شعر أن منظر نيكلسون وهو يصوب المسدس على رأسه، تبدو على السطح كأنما هى نكتة، لكن هى فى الحقيقة صورة طالما تراءت له فى أحلام سوداء ليلية، أو عندما تصبح الحياة على شكل حساب مصرفى خال من الرصيد، أو شكله وهو فى غرفة عمليات مرتديا القميص المخصص لذلك، ثم يخبرونه بأن ما يحس به من ألم سوف ينتهى بمجرد موته. تخيل نيكلسون، وقد تعب منه ويدعوه بصديق الأمس ثم يصوب مسدسه ويطلقه فعلا على وجهه الدامى.

ود لو كان الماء أكثر برودة، لكن تدريجيا استطاعت المياه أن تنعشه. أخبرته تلك المياه المتناثرة حوله تدغدغه أن تلك لم تكن سوى واحدة من نكات نيكلسون، فهذه سمة غالبة فى طباع هذا الشخص. جفف نفسه جيدا ثم ارتدى روبا. نعم، سيمون فيه بعض من الجنون. أثناء اشتداد وقائع الحرب الأهلية اشتهر بأن هزله له طابع سوداوى. فى مرة من المرات أمسك بزميل سكران وبالقوة قام بختانه بمطواة سويسرية حادة، فعل ذلك لأن هذا الرجل كان مقررا أن يتنكر فى شكل "أحد الوطنيين" فى مهمة تجسس. أوه، فى منتهى السهولة يمكن أن يصبح نيكلسون مجرما دنيئا، لكن ربما عملية الختان التى أجريت لهذا الشاب قد أنقذت حياته. نيكلسون دائما ما تظهر قسوته عندما يبدو عليه أنه يصنع عملا من أعمال الرحمة. نعم، هذا هو الموضوع..الآن مشابه للماضى. فأنت دائما ما تتذكر درسا قدم لك بشكل مؤلم وقاس.

قال هيبورث:

– المفترض أن تكون أكثر حذرا وأنت ممسك بالمسدس يا سيمون، أشكرك لأنك أبعدته عن رأسى.

– اشكر حظك الطيب يا هيبورث لأنه كنت أنا الذى استولى على مسدسك وليس أحد الوطنيين الذى حضر خصيصا ليمتع نظره بالدماء المتناثرة.

قال هذا وهو يناول زميله فنجانا للقهوة.

– أنت على حق.

جلس نيكلسون على حافة السرير، بينما انهمك هيبورث فى تصفيف شعره وارتداء ملابسه الرسمية. سأل نيكلسون:

– ما هى انطباعاتك عن هذا المدرس الإنجليزى؟

– اعتقد أنه زكى، ربما هو شاذ أيضا.

– ما الذى يدعوك لهذا القول؟ لماذا تظنه هكذا؟

– أعتقد أن لديه ولدا عربيا رفيقا له فى منزله. سمعته يتحدث معه قبلما اصطحبه إلى مستعمرته. لم أتبين ماذا يقولون، لكن الرفيق كان عربيا بكل تأكيد.

– إذن هكذا الحال.

شرب هيبورث فنجانه ثم صب المزيد.

– لكن ما رأيك أنت؟

قدم نيكلسون الفنجان لكى يملأه مرة أخرى.

– بدا فى نظرى كأى بقرة إنجليزية مثالية وليس من النوع السيئ، ربما من الدرجة الثانية، لكن لم ألمح فيه أى مظهر من مظاهر النزق والطيش.

– هل تعتقد أنه سوف يتفهم ما أنت تقصده فعلا؟

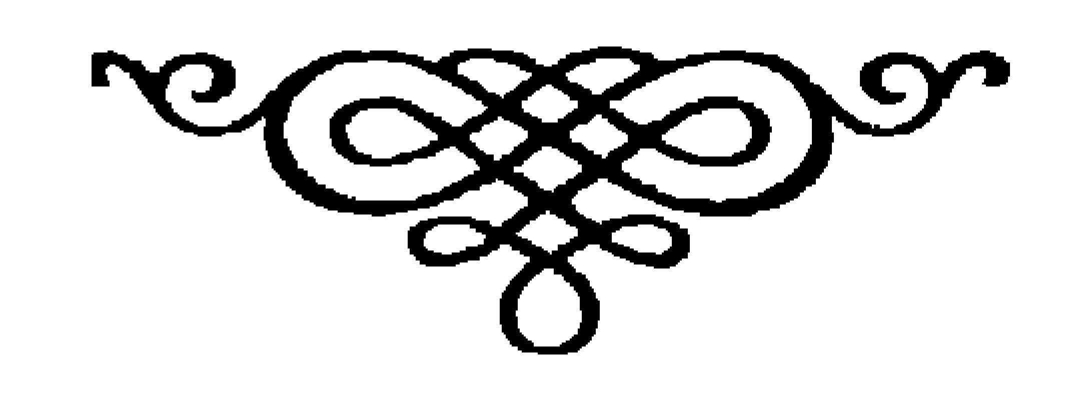
– أشك في ذلك. أعتقد أنه من الواجب أن تخيفه قليلا قبلما ينفذ بجلده، ألا ترى ذلك؟

أجاب هيبورث وهو غير سعيد.

– أعتقد هكذا.

– هذا هو السبب الذى من أجله حضرت إليك الآن. تعالى اجلس بجوارى يا كابتن، فأنت سوف تكسوك الأمجاد عما قريب!

هيبورث، بشكل غير متوقع، ينغمس الآن فى أعماق أكثر أحلامه سوداوية. اقترب من السرير وجلس بجوار نيكلسون وكله طاعة وخضوع.



(١٠)

سـأل بيـتر:

– هل أنت متأكد أنك لا تريد أن تذهب معى إلى ظاروت يا إبراهيم؟

كانت الساعة السابعة والنصف صباحا. صـحا إبراهيم قبل بيتر وجهز الإفطار المكون من بقول معلبة وخبز وشاى. أكلا سويا، مستخدمين أرض غرفة المعيشة وقد فرشت قماشة على الأرض.

أخبر بيتر عن المكان الذى سوف يقصده، سأله عما إذا كان راغبا أن يصاحبه، لكن إبراهيم رفض بشكل قاطع ومقتضب. بعدها حاول بيتر أن يعرف أكثر عن إبراهيم، من أين أتى، ما الذى يفعله فى سفينة، ما هى خططه المستقبلة؟

لكن فى مواجهة كل سؤال، كان إبراهيم يهز كتفيه، لذا يئس منه بيتر.

– ربما تخبرنى عندما يمكن لك أن تتحدث بالإنجليزية.

ابتسم إبراهيم وأومئ رأسه موافقا.

استغرق بيتر خمسة عشر دقيقة لكى يراجع ما كتبه وحفظه إبراهيم بالأمس. لاحظ أن الفتى قد تذكر كل شيء. الكراسة الآن نصف ملآنة بالحروف. فكر بيتر بأن الوقت قد حان ليدربه على الحروف المتشابكة. مع ذلك، تراجع، فسوف تصل الكتب الإنجليزية عما قريب من العاصمة، لذا قرر أن يعطيه كتابا أو تثنين ليتدرب فيهما، أما الآن فمن المفترض أن يركز بالأكثر على المحادثة باللغة الإنجليزية.

سأل إبراهيم بينما بيتر يجمع لوازمه قبل الرحيل:

– هل سارت كل أمورك حسنة عندما تقابلت مع الرجل الإنجليزى بالأمس؟

– أعتقد كذلك. لقد سكرت عندهم.

– الخمر شيء فظيع.

– نعم، أعتقد كذلك، لكن هى أيضا لطيفة.

– ومستر نيكلسون هذا ...هل أعجبك منزله؟

بدا غريبا أن يتذكر اسم هذا الرجل. لكن بيتر تعجب لأنه أبدى هذا القدر من الاندهاش، فإبراهيم لم ينس أى شيء ذكره له.

– نعم. هو قصر رائع، هو يجعل منزلنا هذا كأنه مزبلة.

غادر بيتر وساق سيارته حتى مكتب التعليم. أثناء قيادته، بدأت ذكريات لقاءه مع نيكلسون وهيبورث تطارده، بدأ يلاحظ تلك الصخور

الناتئة بجوار الطريق، لعل أحد المتمردين مختبئ الآن خلف أحداها مستعد للانقضاض عليه وقتله. كلما عبر إحداها مكتشفا أنها بريئة مما رسخ فى خياله، تعجب عن مقدار الزمن الذى ينقضى حتى تزول هذه المخاوف من ذهنه. هذان الاثنان ليسا من المغفلين ولديهما خبرة كافية بما يحدث فى راس الصرة. يعلمان تأكيدا ما إذا كان أى مكان آمن أم لا، أيضا فإن محطة الكهرباء قد دمرت بأيد مجهولة. مع ذلك، دلته غرائزه أن بلدة سفينة آمنة للغاية، هو دائما ما يصدق غرائزه. ففى مجال تسلقه للجبال، كان يعلم جازما ما إذا كان موضع قدميه سوف يسنده أم يخونه ولم يخطئ ولو مرة واحدة.

بعدما زار مكتب التعليم مخبرا الأستاذ صديقى السودانى أنه سوف يزور مدرسة البنات فى ظاروت، قاد سيارته خلال قلب البلدة القديم. ترك خلفه سوق السمك متجها نحو القناة التى تفصل سفينة عن قرية ظاروت.

فى طريقه، كان الناس يلوحون له وهو يلوح لهم. وأمام مكتب البريد، أوقفه رئيس المكتب الأستاذ ناصر وسلمه خطابا وصله من إنجلترا. ثم بدأ فى سرد سيل من الحكايات. أثناء تبادلهما الحديث، تبخرت كل مخاوف بيتر وأصبحت كأنها فقاعات من الهواء. سأله ناصر عن مدى تقدمه فى العمل، وسر عندما علم مدى الجهد الذى يبذله بيتر لكى تصله الكتب المدرسية من العاصمة. أضاف رئيس مكتب البريد بأن يتوجب على المسلم أن يبحث عن العلم حتى ولو كان فى الصين، أضاف أن لديه ابن يشعر بالقلق بشأن مستقبله فى بلدة صغيرة مثل تلك.

ترك بيتر ناصر هذا واستمر في سيره في شوارع ضيقة ذات حوائط عالية. أهل البلدة عموما في منتهى اللطف معه. الحديث الودى الذى أجراه الآن مع الأستاذ ناصر يمكن أن يجرى مثيله في أى مكتب بريد في العالم. هؤلاء الناس يتوقون إلى تهيئة أفضل ما في الكون لعائلاتهم. إنهم أولاد عمومة لألطف الناس الفقراء في قريته بالسودان. إنهم لا يفكرون إطلاقا بإلحاق أى ضرر به. لا، إذا وجد هذا الضرر، فمن المحتمل يكون مصدره تلك المستعمرة إلى تحيط بها الأسلاك الشائكة من كل جانب، وكذلك من ذوى العيون الزرقاء.

ترك سيارته اللاندروفر بجوار مكتب الجمارك بجوار الميناء. مركب العبور كان راسيا على جانب ظاروت، لذا لوح بيده لكى ينتبه إليه المراكبى الذى كان منهمكا في تلك اللحظة في حوار مع مجموعة من الرجال كبار السن. يبدو أن المراكبى لم يلاحظ تلك التلويحات.

بينما هو في الانتظار، لاحظ أن هناك سيارة قد توقفت قريبا منه وخطت منها ممرضة شابة جميلة تلبس ردائها الأبيض. شعر بيتر بقدر من التوتر. هو لا يدرى لما تملكه هذا الشعور. تعجب، إذا قدمت نحوه وبادرته بالحديث، هل سوف يتمكن بمبادلتها الكلام بدون وجل- أم انه سوف يتلجلج؟. ألن يتصرف مثلما كان يحدث منه عندما تقترب منه أى فتاة وهو جالس في بار من بارات ويلز؟ كان ما أن تقترب منه أى فتاة لتتجاذب معه أطراف الحديث، حتى يغلبه التوتر ويبدو متمسكا بعذريته كأنما هى انف المهرج الحمراء. ثم فجأة تجده منهمكا في الحديث مع

ذات الفتاة، لكن فى أمور لا تهتم هى بها على الإطلاق. وبينما يراقب أعينهن الملتمعة، يعلم حينذاك أنه يبدو فى نظرهن كأنما هو مقلد لهيئة الذكر، لكن بلا أى روائح جنسية.

تقدمت نحوه الممرضة مباشرة وقد رسمت على وجهها ابتسامة عريضة. فى تلك اللحظة فقد الكثير من قلقه وفكر أن الأمور سوف تجرى مجرى حسنا.

- هالو، أنا جوانا مارشانت. الآن دعنى أخمن. أنت مدرس اللغة الإنجليزية.

صاح بيتر:

- إذن أنت لك وجود فعلى!

لقد سمع حديثا أن هناك ممرضة إنجليزية قد وصلت سفينة، لكنه شك فى حقيقة هذا التواجد.

- أنا بيتر درورى. أنا فى الحقيقة مدرس، لكنى أعمل هنا كمفتش.

- تفتش على ماذا؟

نطقت بهذا التساؤل بطريقة نزقة. فرجعت إليه على الفور حالة عدم الاطمئنان. شعر إلى حد ما، أنه كأنما يتعمد الكذب.

- أفتش على مدارس المنطقة الشرقية.

- هل توجد هنا مدارس؟

- أكثر من عشرين مدرسة.

سائق سيارة جوانا، وهو يحمل شنطة ثقيلة من المهمات الطبية، أتى ووقف بجوار جوانا التى قدمته إلى بيتر. هذا الرجل، واسمه "سعد" لونه أسود فطيس يرتدى جاكتة زرقاء ووجهه قاس الملامح. صافح بيتر بدون ابتسام، ثم صاح بصوت عال مناديا المراكبى الذى كان يزال منهمكا فى الحديث مع أصدقائه. تساءل بيتر:

- منذ متى أنت هنا؟

- من حوالى شهرين، وأنت؟

- نفس الفترة تقريبا. شىء غريب إننا لم نتقابل من قبل.

- نعم. لكنى أنا كنت مشغولة للغاية. دائما فى حالة عمل. هل قابلت البريطانيين الآخرين؟

- هيبورث ونيكلسون؟ نعم. إنهما مضحكين. قابلتهم الليلة الماضية فقط.

شىء فى لهجة بيتر أعطت لها انطباعا بخصوص هذين الاثنين.

- نعم. أنا أعلم ماذا تقصد. زوج من أغرب الرجال.

- نعم.

اتجه المركب نحو سفينة وسط مد بحرى شديد، لكن المراكبى لم يبدو عليه أى قدر من الاهتمام، بل أطلق الأغنيات التى وصلت لأسماع بيتر وجوانا ورفعت من معنوياتهما. الأغنية كانت عن صيد الأسماك فى المياه العميقة للمحيط؛ عن القراصنة والنساء اللاتى تركهن يبكين فى الديار. المياه الثائرة صاحبت هذا الصوت الخشن المؤثر. تنهدت جوانا:

- ها نحن فى آخر ركن من الجزيرة العربية.

- نعم. أعتقد أننا محظوظون.

هزت جوانا كتفها قائلة:

- أعتقد إننا فى المستقبل سوف نتذكر هذه الأيام ونظن أننا كنا محظوظين. لكن الآن.. الموقف يبدو... أكثر واقعية مما أتصور.

أومئ بيتر برأسه:

- لما ترغبين زيارة ظاروت؟

- لسببين، أولا لأننى سمعت بتواجد حالات للإصابة بمرض الجدرى، وثانيا لكى أبحث عن طايابا.

- طايابا؟

- نعم، هذا هو اسمها. هى طفلة صغيرة وأنها أقل من ثلاثة أرطال. لقد تم إرغام الأم أن تلد فى مستشفانا. انك لن ترى أبدا مولودة تشبه طايابا. إنها أصغر كائن بشرى على وجه الأرض. لها وجه

إنسان في الثمانين من العمر، هي عبارة عن طيات من الجلد المرتخي وليس تحته أي لحم. حسنا، لقد وضعتها على الفور في الرعاية المركزة، لكن الليلة الماضية، اكتشفت أن أحد المرضين الأغبياء قد سمح للعائلة أن تنقل الطفلة إلى بيت عائلتها. تصور؟ لذا يجب أن أبحث عن طايابا. ماذا عنك؟

- سوف أزور مدرسة ظاروت الخاصة للبنات.

وصل المركب فامتطاه كل من جوانا وبيتر والسائق. أخذ المراكبي في إنشاد أغنياته بصوته العالي طوال الطريق إلى ظاروت. غادروا المركب وساروا على الرمال الكثيفة في اتجاه القرية. قالت جوانا:

- إنه بالفعل مكان غريب.

في مواجهته شاهد بيوتا ذات واجهات عالية مبنية من الطين تتخللها أكواخ مبعثرة شيدت بالطين اللبن وأعواد النخيل. علقت جوانا:

- لعلك لا تعلم أن مياه الشرب هنا غير متوافـرة. كل نقطة يجب أن تجلب من مكان آخر. ليس هناك كهرباء أيضا، حتى عندما تم تشغيل محطة الكهرباء في سفينـة، لم تخطر ظاروت على بال أحد. ظاروت هي من عشوائيات سفينة.

ساروا وراء سور وشقوا طريقهم بصعوبة وسط الرمال. سأل بيتر:

- ماذا تظنين قد حدث لمحطة الكهرباء؟

- فتشنى! لقد زارنى هيبورث وتحدث عن المتمردين. ربما يكون الأمر كذلك، كما أظـن. أنا أعـلم أنه كان هنـاك قدر كبير من المتاعب سابقا. لكنى لا أعلم. كل شىء هنا يبدو أنه يرفل فى سلام تام.

- هذا بالضبط ما أظنه.

توقفوا أمام باب كوخ متهالك وأخذ السائق فى المناداة بصوت عال، ثم دفع جوالا فارغا يستخـدم كباب للكوخ لكى تدخـل جوانا. قال بيتر:

- أعتقد أنه لزاما على أن أغادركم.

- لا. أدخل معنا أنت أيضا. ربما تتعلم شيئا جديدا.

دخل الكوخ الذى يرفل فى ظلام دامس ورائحته أطفال ومعيز.

طايابا كانت راقدة فى ركن من الكوخ. والدها كان جالسا بجوارها ممسكا بمروحة طاردا الذباب عن وجهها. لكن لم يشاهدوا والدتها.

التقطت جـوانا الفتـاة طايابا من الأرض وأخـذت فى تنظيفها، ثم بحثت عن قطعـة من الشـاش فى شنطتهـا وغمسـتها فى المـاء ووضعتها فى فم الطفلة إلى أخذت فى مصها باشتياق.

بدا إمارات الجزع على محيا بيتر. وقع أسيرا لعينى طايابا البالغة الاتساع وسط وجه دقيق وعجوز للغاية. بعض الأطفال اقتحموا الكوخ

وأخذوا يضحكون من المنظر، بينما طايابا تتجول بأنظارها بينهم يبدو على أساريرها قدر كبير من الاهتمام، لكن بمسحة حزن أيضا، كأنما هى أميرة سجنت داخل إطار من الجسد الدقيق الغريب. سمع بيتر صوت موج البحر وهو يتكسر، أحس فجأة بشعور من الضياع والحزن.

- إذا استطعنا أن نحفظها بعيدا عن العدوى والمرض، ربما تنجو. إنها فى الواقع نموذج رائع بالرغم من نقص نموها الغريب.

نظرت جوانا نحو بيتر الذى بدأت عيناه تدمعان، لذا أضافت:

- يكفينا طفلا واحد ! شكرا!

ثم استعدت لإعطاء حقنة للطفلة.

- أريد أن أعـرف أين والدة الطفلة تلك اللعـينة. أريدها تكون حاضرة معنا هنا.

سأل بيتر الأب باللغة العربية. هذا هز كتفيه وأخبره بأن الأم قد ماتت أثناء الليل - صوته كان محايدا ولا يبدو عليه أى أثر للحـزن وسرد ذلك بشكل واقعى تماما.

أخبر بيتر بهذه المعلومات، فأمسكت هى بيد الطفلة التى تشبه المخلب قائلة:

- يا لها من طفلة مسكينة.

أعطت جوانا الطفلة الحقنة ولم يصدر منها أى بكاء. ثم فكرت فى دموع بيتر، إنها طبيعية للغاية. قبل شهر أو شهرين، كان من الممكن أن تفعل مثله وتنخرط فى البكاء، لكن هى الآن أكثر صلابة. لقد حضرت لكى تنظف راس الصرة، أن تهاجم أمراضها وتقصقص عيوبها بمهارتها وشخصيتها. كانت تدرك أن التقدم هو عملية صعود لسلم، لكن دائما تلاحظ أن الصاعد ينظر خلفه لكى يتأكد أنه قد تجاوز السلمة الأولى فعلا. فى دموع بيتر شاهدت نفسها وأعجبت به بسبب هذه الدموع. إنها لا تعرفه من قبل، لكنها رأت منه الكثير مما جعلها فى شوق أن تعرف الأكثر عنه.

بيتر دروری، من جانبه، تأثر للغاية بجوانا. رآها وهى تمسك بالمولودة طايابا بكل حنان وتخرج بطانية صغيرة من شنطتها تلفها بها - فكر أنه شىء لطيف أن تلتقط جوانا إنسانا وتعتنى به - لكنه فكر، تأكيدا هناك رجل ما هى تعتنى به، وحتى إذا لم يكن، لم يتخيل أبدا أنها من الممكن أن تنجذب إليه، فالنساء عموما لا يملن إليه. فى الأكواخ الجبلية وأثناء العطلات الرسمية وتسلق الجبال كان هو زهرة الرجال، دائما ما يتسامر معهم، لكن غيره يستطيعون فعل أمور عجيبة وهم فى خباء خلف الأرائك. تبدو الفتيات فى منتهى السخافة عندما يتحدثن معه. يتعجب ما إذا كن يجدن فيه شيئا ما لا يدرك كنهه. إذا حدث هذا فعلا، كم ود لو أعلموه بذلك. لكن، بالطبع، لم تخبره إحداهن بشىء.

قالت جوانا لبيتر بينما ظهرها إليه تهدهد طايابا:

– أخبر الأب بأننا سوف نحملها معنا إلى المستشفى. لا يمكن بأى حال أن تبقى هنا، ليس لديها أى أمل أن تعيش هنا.

أخبر بيتر الأب بذلك، هذا أبدى أقل اهتمام بذلك، بينما طايابا تحدق فى عيون بيتر الدامعة كأنما هى تعرفه من قبل.

* * *

ترك بيتر جوانا عند الميناء، قررت هى أن تحمل طايابا فورا إلى المستشفى، وأن تعود بعد الظهر إلى ظاروت لكى تفتش على حالات الجدرى.

بعد نصف ساعة، وجد نفسه جالسا فى غرفة مدرسات مدرسة ظاروت للبنات، يتسامر بكل سعادة مع ست مدرسات – أخذن يدفعن نحوه بالبسكويت الصينى وزجاجات الببسى والشاى بحليب. أخذن يتدللن عليه بشكل برئ جعله يشعر كأنما هو نجم سينيمائى. هل هذه هى المعاملة التى يتلقاها الأزواج العرب من زوجاتهم؟ إذا كان هذا هو الحال، فهو يحسدهم تأكيدا. مع ذلك شك فى هذا الأمر.

أخيرا استطاع أن يفلت منهن وذهب إلى الفصل الذى تدرس فيه المدرسة بتول الشنرى.

تقع تلك المدرسة فى مبنى قديم من دور واحد قريب جدا من علامة ارتفاع مياه البحر. من حيث جلس استطاع أن يشاهد المحيط والقوارب وهو تعلو وتهبط بفعل الأمواج. لاحظ أن بتول كانت ترفع من درجة صوتها لكي تتغلب على صوت موج البحر الذى بدا خلف النوافذ الخالية من الزجاج.

قدمته بتول إلى البنات التلميذات، فأخذوا يحملقون فيه.

– حيوا مفتشنا العزيز يا بنات!

زعقت البنات بصوت جهورى، "صباح الخير يا سيدى، أهلا وسهلا يا سيدى".

تلوى بيتر فى مكانه.

زعقت فيهن بتول:

– الآن.. غنين يا بنات!

فانطلقت الفتيات فى الإنشاد:

"أنا س ع ي... أنا س ع ي د"

"هذا يعنى... أنا سعيد!"

"لأن نراك... نراك اليوم!"

صاح بيتر:

– أشكركم يا بنات! أوه، هل هناك أكثر من ذلك؟

"أنا م س ر و ر... أنا م س ر و ر"

"هذا يعنى... أنا مسرور"

"أن نراك... أن نراك اليوم!"

– أشكركم مرة أخرى يا بنات!

جاوبنه البنات بصوت واحد، "العفو يا سيدى".

بعدها اتكأ بيتر درورى مفتش اللغة الإنجليزية على مقعده يستمع إلى شرح المدرسة بتول لدرس عن حروف الجر. للمساعدة ثبتت ورقة كرتون قديمة على الحائط لتشرح عليها، وقد وضعت خطوطا تحت الحروف: على، فوق، بين، خلف، مجاور إلى، وجعلت الطالبات يدخلن كل حرف فى جملة.

شعر المفتش بغصة تنتهب حلقه وفكر فى طايابا. هل سوف تنجو وتجلس يوما فى فصل مثل هذا لتتعلم؟ أم أنها سوف تتحول إلى كومة صغيرة تلقى فى حفرة ترابية؟ أخذ يدعو فى سره أن تنجو طايابا.

فجأة تجمعت الدموع فى عينيه عندما وقفت فتاة سوداء تجلس فى الركن وأخطأت فى استخدام حرف الجر"فى" واستخدمته على أساس أنه "على". جرت همهمة شملت الفصل كله، لكن سرعان ما تمكنت بتول من السيطرة على الموقف، ثم بشكل هادئ أخذت تشرح الفرق بين

الحـرفين. لذا فكر بيتـر، "يا سـلام لو أتت الكتب التى أوصـيت بهـا، سوف أجعل هذه الكتب تتدفق على هذه المدارس، لن يحتاجوا بعد ذلك إلى شىء..."

أخيـرا، انتهى الدرس وسـار بجوار بتـول فى طريقهمـا إلى غـرفة المدرسـين.

– آسفة بخصوص الدرس، لكن ما الذى يمكن أن نفعله؟ لدينا أقل القليل هنا!

– أعتقد أنك كنت عظيمة.

ابتسمت بتول، وأذهلته هذه الابتسامة. ثم، ربما أدركت أن ابتسامتها أجمل وأقوى من قدرة احتمال رجل انجليزى مفرط فى الطول، لذا غطت فمها بيدها السوداء.

أدار بيتر وجهه وأغمض عينيه. شاهد ابتسامة بتول خلف جفونه، مثلمـا يطفئ الإنسان النور ليـلا لكنه مع ذلك يشـاهد النور مـرتسمـا فى عينيه.

نظر إلى بتول قائلا:

– الكتب! سوف أحضر لكم الكتب!.

كان هذا وعده الأكيد.

* * *

عندما عاد بيتر إلى مكتب التعليم، كان الوقت قد حان للعودة إلى المنزل. شعر أنه فى حاجة لنوم عميق، فالكحول الذى احتساه الليلة الماضية بدأت آثاره تعمل، لكن وهو داخل إلى مكتبه وجد ورقة ملتصقة على الحائط مكتوب فيها، "الكتب وصلت، التوقيع: أحمد".

صاح بيتر جزلا واندفع سريعا إلى مكتب أحمد الذى يقع فى آخر الطرقة. الأستاذ أحمد هذا كان يرتدى جاكتة ذات خطوط عريضة على بنطلون بخطوط طولية. ما أن شاهد بيتر حتى أمسك بيديه وحياه بحرارة ودفعه ليجلس، ثم صاح، "ربيع!"، وهو العامل الذى بصنع لهم الشاى والقهوة. ظهر هذا مسرعا فطلب منه أحمد فنجانين من الشاى. ربيع هذا لا يظهر أبدا إذا نادى عليه بيتر. كان هذا الأخير من المعجبين بأحمد، وزاد إعجابه عندما قال أحمد، "أخيرا، كتبك وصلت. أنت محظوظ يا بيتر. لم تصلنا أى كتب للعربى أو الجغرافيا أو التاريخ، لكن كتب اللغة الإنجليزية هى الوحيدة التى وصلت".

– أخبار عظيمة. أين هى؟

– فى مخزن الكتب. أتت هذا الصباح. هل أنت صديق للأمير؟

نظر إليه إبراهيم مستفهما. أضاف أحمد:

– أعتقد أنك كذاك!

– لا بالطبع. أعتقد أنه مجرد حظ.

عاد ربيع محملا بصينية الشاى، خلفه دلف شاب فى الثلاثينيات من عمره يرتدى قميصا وبنطلونا لكنه يعتمر على رأسه غطاء راس الفدائيين ذا اللون الأزرق والأبيض.

وقف ينصت إلى حديث بيتر وأحمد، ثم أمر ربيع أن يحضر له كوب من الشاى، بعدها ابتسم قائلا:

- هل وعيت الدرس؟

الأستاذ أحمد الذى كان يتحادث بالإنجليزية مع بيتر سرعان ما عاد إلى اللغة العربية:

- هذا هو مستر عيطى، هو يعمل مهندسا.

جلس الثلاثة، وما أن وصل فنجان شاى عيطى حتى غادرهم ربيع. قال احمد بالإنجليزية، وهو ينظر يمينا ويسارا كأنما هو ولد يلعب بلعبة رص المكعبات:

- نحن فى سجن هنا فى رأس الصرة. عائلتى بعيدة عنى وأنا أعتبر هنا خصيا. كنا نملك فى بلدنا أراض شاسعة، لكن الإسرائيليين حولوا أرض عائلتى إلى عمارات وشقق. لا تثق بالمصريين يا عزيزى. كلهم عبارة عن ثعابين بين الأحراش أو فلاحين. ناس راس الصرة ليسوا سيئين. هم من البسطاء وخام إلى حد ما. نحن هنا موجودين لنساعدهم.

قال عيطى بلغته الإنجليزية المكسرة:

- هل وعيت الدرس؟

قال أحمد:

- لا تأخذ بالك من مستر عيطى هـــذا. هـو غــاوى إلقــاء النكات. لا يعرف من الإنجليزية سوى هذه الجملة.

صاح بيتر باللغة العربية:

- لكن هذه الجملة رائعة النطق.

قال عيطى بكل فخر: هل وعيت الدرس؟

نظر بيتر إلى ساعته، انتهى من احتساء فنجان الشاى ثم أخبرهما بأنه فى حاجة لأن يرى الكتب الجديدة. احتج كلاهما بأن زيارته كانت قصيرة للغاية، لذا جلس بيتر مرة أخرى. سـأل عما إذا كانت هناك أى أخبار تختص الأستاذ نصراوى. قال أحمد بنبرة ساخرة:

- لا أخبار، إذن تلك أخبار حسنة.

لذا لم يتـابع بيتـر تسـاؤله. فكر انه ربما هناك بعض الحـزازات والاختلافات بين الأخوة العرب. قام ليغادر، فاحتجوا مرة أخرى واحتجوا بأن الوقت ما زال مبكرا على ذلك. لكن هذا ما يفعله الجميع عندما يعزم أحـدهم أن يغـادرهم. تجـد المضـيف يصـيح بكل الأسى، "بس بدرى!". فيجيب الضيف، "بدرى من وقتك". ثم يسرع بارتداء صندله الذى تركه عند البـاب.

غادر بيتر متعجبا عما إذا كان فى امكانه أن يتحدث مثلما يفعل العرب. الحوار هو أعظم أشكال للتعبير لديهم، مماثلا لأراضيهم، فإنها لا تستقر أبدا على حال ويصعب قياسها بدقة، فهى دائما ما تطير أدراج الرياح.

مقر مخزن الكتب يعتبر بعيدا إلى حد ما. يبعد عن مستعمرة نيكلسون بمقدار ٢٠٠ ياردة ويقع على الشاطئ أيضا. عندما وصل بيتر، لاحظ أن هناك حارس واحد يحرس المخزن، هذا الشخص ما أن رأى بيتر حتى فتح باب المخزن طائعا، ولاحظ أن المفتش قد شمر ساعديه مستعدا لتصنيف الكتب الجديدة.

استغرق الأمر ثلاثة ساعات من بيتر والحارس كى يرتبوا ويضعوا الكتب فى أكوام متجانسة. سر بيتر مما أنجزه وغمره الحبور وشعور حلو بسبب الجهد الذهنى الذى بذله فى عد الكتب بكل عناية وحرص. جميع الكتب كانت ذات ألوان جذابة عرف إنها سوف تبعث السرور فى قلوب التلاميذ. تخيل نفسه وهو يحمل هذه الكتب ليوزعها على تلاميذ كل مدارس المنطقة الشرقية، وكيف سوف يكون مقدار السعادة والترحيب عندما يتسلمون كتاب"الإنجليزية الحية للعالم العربى، "تأليف حامد وديفيد".

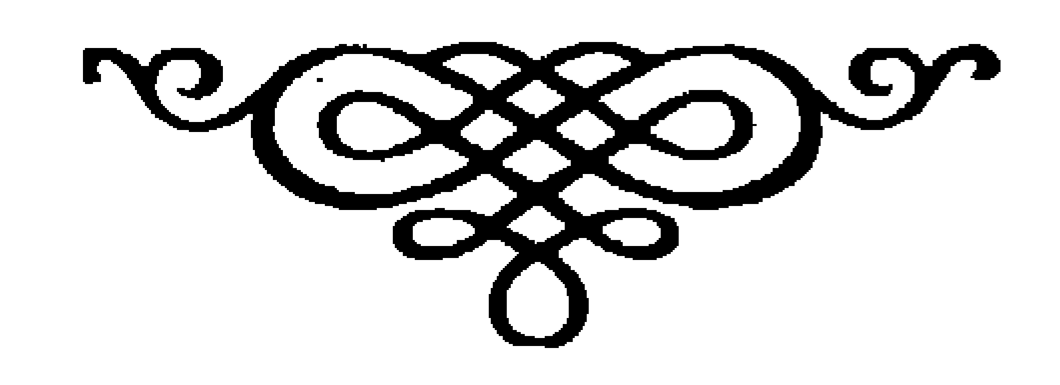
حوالى الساعة الرابعة ظهرا انتهى من عمله. باقى موظفى المخزن حضروا الآن بعد قضائهم فترة الظهيرة واندهشوا مما شاهدوه من إنجاز. أخبرهم الحارس واسمه "عثمان" عما فعله بيتر من جهد مثمر

وأخذ يقلد حركاته من رفع وعد وحمل. أخذ يبتسم لبيتر داعيا إياه"بأخيه"، أخيرا حضن بيتر ثم رفعه من الأرض مخبرا إياه أنه رفيع للغاية.

بيتر من جانبه، كان فخره بلا حدود بما أنجزه وتأثر من ثناء الحارس. كان هذا عملا مجيدا فى الحقيقة. لا يظن هو أن هناك عمل فى العالم بأثره أنجز بتلك الحرفة والدقة مثلما فعل هو فى ذلك المخزن الذى يقع فى سفينة بالمنطقة الشرقية التى تقع على الشواطئ الشرقية من بحر العرب.

وما يزال العرق ينضح من جسده، ساق بيتر سيارته وفى جيبه ورقة جرد الكتب، عالما أنه فى الغد سوف يبدأ فى توزيع الكتب.

أيضا أخذ معه عدد من الكتب الإنجليزية المختلفة لإبراهيم. فهو أول طالب فى رأس الصرة ملتحق بالدراسات المسائية.



(١١)

سمع نيكلسون أن الكتب قد وصلت قبل أن يصل هذا الخبر إلى آذان بيتر، فهو لديه رجل فى مكتب التعليم ينقل إليه كل أخبار هذا المكتب أولا بأول نظير جعل أسبوعى، وهو غالبا ما يحس بالتثاؤب يغلبه وهو يستمع إليها، لكن اهتمامه زاد عندما سمع بوصول الكتب.

قال لنفسه، "هذا بالتأكيد سوف يبهج صديقنا بيتر دروى"

ترك مكتبه ظهرا وخرج للفراندة واستعرض بناظريه مخزن الكتب. إنه لم يعجب أبدا بهذا المبنى المغرق فى اللون الأبيض. ابتسم وفكر فى هذا المبنى، هو هدف سهل للغاية، حتى هيبورث يستطيع فعل شيئا بشأنه.

أثناء تناول الغذاء، تعجب نيكلسون وتساءل فى نفسه لماذا هو مختلف عن كل الناس. هو لا يتشابه فى شىء تقريبا مع صفات معارفه، أما هيبورث فهو أقل شانا من أن يحتقر. أما دروى هذا فهو ممل ومقرف، من نوعية المدرسين الجنوبيين وعلى شاكلة أحقر الكلاب.

ما الذى ينقص هؤلاء الأناس ويوجد بوفـرة عنده هو؟ أخذ يتـدبر فى هذه المسألة بينما يحتسى كأس البورت فى نهاية غذاء فاخر.

فى طفولته تلقى التعاليم المسيحية المعتادة التى شجعه عليها والدين من الطبقة الوسطى، وهو الطفل الوحيد لهما. لقد أحس منذ بداية نشأته أنه مختلف عن غيره. استمع إلى قصص خيالية لكنه كان يعلم إنها عبارة عن أكاذيب وخداع للأطفال. بالطبع هو لم يخبر من هم أكبر منه سنا من أنه لا يسايرهم فى توجهاتهم، هكذا كان الحال أيضا بالنسبة للدين والتدين. لقد ركع متذمرا بين والديه أمام الهيكل، لكنه كان على يقين كامل أن كل ما يخترق أذنيه ليس سوى خداع وكذب محض.

عندما نما فى الجسد والعقل، رأى أصدقائه وهم يرفضون التعاليم المسيحية، لكن، وهذا ليس مفهوما بالمرة من جانبه، تمسكوا كثيرا بالمبادئ الأخلاقية التى مصدرها الدين، لكن هذا لا يصلح لشخص مثل نيكلسون. على أية حال، إذا تخلص الإنسان من المولود، فلما يهتم إذن بغسله؟، وليس هذا فقط، بل وقد يعتبر ماء الغسل هذا كأنه أيقونة؟ يا للعجب!

عظماء العالم، الحكام، رؤساء المؤسسات الناجحة، لصوص القطار العظام، أقزام زيورخ، مغنى البوب، المتاجرين فى الفن، كل إنسان توفرت له الإرادة والميل إلى النجاح، لديهم جميعا مقصد واحد. لقد سلكوا جميعا طريقا معينا يعتقدون أنه "جيد"، مناسب ونافع. لقد احتضن هو هذه الفلسفة وعندما اختبرها وجدها صحيحة تماما. إذا شدد

الإنسان من نفسه فإنه سوف يبرز وينجح، لكن على المرء أن يأخذ حذره تماما من تدخل "الرقة فى المعاملة" وما يسمى "بالإيثار" و "التعاطف". هذه الصفات ليست سوى المشنقة التى تعلق عليها عظماء ونبلاء.

بعد الغذاء، تحادث مع هيبورث من تليفون الراديو وأخبره بأن يحضر إليه سريعا. هيبورث وقد انزعج قليلا سأل لماذا.

– لدى مهمة صغيرة سوف تؤديها لى.

قالها نيكلسون بطريقة جافة للغاية.

* * *

وقف عثمان، حارس مخزن الكتب فى الظلام أمام الباب الرئيسى للمبنى وقد امتدت أمام قدميه سجادة صغيرة متهالكة للصلاة فى اتجاه الغرب. رفع يديه نحو وجهه ثم انحنى، بعدها ركع حتى مست جبهته السجادة.

كانت تلك هى آخر صلاة خلال النهار، هو لا يفوت واحدة منها. فى الحقيقة هو لا يتذكر يوما أنه نسى أن يؤدى فرضا للصلاة.

وقف وشفتاه تتحركان بتلاوة آيات من القرآن الكريم.

ثم عاد إلى انحناءاته وركعاته.

ربما يكون قد ارتكب أخطاء فى حياته، لكن الله يفهم لما فعل هذا أو ذاك – بل وتوقع حدوثها – وسوف يغفرها له طالما هو أمين وصادق ومخلص إليه حتى الموت. على أية حال، الخطيئة الآن هى وراء ظهره، كأنما هى من أفعال شخص غيره. قبل أن تستقر به الأحوال، كان هو بحارا، طالما تعرض لإغراءات الخطايا فى الموانئ مثل بومباى، زنزبار وموانئ بوغاز ملقا. لم يكن أبدا محصنا ضد إغراءات النساء المتهتكات اللاتى يطاردن البحارة فى الموانئ المختلفة. لقد وقع فى خطايا متعددة، لكن هو على علم يقين أن الله سوف يغفر له الذنوب. هو زوج عادل وأب يهتم جيدا بأولاده. أبدا لم يقرب الخمر أو حتى يدخن الحشيش. هو لم يفطر يوما فى رمضان؛ لم يجاهد ليكشف الأسرار التى هى فى حوزة الله وحده. إن الله لن ينظر كثيرا نحو ضعفاته وهناته، هو يرجو رحمة الله ويرضخ كلية لمشيئته، والتسليم بمشيئة الله هى أولى واجبات المسلم الصحيح. ألا تعنى كلمة إسلام سوى التسليم لإرادة الله ؟ عندما أنهى عثمان صلاته، قام بتطبيق سجادة الصلاة بكل حرص ودخل بها إلى غرفة مكتب صغيرة منارة بلمبة جاز، بكل حرص وضعها على رف ثم رجع إلى الباب الرئيسى وأخذ يتأمل البحر. رأى قوارب "سفينة" وهى راسية عند مدخل الخور، فهز رأسه بأسى. لم يعد الحال كما فى السابق. أين هذه القوارب الجميلة الشكل التى أعطت سفينة شهرة مدوية، الآن قد استبدلت ببواخر مكسوة بالحديد تنقل المنتجات التى تحتاجها الإمارة حتى الميناء الجديد فى العاصمة، أما القوارب الفخيمة القوية، فقد اقتصر دورها فقط على أداء المهام الساحلية وجلب البضائع من العاصمة.

يعرف هو كثيرا من الربابنة الذين يتعرضون إلى الموت البطىء وهم يبحرون جيئة وذهابا على نفس الخط الساحلى، لذا فإن الملل الذى يخلقه عدم التغيير يؤدى إلى قتل روح شعبه. الثروة الجديدة التى هى مصدرها البترول دمرت الثروة القديمة وهى صيد الأسماك. كرات القار دمرت الشباك وسممت الشواطئ، أيضا عرضت الناس للأمراض والإصابات. أولاد بلده الذى يريدون اقتناء أشياء لم يحلم بها طوال عمره، يرغبون فى الرحيل لانتهاج الحياة السهلة اللذيذة.

مرة اصطحب هو زوجته إلى العاصمة، هناك رأى الكثير. أراد أن يخبئ عينا زوجته، ليس لكى لا يراها أحد، لكن لكى يحميها من المناظر التى تمر بها. كان عليهما أن يتفاديا بصعوبة تلك السيارات المسرعة التى يقودها عرب وأجانب. شاهدوا عربا يحاولون تقليد الأجانب فى معيشتهم؛ قصور الأمير؛ المبانى الحكومية الحافلة بالمظاهر الكاذبة. إنه لا يفتخر بتاتا بتلك التجديدات. أراد أن يغادر العاصمة بأسرع وقت ممكن. لم يعجبه هذا المكان. الطعام هنا طعمه سيئ، شعر أن مواطنيه القاطنين فى منطقة العاصمة يفقدون أرواحهم ذاتها. ثم، فى آخر يوم إقامة له هناك، رأى قاربا من قوارب "سفينة" على طريق جانبى، موضوعا على قاعدة كأنما هو صورة منحوتة، نوعا من الزينة. فما الذى يفعله هذا القارب وهو محبوس هكذا داخل البلاد؟ لاحظ أيضا أن أخشاب القارب مشققة ولونها رمادى. هز رأسه وأسرع بالعودة إلى "سفينة" بأسرع ما يمكن.

أثناء الحرب الأهلية، ظل هو هادئا، لكنه سرا كان يعضد الثوار. كانوا عبارة عن مسلمين صالحين يحاربون الفساد المنتشر فى رأس الصرة. كان له أصدقاء، أكثر جرأة من مساندة الثوار الأحرار، هؤلاء سرعان ما اختفوا من الوجود. شباب اختفوا فجأة من سفينة ولحقوا بالثوار فى الجبال. هم جميعا إما ماتوا أو نزحوا إلى الخارج. هو دائما ما يذكرهم فى صلواته.

حاليا تسير الحياة فى هدوء شامل. الحراس كانوا يحدقون فى مستعمرة نيكلسون ويلعنونه. هو ما يزال يطارد أى إنسان يبدى أى قدر من المعارضة للحكومة، إلا أن النجاح لم يصادفه كثيرا، لأن الناس تعلموا كيف لا يعبرون عن مشاعرهم الحقيقية.

الدمار الذى لحق بمحطة الكهرباء أغضب عثمان. هذا يعنى أن هناك من لم يقبل حتى الآن ذلك النظام الحديث. لعل هناك أمل يلوح فى الأفق. إنه لم يسمح لزوجته أن تبتاع أى لوازم حديثة، وقد برهن بذلك أنه كان على حق - هو بجماع قلبه يود لو زال عنهم أى حكم جائر، كما زالت عنهم محطة الكهرباء.

مع ذلك، وبالرغم من ذلك، شاهد هذا الصباح ذاك الإنجليزى وهو يعمل بكل جد واجتهاد داخل المخزن الملتهب حرا وهو يصنف الكتب ويرتبها. كيف كان يفعل ذلك! كان يعمل كما لو أن هؤلاء التلاميذ هم من أبناء جلدته أو هم أبنائه وليسوا أولاد الغرباء. وكم كان رفيع القوام! أى نوع تلك الزوجة التى تترك زوجها بهذا القدر من النحافة؟ لا،

هو نوع مختلف من الإنجليز. إنه إلى حد كبير يشبه الرئيسة آن مارى في المستشفى. هى لها طبع جنوبى وقفزات ولا حتى الظبى الجموح، لكن قلبها طيب، هكذا هو المفتش الإنجليزى، الحريص بشغف نادر على مساعدة أطفال سفينة...آه، أصبحت الحياة حاليا مربكة، لا تشبه من قريب أو بعيد الأيام الخوالى.

وقف الحارس خارجا فى الظلام محاولا أن يركز فكره فى أمور أخرى. ابنه يريد أن يهجر مهنة صيد الأسماك وأن يرحل إلى العاصمة. كان عثمان يعارض ويحاول تثبيط همته، لكن يظهر أنه سوف يفشل. الآباء حاليا يفقدون سلطانهم على الأبناء فى سفينة.

* * *

زحف هيبورث فى الظلام فى محاذاة الشاطئ المؤدى إلى مخزن الكتب قابضا فى يده زجاجة بها خليط مولوتوف. كان يشعر بالخوف مما هو مقدم عليه، لكنه كان أكثر ذعرا مما لو لم ينفذ ما كلف به. لقد أخبره نيكلسون عن تفاصيل ما يتوجب أن يفعله، قال إنه يعتبره الآن شريكا وأن عدم استكمال الخطة التى اشرف عليها كليهما سوف تكون وخيمة العواقب.

وقف مكانه محاولا أن يضبط أنفاسه، هذه على كل الأحوال ليست سوى عملية أخرى، وما سوف يصنعه ليس أسوأ مما فعله قبلا.

إنه فقط قد استكان فعلا لحياة الدعة والسكينة واختار الحلول السهلة. نيكلسون بالتأكيد على حق، عليه أن ينظر إلى ما يفعلانه كنوع من المحتم والضروري.

استطاع هيبورث أن يحدد شكل المخزن الذى أمامه. صعد من الشاطئ وأخذ يزحف بطيئا تجاه المخزن. أخذ يستجلى المكان حوله، لكن لم يشاهد أحدا. وضع يده فى جيبه وأخرج ولاعة دنهيل وأشعل فتيل الزجاجة المولوتوف ثم ألقى بها خلال نافذة المخزن. تهشمت الزجاجة وانفجرت وسط كتب بيتر دروري للغة الإنجليزية. فجأة استيقظ الحارس وشاهد اللهب المشتعل فى الداخل كذلك رأى شكل هيبورث فى ضوء النار فوقف صارخا وأسرع وراء هيبورث.

لم يتحرك هيبورث من مكانه. أحس بصدمة من المفاجأة. الإثارة جعلته ينسى تماما موضوع الحارس. وقف ساكنا فى مواجهة الحارس الذى أخذ يصب عليه اللعنات بلغة عربية زاعقة، ثم رفع الحارس ذراعيه لكى يضرب هيبورث.

حاول ذاك أن يحمى ذاته من ضربات عثمان. شعر الحارس بالصدمة من أقدام ذلك الإنجليزى بحرق المخزن. اللهب أخذ فى الانتشار سريعا بينما يسائل الحارس بينه وبين نفسه عن الأسباب وهو يوجه لطمات متتالية لهذا الأجنبى.

حاول هيبورث أن يتفادى الضربات. فكر، يا له من عجوز غبى. تمكن هيبورث من عنق الحارس وأخذ يضغط بقوة حتى جحظت عينا

الحارس وبرزت من محجريها وبدأ صوته يتحشرج، ثم سمع هيبورث أصواتا مصدرها مستعمرة نيكلسون وعلم أن عليه الإسراع بالهرب. هو يعلم أن نيكلسون واقف فى الفراندة يراقب النار المشتعلة. يجب أن لا يضيع أى وقت آخر. سوف يتجمع الناس حالا. استخدم يده الأخرى فى استكمال خنق الحارس. بينما يجاهد هذا الأخير مأساته، كان يدعو الله أن يرى بذاته ما يحدث الآن ويسجله. قبلما يغيب عن الوعى، تعجب من إقدام رجال الحكومة على تدمير أملاك الدولة– لم تعد الحياة مفهومة، لما الكتب بالذات؟ الكتب عموما مقدسة....

تركه هيبورث وشعر براحة عميقة وهو يرى الرجل يقع على الأرض كأنه شوال من البطاطس. تذكر المدية التى أعطاها له نيكلسون، لذا أخرجها من جرابها راغبا أن يغمدها بين ضلوع الحارس، لكنه فوجئ بصوت جرس مدو، لذا تردد قليلا وأعاد الخنجر إلى جرابه.

جرى هيبورث نحو الشاطئ ورمى نفسه فى مياه البحر السوداء وأخذ يعوم مبتعدا. على بعد ٣٠٠ ياردة استطاع أن يشاهد النار وهى تزداد اشتعالا. الماء كان دافئا. لاحظ أنه يحتل أفضل موقع يستطيع منه أن يراقب وليمة النار. سوف ينتظر فترة فى مكانه هذا ثم يعود قافلا إلى مستعمرة نيكلسون متسللا تحت الأسلاك ويأخذ دشا هناك. بالتأكيد سوف يقدم إليه نيكلسون برميلا من الخمور المعتقة ليحتسيها.

هيبورث وهو غاطس فى المياه راقب نتيجة فعله وأحس بالانتعاش.

* * *

إبراهيم كان منشغلا بما يكتبه عندما عاد بيتر فترة ما بعد الظهر، فقام على الفور بتجهيز الغذاء وهو من السمك أيضا الذى شواه على النار بجوار الباب الرئيسى للمنزل.

انتظر بيتر حتى انتهى من تناول الطعام قبل أن يقدم له مجموعة الكتب التى جلبها معه من مخزن الكتب. سر إبراهيم وفى الحال بدأ فى تصفحها وطلب أن يقرأ منها.

- لا يا إبراهيم من فضلك. أنا فعلا تعبان! دعنى أنال قدرا من النوم ثم بعدها أكون مستعدا لتعليمك.

كان الظلام قد انتشر عندما ذهب إلى غرفة نومه وارتمى على المرتبة. بدأ الأمر غريبا وشاذا أن يستريح فى هذا الوقت من اليوم. تحير، هل سوف يأتيه النوم عندما يحين وقت النوم الحقيقى. مع ذلك، إذا لم يواته النوم، من الممكن أن يقرأ. عادة القراءة أصبحت نادرة منذ حضوره إلى رأس الصرة. بدأ فى قراءة كتاب "تسلق الجبال" بينما هو لم يستكمل بعد قراءة كتاب "الأصغر هو الأجمل". يصعب عليها الآن أن يستقر لكى يمارس هواية القراءة.

بينما هو راقد، فكر فى مجموعات الكتب الموجودة فى مخزن الكتب. شىء جميل أن يفكر فيها وهى فى انتظاره لكى يقوم بتوزيعها صباح الغد.

أيقظه إبراهيم بعد حوالي الساعة. أتى ممسكا بلمبة جاز في يد وكراسته في اليد الآخر. احتسيا الشاي ثم جلس بيتر ليعلمه. هذه الليلة ركز على موضوع الأصوات باللغة الإنجليزية. مما حير إبراهيم أن الحرف الواحد قد يكون له أكثر من صوت؛ وإن استهجاء الإنجليزية يبدو أنه يعتمد على السليقة أكثر من المنطق.

أحس بيتر بالتعب من مداومة التعليم بينما لم يكن هذا إحساس إبراهيم. شعر بيتر أن هذا الشاب يعتبر فلتة زمانه، فلم يحدث أن تفوق التلميذ عن أستاذه، لقد زاد هذا المدرس من الوقت المحدد للشرح آملا أن يشعر الفتى بالتعب أو الإرهاق، لكن بلا فائدة، فدائما ما يكون هو بيتر الذي يبدأ برفع راية الاستسلام - عندما يحدث هذا، بدلا من أن يفرز عرقا مملحا تجده قد أفرز حروفا وكلمات!

مرة أخرى فتح موضوع ماض إبراهيم وخططه للمستقبل. في البداية كان الشاب متحفظا ويقول إنه يظن أن هذه الأمور من الممكن أن تنتظر حتى يسردها باللغة الإنجليزية، لكنه الآن بدأ في سرد قصته على أسماع بيتر.

تحدث أولا باختصار ولم يتبحر في وصف مشاعره وسط ما مر به من أحداث، لكن بيتر شعر أنه قادر على استنتاج ما بين السطور. هي قصة حزينة تلك التي سردها إبراهيم. يعلم بيتر الشيء الكثير عن عادات المجتمعات العربية بحيث علم أن هذا الشاب قد اتخذ خطوات

واسعة سوف تحرمه كلية عن عالم قريتـه وبيئته. شعر بخوف وخشية وهو يستمع لإبراهيم وهو يحكى قائلا:

– أخبرنى أبى أنه يلـزم أن أتـزوج وحضر كـل لـوازم الفرح. من جانبى لم أنطق بحرف، لكنى أسرعت بالهرب وعدت مرة أخرى إلى سفينة.

أنهى إبراهيم قصته بهزة كتف.

أراد بيتر أن يستفهم عن أمور عديدة، فهو لا يعرف حتى الآن شيئا عن خطط إبراهيم المستقبلية. أراد أيضا أن يسأل عن مشاعره وأحاسيسه بالنسبة لمخدومه السابق نيكلسون، لكن "لا إنسان يعتبر بطلا فى عين خادمه!" وإبراهيم من الممكن أن يدلى بدلوه فى هذا الموضوع الشائك. مع ذلك، كل هذا من الممكن أن ينتظر لوقت آخر. لم يتوقع أن يصل إلى جوهر المسائل كلها هذه الليلة. هذا الموضوع قد فتح ومن الممكن أن يعاد الخوض فيه لاحقا فى وقت آخر مناسب. قال بيتر:

– حسنا، على الأقل لدينا هنا العديد من السحالى، لذا عليك أن تشعر كأنك فى بيتك تماما!

ابتسم إبراهيم.

كان هذا حقيقيا. فليس من المهم أن تدقق النظر مستجليا حوائط هذا المنزل؛ فدائما سوف يقع بصرك على سحلية. لم يسمع بيتر من قبل أن السحالى "مبروكة"، لكن هو يعلم أنها بارعة فى التقاط الذباب والبعوض، وهذا كاف بالنسبة له.

ظن بيتر أن ما فعله إبراهيم، يفعله الناس فى الغرب أيضا فى كل زمان. فالشباب هناك كثيرا ما يثورون على سلطة الآباء ويسلكون مسلكا مستقلا. ربما يعودون إلى بيوتهم كأى ابن ضال، لكن فى أحيان كثيرة لا يعودون. بيتر لم يتخيل حدوث مثل هذا الأمر إلا فى مجتمعات الرفاهية، إذن إبراهيم ليس هو الوحيد الثائر على سلطة الآباء. كاد أن يخبره بذلك، لكنه فضل أو يؤجل ذلك إلى حين آخر.

عاد هما الاثنان إلى الكتب الإنجليزية. كليهما كان منهمكا فى التعليم أو التعلم لدرجة أنهما لم يلاحظا ذلك الوهج الذى أنار سماء سفينة.

* * *

صاح نيكلسون:

– بسرعة، كل واحد يمسك بجردل واحد!

كان هو خارج وسط رجاله يحاولون مكافحة النار. بالطبع هى كانت مهمة مستحيلة. لقد نظم هو سلسلة من أعوانه يتناقلون جرادل المياه. لا يمكن لأحد أن يتهمهم بأنهم لم يحاولوا. طالما استنجد نيكلسون بالعاصمة يرجوهم ويلح فى الرجاء بأن يمدوا سفينة بسيارة إطفاء حديثة، لكن بلا جدوى.

خلال كل هذا الارتباك، أهمل شأن الحارس تماما حيث سقط. فقط عندما أدركوا أنه من المستحيل إنقاذ المبنى، تم استدعاء سيارة الإسعاف وتم نقل جثمان الرجل بينما كل المؤشرات توضح أن الرجل قد شبع موتا. لكن نيكلسون شعر أنه من الغرابة بمكان أنه لا توجد أى آثار للدماء فى جسده. لقد أكد على هيبورث أن يطعنه فى مقتل وأعطاه خنجرا مخصوصا ليؤدى هذه المهمة. مع ذلك، هذه تفاصيل غير هامة الآن. وقف هو ورجاله يتحسرون على المبنى المحترق؛ يتبادلون عبارات الأسى والحزن بينما قلبه ممتلئ برضى وهو يستجلى منظر مستعمرته حتى الطريق إلى ظاروت. أحس بأن الأمور سوف تعود إلى مسيرها السابق المحبب لديه.

* * *

- بسرعة، كل واحد يمسك بجردل واحد.

نطق هيبورث بتلك الجملة وهو يخرج من حمام نيكلسون وحول وسطه إحدى مقتنيات نيكلسون العزيزة عليه يجفف صدره العريض بفوطة أمريكية كان يخصصها نيكلسون لتجفيف وجهه فقط.

تجاهل نيكلسون كل هذه التعديات على ممتلكاته العزيزة، وخبط هيبورث على ظهره:

- عمل جيد يا هيبورث، أحسنت.

- هذا لا شيء يا سيمون، لا أعلم لماذا انشغلت أنا كثيرا بهذا الموضوع، لعله نقص نشاطى التدريبى. لكن موضوع الاستخفاء هو فى الحقيقة يمـاثل تماما موضوع ركوب الدراجة. الإنسان لا يمكن أن ينسى قيادة الدراجة إذا أتقنها يوما.

- إذن فقد تخلصت من الحارس؟

- بالطبع، بأقل جهد ممكن. بصراحة لقد نسيت أمره تماما بسبب تعجلى لتنفيذ المهمة. لذا فوجئت بظهوره وهو يهاجمنى - هذا الغبى الجاهل، لذا سرعان ما قبضت على رقبته باستخدام قبضة هيبورث التركية! بيد واحدة، مثل هذا.

مد ذراعه وخنق طرف الفوطة بقوة.

- أظن أننى فهمت ما تقصده، إذن فهذا هو السبب الذى من أجله لم أرى أثرا للدماء على جثته.

- هذا صحيح. أخشى اننى لم أستخدم الخنجر. لقد حدثت كل الأمور بسرعة بالغة.

كشر نيكلسون قائلا:

- للأسف، تواجد الخنجر مغروسا فى ضلوعه كانت سوف تشير على الفور نحو المتمردين. هذا النوع من الخناجر له يد لا تجدها سوى فى "تازوك" حيث يعيش أكبر عدد من المتمردين. بالمناسبة، أين هذا الخنجر؟

- في جيب بنطلوني، سوف أحضره لك حالا.

إنه لم يعجب بطريقة نيكلسون في الحديث معه. لماذا؟ يبدو كأن هذا المغفل لا يثق فيه! شعر هيبورث بكفيه ينقبضان. نظر نحو رقبة نيكلسون النحيفة، يمكن أن يورده مورد الهلاك في ظرف دقيقة واحدة. إنه لن يفعل ذلك بالطبع، لكنه كان شعورا طيبا أن يعلم بقدرته على تنفيذ ذلك.

دخل هيبورث الحمام وارتدى ملابسه. استعرض نفسه في المرآة بكل الرضى والسرور. ما زال هو في أوج قوته وفي ربيع العمر.

سلم الخنجر إلى نيكلسون عند خروجه من الحمام، لم يشكره نيكلسون، لكن سأله عما إذا كان في حاجة إلى مشروب. قال هيبورث بحماس:

- بالطبع أريد.

جلسا واحتسيا كل منهما كأسين بسرعة بالغة وخرجا سويا ليشاهدا نتيجة أعمالهما الليلية المجيدة، لاحظا أن قليل من الناس قد تجمعوا ليشاهدوا تلك المأساة. قال هيبورث:

- الكتب تحترق بشكل رائع.

هز نيكلسون رأسه:

- أعتقد أنه لازما لنا أن نذهب للمستشفى لنطمئن على وفاة الحارس، ليس مناسبا أن يظن أحد أننا لم نتابع الموقف ونستجلي أسبابه.

– هذا لا معنى له يا سيمون. الرجل مات وشبع موتا. لا أحد ينجو من قبضة هيبورث التركية!

أجاب نيكلسون وقد نفذ صبره:

– أنا متأكد من ذلك، لكن من المفترض أننا لا نعلم ذلك. ليس لنا أى صلة بما حدث. تذكر ذلك.

ذهبا سويا بالسيارة إلى المستشفى. رئيسة الممرضات الأمريكية، مارى آن كانت فى مكتبها عندما وصلا. كانت منهمكة فى كتابة تقرير عن وفاة عثمان وفى حالة انحطاط كامل. هى تعرف عثمان وعائلته منذ سنوات عديدة وساعدت زوجته فى ولادة عديد من أطفاله؛ بل وهى صغيرة وساذجة حاولت بقدر إمكانها أن تحوله لاعتناق المسيحية. كان هذا ضياعا للوقت. أهل "سفينة" لا يمكن أن يتحولوا أبدا. خلال السنوات العشرين التى قضتها فى سفينة لم تنجح فى تغيير ولا واحد منهم! كان هذا يؤذى مشاعرها أحيانا. مع ذلك، هى إنسانة خيرة ونافعة فى مناحى أخرى كثيرة.

مع ذلك، فى هذه الليلة بالذات، أحست بأنها بلا فائدة. فقد تم إحضار عثمان إلى غرفة الطوارئ وحاول الممرضين إسعافه؛ دلكوا قلبه وأعطوه قبلة الحياة، حاولت هى بنفسها أن تنقذه، وبدا أن جهودها قد تؤتى ثمارها. زعقت فى صديقها المقدم على الموت، "اصحى يا عثمان، فتح عينيك، لا تتركنى هنا لكى اخبر زوجتك! أرجوك اصحى!"

فتح عثمان عينيه اللحظة ونظر فى وجهها برعب. تحركت شفتيه، لذا وضعت أذنها قريبة من فمه فى محاول الاستماع لما يود النطق به. فى الوهلة الأولى لم تسمع شيئا له معنى، ثم سمعت همسه بالعربية، "إنجليزى... إنجليزى شيطان!"

– لماذا؟ لماذا إنجليزى شيطان؟

لكنه فغر فاه وارتمى خلفا ومات. صلت مارى آن على جثمانه ثم تركته لرعاية المرضين المسلمين. بعدها وصل نيكلسون ليعلن:

– أتينا لنرى ما حل بالحارس المسكين يا ريسة.

– آسفة يا مستر نيكلسون. تأخرتم. لقد مات.

قال نيكلسون ببرود:

– أشكرك يا ريسة. لن أشغلك أكثر من ذلك.

ثم غادر هو وهيبورث المكان. لفترة طويلة أخذت مارى آن تحدق فى التقرير أمامها ولا تميز ما تكتبه، ثم قامت وأمسكت بعلبة معطر الجو وأخذت تنفث منه فى أرجاء مكتبها.

* * *

صباح اليوم التالى، قبلما تجف دموعه المتجمعة فى أركان عينيه من استيضاح ما حوله، رأى بيتر أن لا شىء قد تبقى من مخزن الكتب.

السقف تقوس، الحوائط انهارت من الداخل. فى وسط كل هذا تكومت آلاف من الأوراق المحترقة فوق بعضها البعض. نسيم البحر التقط الصفحات وأخذ يتلاعب بها والصفحات المتفحمة تتطاير فى الهواء ثم تختفى فى الصحراء الواسعة.

يد لمست كتفه، ونطق صوت عميق:

– إنها مصيبة كبرى يا عزيزى.

التفت ليجد نفسه فى مواجهة الأستاذ نصراوى، زميله فى المكتب والغائب فى سفرية منذ أمد، واقفا مرتديا بذلة سفارى مع ابتسامة مرسومة على وجهه الشاحب. سأل نصراوى:

– وصل الحد أن تزرف الدموع يا صديقى ؟

قال بيتر وهو يدعك وجهه بيده:

– نعم، أخشى ذلك يا مستر نصراوى. كل كتبى الإنجليزية ضاعت فى الحريق.

هز الأستاذ نصراوى رأسه، حملق فى الحطام قائلا:

– هذا الموضوع سوف يلقى تبعة عظمى على مكتب التعليم. بالنسبة لى هى أيضا تمثل خسارة، فكل أشكال الوسائل البصرية لتعليم اللغة العربية تحولت إلى رماد. استغرق جمعها منى شهورا وجهداً متواصلاً.

– أنا آسف.

– نحن معتادين على مثل تلك الأمور فى بلدى مصر، وكم من مرة رفعنا أيدينا إلى فوق أيام الاحتلال.

– نعم، أعلم ذلك.

قالها بيتر وهو على وعى كامل بالذنب الإنجليزى القديم.

– نحن، مماثلين لك، اضطررنا أن نخبئ رؤوسنا عند هبوب العواصف. الآن يجب على أهالى رأس الصرة أن يتعلموا ذلك أيضا. مع ذلك، دعنا نلملم أطرافنا ونحاول أن نبدأ من جديد.

– لكن كان من المفترض أن أسلم الكتب للمدارس اليوم. سوف يستغرق الأمر منى شهورا حتى أحصل على بديل لها.

شعر أن صوته يخرج واهنا، لكنه لم يهتم.

– أطفال رأس الصرة انتظروا تلك الكتب سنينا وسنين. يمكن لهم أن ينتظروا بضع شهور أخرى.

– الآن، ما الذى يمكن أن يحدث حقيقة؟

ثنى نصراوى شفته، ثم نظر يمينه ويساره قائلا:

– الموضوع بسيط للغاية يا عزيزى. علينا أن نحدد مطالبنا ونرسلها إلى العاصمة. بالطبع سوف تظل تلك الطلبات حبيسة فى درج أحد الموظفين لشهور، لكن فى ظرف ست شهور سوف تصلك هذه الكتب.

- ليس كل هذا الوقت بالتأكيد؟

- طبعا كل هذا الوقت.

جاز الأستاذ/ عيطى بجوارهما وهمس فى إذن بيتر، "هل وعيت الدرس؟"

هز بيتر رأسه، لذا ابتسم عيطى ابتسامة عريضة واختفى.

جذبه نصراوى ناحيته قائلا:

- لا تثق فى الفلسطينيين، إنهم عبارة عن ثعابين تزحف وسط الحشائش. هذا ما أؤكده لك.

- ليس الأستاذ عيطى بالتأكيد. أنتم أيها العرب مضحكين للغاية.

- هذا حقيقى. نحن عائلة حافلة بالحزازات.

فجأة تذكر بيتر الحارس

- ما الذى جرى لحارس المخزن ؟

- توفى.

شعر بيتر بالدموع تتجمع فى ركن عينيه مرة أخرى، لكى يمنعها من الانهمار قال:

- لقد غبت عنا مدة طويلة يا أستاذ نصراوى، هل كانت رحلتك موفقة؟

- كانت متعبة، متعبة جدا يا عزيزى. التجهيزات كلها بدائية. أيضا المدرسين يتعاركون مع بعضهم البعض. شيء محزن. المدرسون المصريون لا يتحادثون مع المدرسين الأردنيين. فى"وابهى" - قضيت وقتا طويلا أعمل كحمامة سلام. شى متعب، سوف نفاجأ بهذا الموضوع الذى أمامنا الآن

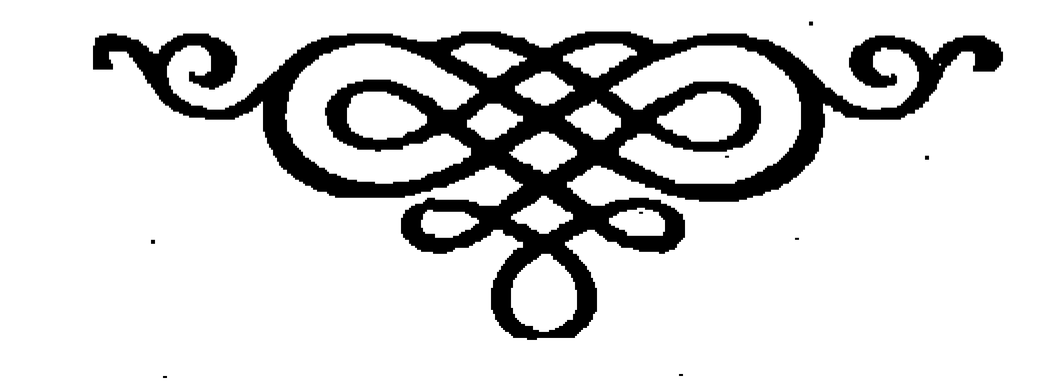
ودع بيتر نصراوى الذى قال:

- عندما احتضنا شعلة التعليم، إذن ليس من الغرابة بمكان أن تحرق أيدينا وقلوبنا أيضا.

أخذ بيتر يفكر فى تلك الجملة وهو فى طريقه إلى مركز مدينة سفينة.

فى ظرف عشر دقائق كان قد وصل إلى مكان السوق. سوق السمك والخضراوات كانا فى قمة التعامل - مئات من الناس تجمعوا يفاصلون ويشترون أو إنهم مجرد يقضون وقتا من النهار هناك. اشترى هناك بعض الخضراوات وفرخة، محاولا بذلك أن تعود الأمور إلى مسارها الطبيعى - كان المنظر معزيا له. قرر أن ينسى موضوع العمل هذا اليوم ويعود إلى المنزل. سوف يعطى إبراهيم درسا مطولا ثم يصنع يخنى دسم باستخدام الفرخة. ربما، بعض الظهر، ربما يحاولان تسلق أحد الجبال.

بينما بيتر فى طريقه إلى مكتب التعليم حيث تستقر سيارته، فكر فى بتول وهى وسط فصلها الضوضائى بجوار البحر ولعن المتمردين فى سره. ما الذى يمكن أن يفعله الآن؟ حسنا، سوف يفكر فى هذا الموضوع غدا. اليوم مخصص للنسيان.. خلافا للسيد/ نصراوى هو غير مستعد اليوم أن يحرق أصابعه فى شعلة التعليم، ليس اليوم على الأقل.



(١٢)

هجر النوم عينا الرئيسة ماري آن سيسون. كانت منزعجة وتحس بانحطاط كامل جراء ما حدث في وقت مبكر من هذه الليلة. الإرهاق أخذ بناصيتها بينما أعصابها تدق وتحتج. لقد تقلبت في سريرها ساعة كاملة. أخيرا أدركت أن لا فائدة من استجداء النوم.

بتنهيدة، أنارت اللمبة المجاورة لسريرها. الضوء ألقى نورا على صورة تجمع بعض من أفراد عائلتها. أمسكت بالصورة وأخذت تتصفحهم جميعا. كل الواضحين في تلك الصورة أما هم الآن أمواتا أو لحقهم تغيير جوهري. كانت هي نفسها واقفة في الوسط تبتسم للكاميرا ابتسامة واسعة، بياض وجهها يدهشها الآن بعد مرور كل هذه السنوات. تتذكر هي كلمات أخيها الأكبر في لحظة التقاط هذه الصورة وضوء الفلاش يبرق، "خليكي بمنظر حلو يا أختي، نريد أن نتذكرك دائما كأجمل فتاة في العائلة"

وجه أخيها وهو واقف في الصف الثاني وأضح وهو ينظر إليها يحادثها، ما زال فمه ناطقا بهذا الحديث. الأم تبدو ملتفتة للخلف لكي تخرس ابنها "بيل"، وضبطت وهي تلتفت خلفها غير مستعدة للتصوير،

وجهها غير واضح المعالم. أطفال أخوتها وأخواتها الثمانية ينظرون بابتسامات سعيدة نحو الكاميرا. ناثان، وهم أكبرهم سنا، كان في الثالثة عشر من عمره في ذلك الحين، قتل في فيتنام. حملقت في وجهه عن قرب، هل العلامات واضحة في الصورة؟ كثيرا ما صدقت المقولة بأن المقدر لهم الموت مبكرا تجد أن صورهم غير واضحة الملامح ومهزوزة. بالفعل صورة ناثان أقل وضوحا من أخوته. لكن ليس كذلك الحال دائما.

تنهدت ماري آن وتناولت كتابها. فتحته فسقطت علامة آخر صفحة قرأتها على الملاءة، رأت مكتوبا عليها، "يا رب.. دعني أكون حمامة للسلام". أحست في تلك اللحظة أن حياتها في رأس الصرة ليست سوى بحر من الوقت الضائع. في تلك اللحظة، فكرت في عثمان الراقد بلا حراك في المستشفى ومعه سبع خبراء أرسلت جثثهم في حوافظ بلاستيكية إلى العاصمة، أدركت أن قدرتها على الثبات والجلد بدأت تتلاشى، شعرت أن كل حياتها التي تلت التقاط تلك الصورة لم تكن سوى غلطة كبرى.

أحست فجأة بأسوأ إغراء من الممكن أن يتعرض إليه إنسان، تساءلت عن قصد الله في خلقة الإنسان. ليس هذا فقط، بل تحيرت هل هي توافقت يوما مع إرادة الله ومشيئته؟ تعلم يقينا أنها تحبه، وتعلم أيضا أن له سبحانه مستقرا ثابتا في قلبها ولا يمكن أن يخفت حبها له، لكن ساءها ذاك التصور الذي غلب خيالها عندما شبهت الله بذاك الزوج الذي اعتاد على خداع زوجته مرارا وتكرارا، يعود متأخرا كل ليلة على مدار سنوات عدة. هذا التصور أفرغ ووارى كل قدرة لها على الاحتمال.

قامت ورفعت يديها بالصلاة، تلت صلواتها بأسلوبها الودى المعتاد عندما تخاطب الله، "حسنا، كل ما فى طاقتى أن أقوله، من صميم قلبى وضميرى. اننى ما كنت أسمح أن يموت عثمان بهذه الطريقة؛ ما كنت لأدع هؤلاء المجرمين أن يحرقوا محطة الكهرباء. إذا كان الحكم لى، إذا لمددت إصبعى الأصفر وأوقفت كل هذه المآسى. أنت يا الله، كما قيل لى، تشرف على العالم وهو يدور وتهتم بكل شىء، حتى أن شعرة واحدة لا تسقط من شعر الإنسان بدون إذنك. قلت أنت أيضا أننا أفضل من عصافير كثيرة تلك التى ترعاها وتقيتها. لذلك أسألك يا الهى، لما حدثت كل هذه الأعمال الوحشية، لما لم تتدخل وتوقف هذا الشر"؟

اليوم التالى من التقاط الصورة العائلية، ودعت أهلها فى محطة قطار بلدتهم وهى فورت مورجان واستقلت القطار المتجه إلى شيكاجو. هناك تعلمت بعض من اللغة العربية، ثم وضعت فى قطار آخر وجهته نيويورك. كان فصل الشتاء قد حل ونتف الثلج بدأت فى الالتصاق بزجاج النوافذ. أجابت هى على أسئلة رفقائها فى القطار عن وجهتها القادمة، أجابت:

– اننى ذاهبة إلى إمارة راس الصرة العربية.

كانت تشعر بفخر عظيم وهى تنطق بهذه الجملة. أخيرا سوف تتحقق رغبات الطفولة، إنها ذاهبة لتبشر بالإنجيل وتساعد فى شفاء الأمراض فى بلاد بعيدة ونائية. هى ذاهبة لكى تفى بوعودها لله.

رأس الصرة مكان مخيف، والإطلاع على المناطق المحيطة بالعاصمة كانت كافية أن تدير وجهها وتعود إلى وطنها. عندما وصلت إلى تلك المدينة لاحظت أنها محاطة بأسوار عالية وبواباتها الرئيسة تقفل عندما تحين الساعة السادسة مساء. كانت مضطرة أن ترتدى قناعا فى أى وقت تخرج فيه من الشارع، لكن حتى هذا الخمار الذى يخفيها تماما لم يكن كافيا لأن تختفى بعيدا عنها الوحشة والكآبة. شاهدت العبيد الأفريقيين فى منطقة الميناء، مقيدين وضائعين؛ البحارة المتوحشين بأصواتهم الزاعقة يزيحونها بعيدا؛ الناس الذين يموتون فى الشوارع؛ الصوت المرتفع النبرة المفاجئ الذى يدعو الناس للصلاة؛ البوليس الدينى التابع للأمير العجوز الذين يضربون الناس بالعصى إذا تقاعسوا عن تأدية واجب الصلاة. لم تشعر بأنها أنقذت إلا عندما تقابلت مع فلورنس جيل.

أخبرتها فلورنس فى يوم لقائهما الأول:

– من المحتمل أن لا تقدرى على تغيير أو تحويل روح واحد هنا يا مارى آن – لذا ركزى على مساعدة هذه الأجساد الفقيرة. ركزى على ذلك وهنا لن تشعرى بأن وقتك قد ضاع سدى.

وفلورنس، المسئولة عن المستشفى الإرسالية فى العاصمة، هى التى ساعدتها وذهبت معها إلى سفينة وساعدتها خلال شهورها الأولى المرعبة، مجاهدة ليلا ونهارا فى تحويل منزل تاجر عجوز إلى عيادة طبية. وبمتابعة خطوات فلورنس استطاعت مارى آن بشكل بطئ، أن تحس

بقدر من الرضى. لكن عندما افتتحت عيادتها، لاحظت أن لا أحد قد قدم لكى يتلقى علاجا عندها. كلتاهما صلتا بحرارة لكى يقوم الله بتغيير قلوب الناس هنا. ثم فى يوم، عثمان الذى كان يعمل بالعيادة حينذاك، وقع من أعلى سلم، واضطر، وهو يلعن ويحتج، أن يكون أول مريض يتم علاجه واستطاعوا أن يضمدوا جراحه. شعر عثمان بقوة الشفاء التى تغذيها الرعاية المحبة، لذا خرج إلى أهله في سفينة ناشرا الخبر. حالا أصبحت العيادة متخمة بأنواع مختلفة من المرضى. ومنذ ذلك التاريخ لم تنظر إلى الوراء.

عادت فلورنس إلى العاصمة، لكن وهى هناك قدمت دعما هائلا لصديقتها مارى آن. دعيت فلورنس بعد ذلك من رئاستها أن تتوجه إلى أصفهان بإيران. كانت مارى آن تزورها فى كل فترة أجازة، لكن عندما توفت فلورنس عام ١٩٧٦، استقرت مارى آن فى سفينة لا تغادرها أبدا. فهى ليست من النوع الذى يمكن أن تكون أى صداقات بسهولة. لذا أخذت تذكر نفسها دائما، "ليس لى شأن بأرواحهم، على أن أهتم فقط بأجسادهم".

بقدوم الثروة التى هبطت على رأس الصرة باكتشاف منابع البترول، استقدمت الحكومة أفرادا عديدين ليعملوا فى مستشفى سفينة، لذا قدم إليها هنود وسيريلانكيين، وهم فئة من الممكن أن يتجاوبوا مع توجهاتها المسيحية. اكتشفت أخيرا أنه من الممكن أن تكون مجموعات من ثلاثة أو أربعة أفراد فى تجمع للصلاة كل أسبوع. لذا ساعدها هذا وتوسعت

في أعمال المستشفى ووصل طبيب هندي وآخر كاثوليكي من "جوا"، بالرغم من إيمان هذا برئاسة روما الدينية، إلا انه كان إنسانا مهذبا وبارعا في مجال إجراء العمليات الجراحية.

فكرت ماري أن تغادر تلك الإمارة أثناء اشتداد أوار الحرب الأهلية، فقد بدا أن سفينة سوف تقتطع كلية وتبتعد عن العاصمة وأصبحت الحياة غير محتملة. شاهدت بعينيها المصابين في هذه المعارك - يوميا كانوا يتوافدون على المستشفى. قسوة جراحاتهم وعذاباتهم أخبرتها بكل جلاء عما سوف ينتظرها إذا سقطت سفينة.

لكن سفينة لم تسقط، وبدت الأمور كأنها قد عادت إلى مسارها الطبيعي - حتى وقعت حادثة تفجير محطة الكهرباء ومخزن الكتب.

استمرت ماري آن في قراءة كتابها لمدة ساعتين، لكنها وجدت صعوبة في استيعاب ما تقرأه. عقلها وذهنها لا يستقران على حال والنوم يجافيها كلية. في الخامسة صباحا هجرت المحاولة وقامت وارتدت ملابس العمل واستعدت للقيام بدورها المعتاد. كانت جوانا هي المشرفة على العمل تلك الليلة، لذا اتجهت نحوها مباشرة. لاحظت أنها تحملق في سرير صغير في ملحق الأطفال. أجابت جوانا على استفسارات ماري بخصوص طايابا قائلة:

- لا أعتقد أنها سوف تنجو. لم نستطع إيقاف حالة الجفاف التي تتعرض لها. تنهدت ماري آن وسويا اتجها ناحية مكتب الإدارة. سألت جوانا:

– شيء فظيع ذاك الذى حدث لمخزن الكتب، لكن لماذا؟ أنني في غاية العجب.

هزت مارى كتفيها:

– أنا لا أعلم. عندك خبر أن الحارس قد توفى. أليس كذلك؟

– لا، لم أعرف. أنا آسفة جدا.

– نعم، أنه أمر محزن. كان هو أول مريض لى عندما حضرت هنا للمرة الأولى. اسمه عثمان. هل تعلمين ماذا كانت همسته الأخيرة لى قبل وفاته؟

– لا، ماذا؟

– قال لى، الإنجليزى شيطان، فقط ذلك.

تجهمت جوانا:

– يا ترى ماذا كان يقصد بقوله هذه الجملة؟

– لا أعلم. يبدو اننى لم اعد قادرة على تفهم أى شيء. الأمور تزداد غموضا.

* * *

بعد أسبوع، عندما وصل بيتر إلى مكتب التعليم، وجد خطابا في انتظاره من جوانا.

عزيزى بيتر

شيء مضحك أن أرسل لك رسالة بينما أنت تعيش قريبا منى، لكنى أنا بكل أمانة لست أمتلك ولو دقيقة واحدة فراغ لنفسى خلال الأيام القليلة الماضية.

آسفة أن أخبرك أن طايابا قد توفت مساء الأمس. لم نستطع إيقاف حالة الجفاف وأفلتت من بين أيدينا الليلة الماضية. مع ذلك، أشكر لك معاونتك وتأييدك.

أعلم أنك سوف تشعر بمثل حزنى.

كان أسبوعا فظيعا لجميعنا. شعرت بأسى بالغ عندما علمت بالحريق الذى شب فى مخزن الكتب. أرجو أن لا تؤدى هذه الكارثة إلى تثبيط همتك.

فكرت أنه لازما أن نفعل شيئا نرفع به معنوياتنا قليلا. ما رأيك لو تشاركنا العشاء يوم الخميس القادم، حوالى الساعة السابعة مساء؟ سوف أدعو أيضا مارى آن مديرة المستشفى. هى مقامها فى هذه البلدة منذ سنوات عديدة. أنا متأكدة أنك سوف تكتشف فيها محدثة لبقة ولطيفة. لا داعى للرد إلا إذا تعذر عليك الحضور.

سلام – جوانا.

رد الفعل الأول الذى خطر على بال بيتر عند قراءته رسالة جوانا هو الخجل. تأسف لأن طايابا لم تخطر على باله منذ وقوع حادثة حريق

مخزن الكتب، لكن، بشعور من الذنب، تطفو على السطح تلك الأخبار المفرحة التى يرنو إليها.

لم يستمر بقائه فى المكتب طويلا، فهذا المكان أصبح يشعره بالانقباض. على أية حال، الليلة الماضية خطرت على باله فكرة، لذا هو خارج ليجرب مدى إمكانية تطبيقها.

أثناء قيامه بالتدريس لإبراهيم اليوم السابق، طفا على السطح تداول كلمة "جرائد". شرح هو لإبراهيم التصور الخاص بنشرة الأخبار اليومية على مستوى القطر كله باستخدام مطبوعات سريعة. بدأ إبراهيم فى الحال الاستماع إلى الأخبار فى الراديو وأبدى اهتماما بهذا الموضوع، وشغف عندما علم أن هناك جرائد فى العاصمة. لقد تناقشا فى هذا الموضوع. وتم تكليف إبراهيم أن يكتب مقالة بسيطة لجريدة من جرائد العاصمة.

تاركا إبراهيم لكى ينفذ ذلك، ذهب بيتر إلى غرفة نومه ليستمع إلى محطة BBC. أحيانا كان الإرسال يصل إليه عاليا واضحا، فى أحيان أخرى لا يتمكن من الاستماع لشىء. فى تلك الأيام التى يتعذر عليه فيها أن يلتقط الإرسال، ينخرط بيتر فى لعن السيدة مارجريت تاتشر. فى كل ليلة قضاها فى رأس الصرة، لاحظ أن إرسال محطة موسكو واضح تماما. لم يصدق أبدا أن سوء الإرسال لمحطة BBC راجع إلى اضطراب فى منطقة ستراتوسفير الجوية. إذا كان هذا صحيحا، فإن كل المحطات

سـوف تعـانـى من ذلك. لكن راديو مـوسكو لا يعـانى بسـبب مـعـدلات الصرف التى تنفـق على تحقيـق استماع جيد. انه لا يقـدر ما تبثه هـذه المحطـة.

لكن هذه الليلة بالذات، استمع إلى محطته المفضلة بوضوح كامل، من هنا خطرت على باله هذه الفكرة. إذا لم يكن فى يد الأطفال كتبـا، فربما يستطيع ملء الفراغ باستخدام شكل من أشكال الجرائد! تلك الصحف سوف تحتوى على العديد من التدريبات اللغوية والألعاب والأنشطة. سوف تتباين المادة المطبوعة بحيث يستفيد منها المبتدئين كذلك المتقدمين من الطلبة. المشكلة الأولى هى كيفية كتابتها. حسنا، هو لديه الوقت اللازم لتنفيذ الفكرة. الأكثر صعوبة، كيفية تنفيذ الطبع. مكتب التعليم يخلو من كل شىء، والطابعة القديمة لديهم ماتت وشبعت موتا منذ دهور سابقة. مع ذلك، لا يزال عندهم أوراق الطباعة المخصوصة التى يمكن الطبع عليها. لعله يعثر فى سفينة على طابعة.

لذا ما أن قرأ خطاب جوانا حتى ذهب على الفور إلى المستشفى. أحد الممرضين هناك اخبره بأنه ليس لديهم مطلبه، لكن نصحه أن يلجأ لمكتب البريد. هناك أخبره الأستاذ ناصر رئيس المكتب أن مطلبه لن يجده سوى عند مستر نيكلسون.

شعر بيتر بالتردد أن يلجأ إلى نيكلسون، لكنه استطاع أخيرا أن يستجمع شجاعته وساق سيارته مباشرة إلى مستعمرة هذا الرجل. الحارس على البوابة، وقد لمح وجها أوروبيا، سرعان ما فتح البوابة.

نيكلسون كان فى مكتبه يتحدث مع رجل عربى عجوز. حيا بيتر بحرارة وطلب منه أن يجلس وينتظر حتى يستكمل حواره. الرجل العربى كان يشكو من أن بناة الطريق الاسفلتي قد استخدموا جزءا من أرضه لتشوين معداتهم الثقيلة. أرضه مجاورة للطريق وأشجار النخيل قد تأذت من هذا التشوين. استمع نيكلسون لهذا الرجل ووعد بأنه سوف يتصرف بشأن هذه المسألة. شكره الرجل وغادر.

التفت نيكلسون إلى بيتر:

– أنت إذن ما زلت هنا؟

هز بيتر رأسه.

– آسف بشأن ما حدث لكتبك. صعب أن تؤدى مهمتك بدون كتب.

جاهد نيكلسون لكى يخفى أمارات الارتياح فى لهجته.

– بالطبع. المدارس فى حالة من الاضطراب الكامل. لهذا السبب أتيت لمقابلتك يا مستر نيكلسون.

– أرجوك دعنى باسم سيمون. كيف يمكن لى أن أساعدك؟

– حسنا...

أخبره بيتر بفكرته، فانهمك نيكلسون فى حك ذقنه قائلا:

– نعم، أفهم كيف يمكن لى أن أساعدكم. بالطبع من الممكن أن تستخدم طابعتنا. لدينا عدد من الطابعات الممتازة. لكن هل لديك لوازم الطباعة؟

- لا. ليس لدى شىء، لكن كل هذه سوف تكون جاهزة فى ظرف يومين. لكن لدينا بعض الأصول التى يمكن الطبع عليها، وأحضرت واحدة لنتأكد ما إذا كانت ملائمة للعمل على طابعتك أم لا.

استدعى نيكلسون كاتبه الهندى وأمره أن يتأكد ما كان الأصل ملائما أم لا. عاد هذا بعد لحظات ليخبرهما بأن هذا الأصل يصلح.

- حسنا، شىء جميل. جهز كل شىء ونحن سوف نطبع لك ما تريد. على كل حال، يجب أن نتكاتف جميعا فى وجه تلك المصيبة التى حلت بنا.

شعر بيتر بالاغتباط:

- أشكرك يا سيمون.

بعدها شعر بالغضب من نفسه لأنه أحس يوما بالنفور من هذا الرجل.

- تشرب شاى؟

وافق بيتر، لذا ذهب الكاتب ليجلبه له. ثم سأل بيتر:

- اعتقد أنك فى منتهى المشغولية هذه الأيام؟

- مشغول؟ ليس أكثر من المعتاد. لما تسال؟

- حسنا، بسبب موضوعات التخريب الحادثة وما شابه. بالطبع أنت تعمل جاهدا لتعثر على الجناة.

ضحك نيكلسون:

– أوه، نحن نعلم من فعلها! إنهم المتمردين بالطبع، لكن هناك فرق هائل ما بين المعرفة والعثور عليهم، خصوصا هنا. كل ما علينا فعله هو الانتظار حتى يضعوا قدما فى مكانه الخاطئ.

شىء فى تعبيرات وجه بيتر أوضحت لنيكلسون أنه لم يقتنع تماما، لذا أضاف:

– الموضوع يا بيتر هو إننا لسنا في حل لأن نخبرك عما نفعله، لكن خذها منى كلمة لقد اتخذنا خطوات هامة فى هذا الشأن.

– أنا متأكد من ذلك.

– ونحن على ثقة كاملة أنك تنظر بكل الجد إلى النصيحة التى قدمها لك الكابتن هيبورث وأنا. كما تعلم، نعتقد انه من الأفضل أن ترحلوا أنتم الهواة من هذا المكان الخطر. لكن لأنك متردد نوعا من اتخاذ هذه الخطوة، فأرجو على الأقل أن تكون فى منتهى الحرص.

– نعم...

لم يجد بيتر شيئا على لسانه يمكن أن يعبر به.

– أعنى، أنك تعيش بمفردك، وهذا ليس بالأمر الصائب كما تعلم.

قاطعه بيتر:

– لا، أنا لا أعيش بمفردى.

رفع نيكلسون حاجبه الأيسر بينما ظل الأيمن فى مكانه. طالما اشتاق بيتر أن يؤدى تلك الحركة.

- إذن أنت لا تعيش بمفردك. من يساكنك؟

- ولد عربى.

ارتفع حاجب نيكلسون أكثر قائلا:

- ولد عربى؟ هل تعتقد أن هذا تصرفا حكيما؟

- أوه، نعم، اننى أثق فيه. هو فى الواقع كان يعمل عندك.

- حقا، ما اسمه؟

- إبراهيم.

- الذى من جهيل؟ إذا هذا هو مقره الأخير! يعمل لديك؟

أخذ نيكلسون يضحك بعنف، مما سمر بيتر فى مكانه ودهش من رد فعله هذا. أخيرا وبين دفعات القهقهة، قال نيكلسون:

- إذن أنت أخذته! يا الله، ما الذى جرى لك؟ أنت لا تعرف شيئا عنه، أليس كذلك؟

- أعرف ماذا؟

- هل تعلم انه متشرد، مجرم، ومن أسوأ أنواع البشر؟

- أعلم أنه تصرف فى شئون حياته بغباء.

انفجر نيكلسون مرة أخرى فى الضحك.

- غباء، أعتقد أن صفة الغباء تنطبق عليه تماما كبداية.

فجأة سكن وبلهجة جدية أضاف:

- مع ذلك، من الممكن أن تطلق عليه، مجنون، خائن، متمرد، غير أمين. كل هذه الصفات هى الأنسب فى وصفه. أنت تعلم بالطبع أنه تمرد علي.

هز بيتر رأسه:

- لقد ذكر لى ذلك. نعم هو فى الحقيقة ذكر لى كل شىء.

- إذن هذا ما حدث، وأنت ما زلت محتفظا به ك (ضيف) فى منزلك؟

- لا، ليس ضيفا بالمعنى المفهوم. هو يؤدى لى بعض الأعمال.

هز نيكلسون رأسه:

- لكنه يبيت فى منزلك!

- نعم.

رجع نيكلسون بظهره إلى مقعده:

- لو كنت مكانك لما فعلت ذلك.

أحضر الهندى الشاى، فصرفه نيكلسون بإشارة واحدة من يده، ما أن خرج هذا حتى مال نيكلسون تجاه بيتر قائلا:

- تخلص منه على الفور! أنا على علم بأنه غادر قرية جهيل. فأنا لدى مصادرى هناك. لكن إذا انتشرت الأخبار ووصلت إلى جهيل أو إلى وادى بنى عمر، فإننى لست مسئولا عن سلامتك. أخوة الفتاة التى أبى أن يتزوجها من المحتمل أن يحضروا ويقتلوكما أنتما الاثنين وبدون أى تفكير. أنت تعلم بالطبع أن الصدمة قد قضت على والده. لقد مات فى نفس اليوم المخصص لإتمام زواجه. العار الذى لحق بالأب كان أكثر من قوة احتماله. كنت أظن أن هذا الولد المتشرد قد ذهب إلى العاصمة ليعمل ويضيع أثره هناك. لم أتصور أبدا أنه من الممكن أن يعود إلى سفينة. لا، يجب أن تتخلص منه على الفور. أنه عبارة عن حبل مشنقة ملتف حول عنقك، لا سيما الآن.

لم يعثر بيتر عن كلمة يمكن أن ينطق بها. كان خبر وفاة والد إبراهيم تلك هى التى أخرسته. الفتى بالطبع لا يعلم ذلك، تخيل نفسه وهو يخبره بذلك، لكن ما العمل فيما ذكره نيكلسون من أمور أخرى؟ ما ذكره نيكلسون له أساس من الصحة، فالشرف وضرورة الحفاظ عليه أدى إلى وفاة الوالد. لكن، يا الله، ما الذى يمكن أن يفعله هو؟

لاحظ نيكلسون ارتباك بيتر، لذا قطع الصمت بالقول:

- هل أنت معجب به؟

خرج بيتر من حبل خيالاته:

– نعم.

– هو ونيس لك، أليس كذلك؟

– نعم.

كلا الإجابتان كانتا صحيحتين، لكنه لاحظ نيكلسون وهو يهز رأسه، فهم ما تعنيه تلك وما يعنيه من وراء طرح هذه الأسئلة.

– لكن ليس بهذا المفهوم الذى فى ذهنك!

– أى مفهوم أيها العجوز؟

– أنت تعلم... هذا!

حدجه نيكلسون بنظرة قاسية

– أقول لك، تخلص منه!

* * *

إذا لم يكن واضحا فى نظر بيتر مما يعانى منه إبراهيم بسبب فعلته، حدث هذا بكل بساطة لأنه لم يقاسم صديقه وراعيه مشاعره وأحاسيسه.

إبراهيم لم يتفهم أبدا دوره فى منزل بيتر. خلافا لنيكلسون، بيتر لم يحدد أعمالا معينة يجب أن يؤديها إبراهيم، وأن يرسم حدودا وخطوطا فاصلة لكى يرسم له موقفه ويحافظ على المسافة الواجب مراعاتها.

كان صعبا على إبراهيم أن يحدد مكانه، هذا إذا كان له مكان محدد. ظهر أن بيتر لديه قواعد ونظم روتينية محدودة للغاية. انه لا يصلى وتجده ممتنا لإبراهيم إذا طبخ أو سوى له شيئا أو حتى نظم ونظف المنزل العارى. انه لا يعامل إبراهيم كخادم. فوق كل شيء، كان يقضى قسطا عظيما من وقته فى تعليمه.

ما الذى حصل عليه صديقه فى المقابل؟ لم يفكر إبراهيم فى هذا الأمر، لأنه وضع غريب بالنسبة له، وهو يشعر بالامتنان من جراء ذلك. جعله هذا يشعر أنه على بعد مليون ميل من جهيل- هو فى قطر عجيب، فى دولة نائية.

بالطبع، دلت السليقة إبراهيم أنه لا يبعد عن بلدته سوى مسيرة يوم واحد، ليس عليه سوى أن يتطلع إلى السهول التى تقع شمال الجبال لكى يتحقق بأنه ليس بهذا القدر من البعد.

وطنه؟ عندما ينفرد إبراهيم بنفسه تجعله تلك الكلمة يغرق فى الضحك. ضحك قاس ليس به أى قدر من السعادة، وعندما يسمعه بيتر يشعر بالاندهاش. هو يعلم يقينا أن لا وطن له، وإذا حدث وعاد فإنه سوف يعود كأى مجرم أثيم عائد إلى مكان ارتكاب جريمته. الوطن؟ ليس هناك وطن لإبراهيم. لقد قطع نفسه عن وطنه إلى الأبد بمعارضته لعادات وتقاليد بلدته.

هذا اليوم، مماثلا لكل الأيام التى ترك فيها إبراهيم فى المنزل بمفرده، كانت كل أفكاره تنصب على جهيل. أخذ يفكر فى والده وأصدقائه.

كان فى شوق بالغ أن يتعرف على أخبارهم؛ وأن يتلمس شعورهم نحوه. بالرغم أنه يعلم، لكنه فى كل يوم كان يهمس لنفسه، "كان من الممكن أن أتزوج! كان من الممكن أن أستقر هناك!". شعر أن لو هذا قد حدث، لكن أمر في منتهى السهولة. لماذا غادر قريته؟ إنه لا يتذكر الأسباب الآن. هذا الفكر أضجع منامه وجعله يدور فى دوامة من الفكر- إنه لم يعد نفس الشخص الذى غادر جهيل. هو لا يتذكر مشاعره حينذاك. إنه لا يتذكر حالة الزهق والرتابة التى قضى أيامه الأخيرة هناك وهو أسير لها. يصعب عليه الآن أن يفتش ضميره وأن يضع نفسه، حتى فى الخيال، فى مكان أو موقف يستطيع منه أن يجيب على أسئلة تبدأ بكلمة: لماذا؟

لقد ارتكب إبراهيم الخطأ مرتين. عندما كان يرعى معزاته فى الوادى الكبير، طالما ألح عليه فكر غاضب، لماذا ترك العز الذى كان يرفل فيه عند نيكلسون، تركه فقط لأنه قتل سحلية؟ هذا الخاطر كان يضحكه مثلما يضحكه الآن التفكير فى مدى قرب موطنه منه.

لا إبراهيم، ولا أى فرد من جهيل لديهم كتبا يستطيعون اللجوء إليها لاكتساب العلم والمعرفة. كتب تسرى عنه. لم يكن فى مقدوره أن يقرأ كتابا يقول فيه الكاتب، "كنت مثلك. كان لزاما على أن أهرب. وارتكبت أيضا أخطاء". لقد أصبح هو بالغا، وحدث هذا فى غيبة من أهله. يكون المرء طفلا وما أن يمر زمنا قليلا حتى ينعقد حفل زواجه على فتاة، وبذلك يصبح الطفل السابق رجلا. ليس لدى إبراهيم سوى كتاب واحد،

هو القرآن الكريم، كذلك هناك تلك الحكايات التى طالما استمع إليها مع آخرين وهم متجمعين حول النار يستدفئون ليلا. هذه القصص والروايات غلافها هو الأخلاق والمبادئ المطعمة بالضحكات الصافية مع مراعاة التقاليد والتوافق مع المعايير الدينية، كل هذا ليس إبحار آمن مواز لشاطئ لا خوف منه. لكن إبراهيم سحبته أمواج البحر العميقة لمبتكرات القرن العشرين.

عندما عاد بيتر إلى المنزل بعد مقابلته لنيكلسون، لم يستشف إبراهيم حالة الارتباك والهم الذى ملك على لب بيتر تحت قناع من الملامح العادية. دهش إبراهيم من الصمت الذى حل على صديقه وهو يتناول طعامه. أحس إبراهيم بالإحباط لأن بيتر لم يقدم له كالمعتاد درسا فى اللغة (تلقى أى درس فى اللغة هو السبيل الذى اكتشفه إبراهيم لكى يخرس أفكاره الغاضبة التى مصدرها وطنه)، لكنه ظن أن بيتر قد عاد إلى بيته متعبا.

عندما صحا بيتر من نوم ساعتين فى فترة القيلولة، أخبر إبراهيم بمقابلته لنيكلسون وأنه أخبره عن قريته جهيل، هنا فقط استقرت الأمور فى ذهن إبراهيم، لذا سأل:

– ما الذى أخبرك به نيكلسون؟

لم يحر بيتر جوابا، فالنوم لم يواته وهو فى غرفته. كان يحاول تصفح جريدة واخذ يقلب فى صفحاتها بعنف بينما عقله فى صراع

بخصوص تلك المشكلة التى هى أمامه الآن. لم يكن متأكدا أنه قادر على سرد كل ما أخبره به نيكلسون. ردد إبراهيم:

- ما الذى قاله؟

فكر بيتر، "له كل الحق فى أن يعرف". لذا أجاب:

- نيكلسون قال لى أن والدك قد توفى.

بدا الأمر كأن إبراهيم لم يفهم ما نطق به بيتر، لذا رفع رأسه قائلا، "ماذا؟". أعاد بيتر الجملة، لكن وللعجب لم تهتز عضلة واحدة فى وجه إبراهيم. فقط أخذ يحدق فى وجه بيتر.

فى وجدانه، كان إبراهيم يردد تلك الجملة. أخذ يلوكها، بل وحاول أن يترجمها إلى الإنجليزية، لكنه لم يستطع. أجاب أخيرا:

- أشكرك يا بيتر لإخبارى بذلك. لكن أود أن أقول لك أن والدى قد توفى بالنسبة لى عندما غادرت جهيل. أنا الذى تسببت فى موته.

ثم طلب من بيتر أن يعطيه درسا فى اللغة. أحس بيتر بالانزعاج والراحة فى نفس الوقت بسبب رد الفعل الذى حدث مع إبراهيم. توقع أن يشاهد إبراهيم وهو يصرخ ثم يندفع خارجا وجهته قريته جهيل. هو ليس خبرة كافية تساعده على تقييم مثل هذا الموقف الغريب وقوة ردود الأفعال أو غيابها، مما جعله يتيقن أنه لا يعلم الكثير.

جلسا حول المائدة وبدأ الدرس، أجل بيتر أى تعليم خاص بقواعد اللغة الإنجليزية، لكنه سأل إبراهيم أن يقرا له كتابا باللغة الإنجليزية عنوانه "قصص عربية بسيطة".

قرأ إبراهيم بصوت محايد متدفق:

أراد نصر الدين أن يعبر البحر ليصل إلى جزيرة. ذهب إلى المراكبى ودفع المعلوم وصعد القارب. نصر الدين سأل المراكبى:

- هل تعرف قواعد اللغة؟

أجاب المراكبى،

- لا، لا أعرف

قال نصر الدين،

- إذن أنت قد أضعت نصف عمرك.

بعد وقت قصير، سال المراكبى نصر الدين،

- هل تعرف العوم؟

أجاب نصر الدين،

- لا، لا أعرف

قال المراكبى،

- إذن فقد أضعت كل عمرك.

سأل نصر الدين،

- لكن لماذا؟

أجاب المراكبى،

- لأننا نغرق.

صحح بيتر نطق بعض الكلمات لإبراهيم، لذا جعله يقرأ القصة مرة أخرى، ثم سأله سؤالا ليختبر مدى فهمه للقصة:

- لماذا ضيع نصر الدين كل عمره؟

- ضيع إبراهيم كل عمره لأنه لا يعرف العوم، مطلوب منه الآن أن يعوم وإلا غرق.

- هذا صحيح.

أخذ إبراهيم يحدق فى أستاذه، أخيرا قال:

- أيها المدرس. أنت حزين. صدقنى أنا أيضا حزين، قد لا يبدو على الحزن، لكنى بالفعل حزين. لدى قصة لطيفة، هل أسردها عليك؟

- طبعا...

أخذ إبراهيم فى البحث داخل كراسته حتى عثر على بعض الجمل المكتوبة بالإنجليزية وبجوار كل كلمة معناها بالعربية، ثم بدأ فى الرد:

"شاب يافع اسمه عمر كان يعيش فى قرية صغيره. فى يوم صدر منه غصبا ريحا وهو يصلى فى الجامع. كان هذا تصرفا سيئا منه

ولذلك نظر الناس الساجدين حوله بغضب. هجر عمر هذا قريته وأخذ يتجول فى أنحاء الدنيا نصف حياته. بعد زمن أصبح رجلا غنيا لديه سيارات وبيوت فخمة كثيرة. بعد ثلاثين عاما عاد إلى قريته راكبا سيارته العظيمة. لاحظ أن القرية قد تغيرت كثيرا، لذا صعب عليه أن يعثر على منزل عائلته. أخيرا سال ولدا صغيرا كان واقفا فى ركن من شارع عن طريق بيته.

قال الرجل،

– هل تعرف أين منزل والد عمر؟"

سأل الولد،

– ومن أنت؟

أجاب الرجل،

– أنا ابنه. عمر

صاح الولد،

– إذن أنت عمر الذى أصدر ريحا فى الجامع؟

هز بيتر رأسه إعجابا، لكن فجأة انهمرت الدموع من عينى إبراهيم قائلا:

– أنا هو عمر هذا، لكن ذنبى أكبر بكثير مما فعله.

ثم عاد إلى لغته العربية.

– هناك أشياء لا يمكن أن تغتفر.لقد كسرت قاعدة هامة من قواعد أهلي. لقد خنت عشيرتي، لم أعد مسلما، ولست ابنا لأحد. أنا متشرد ومجرم. ها أنت تخبرني أن أبي قد توفي. أنت لا تخبرني عن شيء لا أعرفه. هو مات في اللحظة التي خطت فيها قدماي ذلك الطريق ليلا. كنت أعلم حينذاك ماذا أفعل وفعلته، الآن...

توقف عن الحديث، وانتظر بيتر أن تصدر منه كلمات أخرى. لذا سأل أخيرا:

– والآن.

هز إبراهيم كتفه قائلا:

– الآن ليس هو الماضي. شيء غبي أن أفكر في الماضي. كنت أتمنى لو تحول الآن ليصبح هو يوم أن فكرت في هجران قريتي.

أحس بيتر بأنه لزاما عليه أن يخبره برأيه الخاص في هذا المسألة:

– إبراهيم، ما فعلته كان بالفعل خطأ. كلينا يعلم ذلك. مع ذلك، أنت لم تفعل ما هو غريب أو شاذ. أنتم في رأس الصرة تعيشون في خضم أوقات غريبة. كل شيء حولكم يتغير بسرعة هائلة ويصبح أكثر تعقيدا. أنت، كما يبدو لي، غادرت قريتك عندما كان كل شيء بسيط وله إجابة تقليدية معتادة وذهبت إلى منزل نيكلسون. لم تكن حينذاك مستعدا لما شاهدته عنده. لكن بسبب غرابة ما رأيته،

كانت النتيجة هى أن أصبت بدهشة بالغة وتغيرت أحاسيسك نوعا. الناس جميعا فى كل أنحاء العالم يفقدون سلامهم عندما يواجهون بالمعيشة داخل المدن. عندما كنت أدرس فى قرية بالسودان، كان الأولاد يعودون من المدن القريبة وعلى آذانهم سماعات ويرتدون بنطلونات فضفاضة وينشدون أغانى الديسكو. كانوا يتصرفون لفترة بطريقة غير مألوفة وسخيفة، يخطرون فى مشيتهم ظانين أنهم قد تعرفوا على العالم من حولهم وينظرون باحتقار نحو الكبار من حولهم معتقدين إنهم على علم أعظم منهم. لا أحد محصن ضد ذلك. حتى أنا عندما أعود لوطنى سوف أواجه بمشكلة التلاؤم مع الأجواء هناك بسبب ما رايته وشاهدته يا إبراهيم. لست أنت وحدك فى هذا الموضوع!

هز إبراهيم رأسه:

- أعتقد أننى قد فهمت. لكن الفهم لن يغير شيئا من حالتى. لن أستطيع أبدا العودة إلى قريتى. فأنا ذاك الذى قتل أبيه.

نظر نحو بيتر. لقد جفت دموعه وتركت آثارا ملحية على خديه:

- لكن ماذا عنك؟ بالطبع لست مستعدا أن أظل هنا معك، أليس كذلك؟

- اننى أريد الصالح بالنسبة لك. أنا لا أرغب أن أظل وحيدا هنا. رؤيتك وأنت تتقن اللغة الإنجليزية تسعد قلبى، يشعرنى ذلك

بأننى إنسان مفيد. أريد أن أفعل ما فى استطاعتى لمساعدتك.
"ثم لمس رأس إبراهيم".

– ليس هناك ما يمكن أن تفعله لى. أنا إنسان مريض، قلبى حجرى، أمتلك قلبا جاحدا وعقل مرتبك.

فكر بيتر فى نصيحة نيكلسون، لكنه قرر أن يتجاهلها:

– حسنا يا إبراهيم، دعنا نستمر فى درس اللغة.

* * *

صباح اليوم التالى، توجه ناصر رئيس مكتب البريد إلى محل عبد الله ليشترى كراسة. هناك وجد عبد الله جالسا على مكتبه فى المحل بجوار النافذة، لذا تقدم بطلبه. زعق عبد الله فى مساعده الهندى طالبا إحضار المطلوب. هذا المساعد أحضر سلما ثم جمع السارى حول جسده وتسلق السلم متجاوزا علب الكبريت وعلب الأطعمة الصينية المحفوظة ومجموعة الصور الثلاثية الأبعاد التى بها صور للكعبة أو فتيات يغمزن بعيونهن، ثم تجاوز رفوف الأدوات الكهربائية المخزنة حتى وصل إلى مجموعة الكراريس وانتقى كراسة ذات غلاف أحمر وأزال عنها الغبار باستخدام السارى ونزل السلم وأعطى الكراسة لمخدومه بكلتا يديه. تناول منه عبد الله الكراسة ومسحها مرة أخرى وسلمها لناصر قائلا:

– تشترى حاجة ثانية؟

– لا أظن أنى فى حاجة لشىء آخر.

ثم اخذ يدور بعينه مستعرضا البضائع.

– ألا تريد مكواة كهربائية أو حلة لسلق الأرز أو مشعل بخور كهربائى؟

ابتسم ناصر:

– ليس الآن بالطبع لعدم وجود الكهرباء. نحن لسنا أغنياء مثلك بحيث نمتلك مولدا كهربائيا مخصوصا.

صاح عبد الله:

– أمتلك! تقول أمتلك! للعلم لا أستطيع أنا تملك أى قطعة من هذه البضاعة الراكدة التى سوف تقتلنى. أنا مدين لأكثر من تاجر كبير فى العاصمة الذين قد نفذ صبرهم! إذا استمر الحال هكذا فسوف أتعرض لقدر كبير من الأذى.

لم يعرف ناصر عن عبد الله أنه تفاءل يوما، فأنت تجده دائما فى حالة تخيل أسوا العواقب والنتائج. كان قدوم محطة الكهرباء هى المناسبة التى بها يصعد من درجات تشاؤمه، و، بالطبع تحققت أسوأ مخاوفه وثبت أنها على حق.

تبسم ناصر فى وجهه ولم يعلق. انه يحب عبد الله ويعلم أنه إنسان أمين. هو دائما ما يساعد الفقراء وطالما اعتز بكونه من أهل سفينة.

هو أيضا مؤذن الجامع القريب ولم يفوت مرة الآذان. أيضا، وهذا نادر، له صوت جميل يسر الإنسان أن ينصت إليه كأول صوت فى النهار، "... الصلاة خير من النوم، الله أكبر..". نداء عبد الله هذا يشجع الناس أن يغادروا مضاجعهم ويخرجوا ليحضروا الصلاة جماعة. طالما استمع ناصر إلى الآذان صادر من حناجر آخرين، لكن أصواتهم كانت مزعجة. أما عبد الله بجسمه العريض فإنه يصعد المئذنة خمس مرات فى اليوم ليدعو الناس بصوته الجميل للصلاة وبدون استخدام مكبر للصوت. انه يشبه بلال مؤذن الرسول وهو ذاك العبد الأفريقى الذى تحرر وأدى أولى نداءات الدعوة للصلاة على أيام النبى محمد.

يتذكر ناصر زيارة له للعاصمة. سمع نداء الصلاة من عشرات المساجد، فكل حى له مسجده الخاص وكل مجهز بمكبر الصوت الخاص به. فى لحظة واحدة تنطلق كل الأصوات لتتسابق وتتنافس وتعلو لكى تصل إلى أبعد مكان، وكأى شىء آخر فى العاصمة، تلاحظ المبالغة والتزيد.

– ليس عندك بالطبع كتب مدرسية.

سال ناصر بلا أمل. لقد اشترى هذه الكراسة لابنه وهى كل ما سوف تحتويه شنطته التايوانية.

– آسف، عليك أن تنتظر حتى تصلنى من العاصمة، لو علمت هذا الذى حدث، لأحضرت كتبا كثيرة.

مال ناصر بجسده وهمس له:

– أنت إذن لم تعرف، أليس كذلك؟

– أعرف ماذا؟

– أن مخزن الكتب سوف يدمر.

– ناصر.. كيف تقول مثل هذا الكلام؟

أمسك ناصر يد عبد الله بقوة:

– أنا آسف، لكن كان واجبا أن أتأكد، أنا كنت واثق، لكن كان على أن أسألك.

نظر عبد الله عبر ناصر إلى الجهة الأخرى من الحاجز الخشبى وقال هامسا:

– أن تذكر شيئا عن الشر تجده على الفور أمامك.

التفت ناصر فرأى هيبورث واقفا على الطرف الآخر من الحاجز. قال هذا مخاطبا المساعد الهندى:

– أعطنى ست حجارة بطارية بهذا الشكل. البطاريات التى اشتريتها منكم المرة الماضية فرغت فى ظرف ساعتين.

المساعد المبتسم دائما أسرع بإحضار البطاريات، فدفع هيبورث الثمن وغادر بدون أن ينطق بكلمة أخرى. قال ناصر:

– ما الذى قلته؟

– ما الذى قلته؟

– عندما وقع نظرك على الإنجليزى، أنت قلت...

– ما قلته فقد قلته.

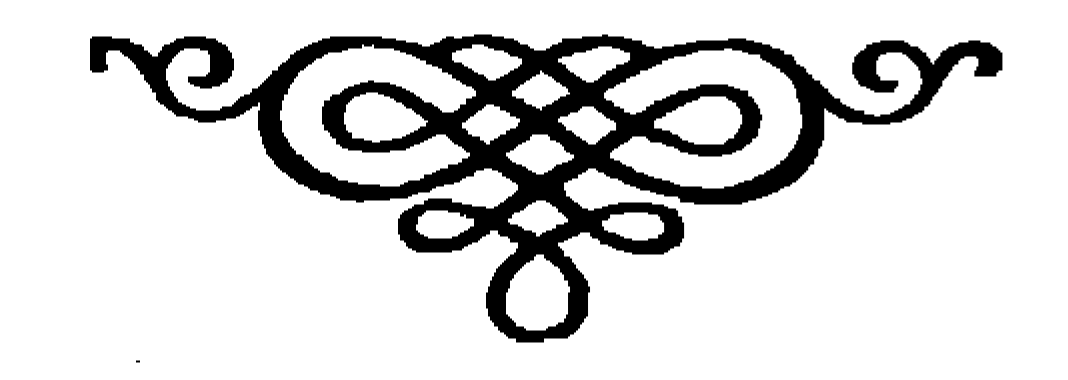
– عبد الله يا صديقى. ربنا يطول فى عمرك! عايزين مرة نخرج نصيد سمك سويا! لقد ندر ذهابنا مع بعض للصيد كالأيام الخوالى.

قالها ناصر بصوته العالى المعتاد.

– حسنا، بالفعل يجب أن نتصيد مرة أخرى، بدلا من وقفتى هكذا وأنا أشاهد استثماراتي وهى تتحول إلى تراب.

– شىء جميل. إذن نذهب اليوم بعد صلاة العشاء. موافق؟

هز عبد الله رأسه علامة الموافقة.



(١٣)

ليس هناك شك أن سفينة قد أصبحت مكانا خطرا. فمنذ احتراق مخزن الكتب، لاحظ بيتر أن رجال هيبورث من فرقة الصحراء قد انتشروا فى كل أنحاء البلدة، وقد أوقفوه أكثر من مرة سواء وهو فى طريقه للعمل أو عودته للمنزل. مع ذلك، فإن تواجدهم لم يبعث فى قلبه أى نوع من الطمأنينة. بل العكس، عزز عنده الشعور بتواجد ذلك التهديد المصلت على رقبة البلدة.

يوميا كان يتوقع أن يسمع من مستشار المجلس أن عليه أن يغادر سفينة على الفور، لكن بيتر لم يشعر أبدا أنه معرض للخطر، ففى العمل كذلك أثناء مساره فى أرجاء البلدة كان استقباله دائما حسنا. لم يلاحظ أن بقية الخبراء العرب قد اتخذوا منه موقفا، لذا تعجب من تحذيرات نيكلسون وهيبورث اللذين حاولا أن يبعداه عن سفينة بأى شكل من الأشكال. كان من المفترض أن يسرا لوجود بريطانيين آخرين رافعين العلم مظهرين أفضل ما فى جنسهم من صفات، أليس كذلك؟ إبراهيم الأسير عنده الذى لم يتركه لحظة لينخرط فى تخيلات سوداء، لم يفكر

أبدا فى هجرانه، هو أيضا ليس لديه مكان آخر يمكن أن يلجأ إليه. كان معزيا عظيما له بتواجده فى منزله واعتماده عليه، ووقف حائلا أمام تفكير بيتر فى مغادرة البلد. الآن هو لديه أكثر من نفسه يفكر فى شأنها، وقد أحب هو ذلك.

بعد انتهاء عمل هذا اليوم، لم يشأ بيتر أن يعطى درسا لإبراهيم. ترك له الريكوردر لكى يعلم نفسه بمجهوده الخاص واتجه إلى غرفته لكى يصمم تلك الجريدة التى دعاها باسم "الشرقية". فى المساء تعشيا خارج المنزل بينما هما يستمعان إلى محطة ال BBC

فجأة ظهر هيبورث بسيارته. تحدث قليلا مع بيتر وهو جالس فى السيارة اللاندروفر، لكنه رفض دعوة بيتر أن يجلس معهما ليحتسى الشاى. قال هيبورث:

– هذا الأخ ما زال عندك؟

– نعم.

صاح هيبورث وهو يبتعد بسيارته:

– تمتعوا ببعض جيدا أيها الأولاد!.

ثم ضغط على بوق السيارة وفى وهلة اختفى عن الأنظار بين طيات الظلام. بعض من الكلاب أخذت تنبح قليلا، ثم سكنت هى أيضا.

لهجة هيبورث تركت طعما سيئا فى فم بيتر، نفس الشعور الذى

أحس به عندما قابل نيكلسون. كان واضحا إنهما يظنان أن علاقته بإبراهيم ليست فوق مستوى الشبهات. يبدو أن خيالهم قد استقر على أن ما يجمعه هو إبراهيم ليس سوى علاقة جنسية.

فكر بيتر فى هذا الأمر. جزء من كيانه يخبره أن تلك الفكرة الراسخة فى عقول هؤلاء الإنجليز تعتبر مشكلتهم هم، لكن هى من الممكن أن تصبح مشكله تخصه أيضا. هل هو من النوع الذى ينجذب للرجال؟ ربما كانت الإجابة بنعم، فهو دائما ما يحس بالراحة وهو وسط الرجال. هو يقدر أصدقائه، لا سيما من يقاربونه فى العمر. لكنه لا يمكن أن يتصور بأى حال من الأحوال أنه يقبل صديقا، أوه - هذا الخاطر أضحكه - أو أن يذهب إلى السرير مع واحد منهم. إنه يعرف آلية هذه الأوضاع، لكنه على ثقة تامة بأنه لن يستمتع بإحدى تلك الأوضاع التى سمع عنها. عبر بيتر درورى عن حبه لأصدقائه عندما كان يساعدهم على تسلق أصعب قمم الجبال، حيث يقوم بمنحهم المشروبات المنعشة إذا كانوا بارعين، أو البقاء معهم إذا كانوا محشورين وسط الصخور حتى يصلوا إلى مقصدهم سالمين. إنه يعرف نفسه جيدا وأن لديه طاقة جنسية حبيسة، هو يشبه تلك الزهرة ذات الأوراق المعرضة للسقوط قبل التقاطها وشم رائحتها. لم يصرح لنفسه أبدا أنه ما زال فى حالته العذراوية. انه لم يتحقق أو يعترف بأنه قد "عملها" يوما بأكمل ظواهرها، وإنه بالفعل قد فقد عذريته - بالرغم أنه بالفعل لم يمارس أى شىء من هذه النشاطات.

واحد من أفضل برامجه، بدأ الآن يصدح من محطة BBC، واحد من الخبراء ومستقره مدينة الظهران بالسعودية طلب أن يستمع إلى أغنية "أخوة السلاح". سرح بيتر وهو يتطلع إلى النجوم وشارك المغنى "داير ستريتس" الغناء. استمع إليه إبراهيم، ثم طلب منه أن يكتب له كلمات الأغنية. تنهد بيتر ووعده بتنفيذ ذلك. ثم سأل إبراهيم:

– بيتر، لما أنت غير متزوج؟

فكر بيتر، يا الله، لقد وصلنا إذن إلى تلك النقطة. ضحك وأجاب:

– أنت بالذات تسألنى هذا السؤال! أنت من دون الناس كلهم!

– نعم. أعلم، لكنى قلت لك سابقا أننى مجرم وجاحد. كان من المفروض أن أتزوج، إلا أننى الآن لا أستطيع. لكن الموضوع مختلف بالنسبة لك. أنت تستطيع أن تختار لنفسك، لكنك لم تفعل.

– فعلا، هذا لم يحدث. لكنه سوف يحدث يوما ما. إذا تزوجت فمعنى ذلك أننى سوف أمتنع عن الترحال هنا وهناك بحريتى، لكنى أنا دائما ما أفضل الترحال بالمقارنة بأى شىء آخر.

– متى تتوقف عن غرامك هذا؟

– أعتقد يوما سوف أرغب فى الزواج وتكون تلك أقوى من رغبتى فى الرحيل.

– متى سوف يحدث هذا؟

– على منوال بلدكم هذه، لن يستغرق الأمر منى سوى شهرين.

لم يلاحظ إبراهيم النكتة فى تلك الإجابة، لذا سأل:

– لا يبدو أنك سعيد بإقامتك هنا فى رأس الصرة؟

– حسنا، إنها بلدة مثيرة للغاية، لكنى لست سعيدا فى عملى.

– لما؟

شعر بيتر أن الإجابة المهذبة التى يقدمها باستمرار على مثل تلك التساؤلات سوف تندفع فى زوره كأنما هى الحامض الحارق. لذا بلع ريقه وقرر أن يخبر إبراهيم بما يشعر به فعلا. لقد شعر بالأسى لأنه اعتاد أن يسرد على مسامع صديقه كل ما يسر، وهذا ليس به أى قدر من العدل لكليهما.

– حسنا، سوف أخبرك يا إبراهيم. تعلم أن مخزن الكتب تم تدميره ويبدو اننى سوف أنتظر شهورا حتى تصلنى الكتب الجديدة. حسنا، إذا كانت إمارة رأس الصرة فقيرة إذن لتقبلت الموقف بصدر رحب، لكن أنت استمعت لملخص الأخبار هذه الليلة وأن الأمير فضل قد وصل إلى لندن بطائرته الجامبو لعقد صفقة شراء طائرات حربية. حسنا، ربما أنتم بالفعل فى حاجة إلى طائرات حربية، أنا لا أعلم. سمعت أيضا أن الأمير سوف ينتقل إلى قصره الثالث. قصر واحد يعتبر ضرورة – اثنين يعتبر فيهما

قدر من التزيد بينما مملكته في حاجة للكثير والكثير، لكن ثلاثة قصور؟ هذا أعتبره نوع من الفجور. هي كذلك لأن أميركم لا يصنع ما هو واجب عليه. إذا استخدمنا واحدة من تلك الشعارات التي درسناها سويا، تلاحظ أنها تؤكد على مقولة "الأول يسير أولا". أنت تعلم كيف يعيش نيكلسون وكيف أعيش أنا. أنا لا أعلم بالفعل طبيعة عمل نيكلسون وما هو إنجازاته، لكن أحس بالغضب يشملني عندما أشاهده وهو يرفل في النعيم، بينما أنا ومعي باقي رجال التعليم، كذا أطفالنا في المدارس نعاني ونتعب. هذا لا يعني أنني أرغب في حياة العز والفخفخة. لا أريد ذلك. هذا يوضح مدى الفرق بيننا ويوضح ما أعنيه فيما يختص بالأولويات. ليس هناك في العالم أجمع شيئا في حاجة إلى أكبر قدر من الجهد والفكر والمراعاة أكثر من تعليم الأطفال. أعتقد أن مستوى حضارة أي دولة تقاس بمدى الرعاية التي تصبها على أطفالها. عندما بعثت إلى السودان أعطاني من أرسلني محاضرة طويلة، قال لي أن أقتصر على النظر أمامي فقط ولا أنظر حولي لما يحدث في ذلك البلد. معظم الوقت الذي قضيته هناك راعيت ذلك؛ جزئيا لأن إقامتي كانت في مكان ناء للغاية لا يدري به أحد. قريتي في السودان كانت أقل تطورا مما شاهدته هنا في سفينة. لكن حتى هناك، كنت أشعر بالغضب عندما يزورنا الرسميين في سياراتهم المرسيدس، يشعلون سجائرهم بالولاعات الدانهيل ويخبرونني بأنهم عندما كانوا في لندن كان مقرهم في أفضل

الفنادق هناك، كان يبدو لى أنه أمر شرير أن أظل هناك بذلك الأجر الضئيل وأطفالى فى المدارس ليس لديهم حتى الورق الذى يمكن أن يكتبوا عليه.

هز إبراهيم رأسه لكنه لم ينطق بشىء. أخذ بيتر شفطة من كوب الشاى ثم استمر فى القول:

– بالطبع هكذا يسير العالم وأنا أتعلم بأصعب الطرق. سوف أزهق يوما من الترحال لأن تلك الأفكار لا تود أن تغادر مخيلتى. أعتقد أننى أفهم ما يفعله المتمردين هنا وربما لو كنت من أهالى رأس الصرة لفعلت مثلهم. أرجو أن لا تندهش، لكن يبدو غريبا فى نظرى إذا شعرت أنت بالسعادة والراحة وأنت تشاهد بلدك وهو تدار بواسطة حفنة من الإنجليز. شىء جميل أن تكون الإدارة جيدة، لكن هى فى الحقيقة سيئة جدا هنا لأن البلد تدار بواسطة أصدقاء وخلان الأمير.

توقف بيتر قليلا لكى يلمح ردود الفعل على وجه إبراهيم، لكنه لم يلاحظ شيئا، لذا سأل:

– هل أنت معى؟

– نعم، أنا معك.

– هل تشعر بالغضب؟ أعتقد أننى كنت صريحا أكثر من اللازم.

– لا، لست غاضبا. أنت صديقى. لكنى لا أفهم كل شىء. أنت بكلامك هذا تشعرنى بجهلى.

- حسنا، ربما أنت جاهل بالنسبة لبعض الأمور، لكنك تعرف أشياء كثيرة لا أعرفها أنا. مثلا أنت تعرف كيف تصطاد السمك، كيف ترعى الحيوانات، تقتفى الأثر، كيف تتعايش وتعرف أشياء كثيرة نسيها الإنجليز. وأنت لك رغبة أكيدة فى التعلم. كثير من مواطنى انجلترا لا يرغبون فى التعلم أو أن ينفتحوا على ثقافات أخرى. لديهم العديد من الفرص والكتب، لكنهم لا يستخدمونها أو يستفيدون منها.

- لما هذا؟

هز بيتر كتفيه:

- لا أعلم. لكن صدقنى يا إبراهيم، أنت من الممكن أن تخجل عددا كبيرا من الطلبة الإنجليز.

- لكن نحن أيضا فقدنا الكثير هنا فى راس الصرة، فقدنا معارفنا كما أظن. عندما عدت إلى جهيل بعد خدمتى فى منزل نيكلسون، استلزم منى الأمر وقتا طويلا حتى أستعيد تذكر مهاراتى. إذا كان بقائى قد زاد عن ذلك فى سفينة، إذن لكنت قد فقدت كل معارفى بالكامل. لكنى على علم تام بمدى جهلى. أعلم الآن أن ما شعرت به من بؤس حدث عندما عدت إلى جهيل. هو مرض معين سوف يصيب الكثيرين من شباب قريتى وينتشر كأنه العدوى. ها أنت ترى، معارفى لم تعد تعمل لصالحى. حياتى أصبحت

كأنما هى قارب مثقوب تحت خط المياه، ربما لهذا السبب أريد أن أكتسب معارف جديدة. أنظر! أنا فى مقدورى الآن أن أحكى لك حكاية لطيفة، هل تود سماعها؟

شعر بيتر بالسرور يغمره:

– نعم، احكها!

قال: كان هناك رجلا حكيما اسمه جحا. يوما قال هذا الرجل للناس:

– أتدرون ما الذى سوف أقوله لكم؟

أجابوا هم،

– لا. لا نعلم

قال جحا:

– أنتم جهلاء. وأنا لا أخاطب الجهلاء أبدا. "ثم غادرهم على الفور"

بعد أسبوع عاد للناس مرة أخرى وسألهم:

– هل تدرون ما سوف أقوله لكم؟

نظر الناس بعضهم لبعض ثم أجابوا:

– نعم، نحن نعلم

أجاب جحا:

- إذا كنتم تعلمون، إذن ليس هناك ضرورة أن أخبركم بشىء.

ثم غادرهم. بعد أسبوع آخر عاد لنفس المجموعة من الناس قائلا:

- هل تعلمون ما سوف أخبركم به؟

نظر الناس بعضهم لبعض مبتسمين، نصف الناس قال، "لا. لا نعلم"، النصف الآخر قال، " نعم، نحن نعرف"

قال جحا:

- إذن نصفكم يعلم والنصف الآخر لا يعلم. إذا كان الحال هكذا، إذن على من يعلم أن يخبر من لا يعلم.

وغادرهم جحا ولم يعود إليهم مرة أخرى.

سأل بيتر:

- لكن ما المغزى من وراء هذه القصة.

- إنها تعنى أشياء كثيرة يا بيتر. لكن ليس عليك أن تسألنى عن المغزى وإلا غادرت المكان.

- إبراهيم، أرجوك لا تغادر!

ضحك بيتر عازما أن يكتب هذه القصة فى جريدته، بالرغم أنه لم يفهمها.

استمر الصمت بينهما. ثم وبيتر فى الظلام سمع إبراهيم وهو يبكى بحرقة. جلس مكانه شاعرا بقلة حيلته، يا له من صديق تعس. جلس بيتر مكانه جامدا يستمع إلى نهنهة إبراهيم المؤثرة. أحس بيتر بشعور بائس يكتنفه، وهذا ما تصنعه الدموع عامة فيه. تذكر فى الحال أطفاله السودانيين، ثم ببطء ومعاناة تذكر الأباطرة نيكلسون وهيبورث وكره نفسه لأنهم وردوا على خاطره، غضب من نفسه أيضا لأنه ذا إحساسات مرهفة لكنه مخلوق بذلك البرود الإنجليزى المعتاد فى نفس الوقت. اقترب من إبراهيم ووضع يديه حول صديقه وأخذ يربت على ظهره مواسيا، كأنما هو يهدهد طفلا صغيرا. شعر بالاندهاش من نفسه، شعر أنه بقليل من الجهد والمخاطرة عند الإقدام والمحاذير الواجب تجاهلها يمكن أن يحقق شيئا، لاحظ أن حالة القلق والخوف بدأت تنزاح وتتباعد. صاح إبراهيم:

– أبى ! أبى!. لقد قتلت والدى. ليس فى شىء صالح. أنا والميت واحد.

– لا. ليس كذلك أبدا. والدك بالتأكيد علم ما تعرضت إليه من ارتباك. انه يشاهدك الآن وقد غفر لك.

أخذ بيتر فى هزه مواسيا وهما جالسين بقرب بعضهما على عتب الباب.

* * *

فى وقت متأخر من نفس الليلة، خرج نيكلسون مرتديا ملابس عربية فقيرة، ووجهه وبشرته مدهونة باللون البنى الغامق، وقد قاد أمامه حمارا صغيرا خلال حوارى بلدة سفينة. الحمار محمل بحمل بسيط فوق ظهره.

أخذ يهمس لنفسه من خلال أسنانه ببعض أبيات الأغنية الشهيرة، "الحمار اللطيف! يحمل مارى الصغيرة فى طريقها". داخل البيوت التى عبر بها، لا شىء يتحرك. من خلال نافذة متهالكة غير مدهونة وصل إلى أسماعه صوت الشخير والغطيط. وصل أخيرا إلى وسط السوق، لاحظ أن الفئران تتسابق هنا وهناك فى كل أرجاء الميدان الخالى.

خاطب نيكلسون حماره كأنما هو صديق:

- هذا ما يسمونه فى عالم التجارة: استغلال الفرصة المناسبة.

لم يرد عليه الحمار.

أضاف نيكلسون:

- أعرفك بنفسى أيها الحمار المبجل، أنا سيمون نيكلسون، البطل المغوار وأنا فى خدمة جناب حضرتك.

ظل الحمار لا ينطق بشىء، ثم توقف عن السير، فضربه نيكلسون بقبضة يده، مما جعله يقفز عدة خطوات إلى الأمام.

وهو يفعل ذلك، تذكر نيكلسون أيام طفولته، عندما أرسل يوما بالونا مملوء بالغاز إلى العلى وقد كتب عليه اسمه وعنوانه، ثم شاهد

البالون وهو يشق طريقا نحو السحب العالية. كانت أوامره لهذا البالون أن يسبق كل البالونات الأخرى التى انتشرت فى السماء بألوانها الزاهية وبدت كأنها طلقات من بندقية فلاش جوردون. كان اعتقاده الجازم أن بالونه هو تحت سيطرته ورهن إشارته، ربما يشعر هذا البالون أنه حرا، لكن فى الحقيقة هو تحت إمرته وعليه أن يفوز بالجائزة الكبرى. فى اليوم التالى، تلقت والدته مكالمة تليفونية علمت منها أن ابنها قد فاز بجائزة قدرها خمسين جنيها. قال المتحدث أن بالون الابن قد وصل حتى سندونيا! اندفعت الأم لتخبره بذلك، لكن هو لم يندهش أبدا.

لفترة طويلة، ظل نيكلسون مستندا على جدار محل يستعرض الميدان الخالى، بينما الحمار يتجول هنا وهناك يتشمم الزبالة وهو فى قمة السعادة لأن لا أحد يوجهه أو يدفعه أو يضربه.

انهمك نيكلسون فى التفكير، "دعنى أشاهد المكان الذى تختاره بنفسك". كان ينوى أولا أن يربط الحمار بجوار مكتب البريد. كان مريحا له أن يفكر فى ذلك الغبى المدعو ناصر وحياته تضمحل ويختفى تماما عن الوجود. هناك شىء ما يشوب حياة هذا الرجل، لقد جمع هو عنه ملفا ضخما. ناصر هذا كان منغمسا فى نشاط مشبوه ضد الحكومة، نيكلسون متأكد من ذلك، لكن التحقيقات لم تضع تحت يديه دلائل أكيدة عن مدى تورطه، وأن يقبض على شخص له سمعة مدوية فى البلدة تحتاج إلى أكثر من الدلائل الظرفية.

وهو يراقب مستندا على الحائط، غير نيكلسون فجأة من قراره الذى استقر عليه هو أن يترك للحمار حرية اختيار مكان الانفجار، إلا أنه وهو يتحرك متجها نحو الحمار، سمع صوتا صادرا من المنزل المجاور للمحل. سمع أولا صوت عود كبريت يشتعل ثم نور لمبة جاز تنشر شعاعها من خلال نافذة عبر الميدان. بالرغم من ذلك، فكر بأن هناك وقت كاف لكى يقيد الحمار فى المكان المختار. سار نيكلسون بخفة مبتعدا عن دائرة الضوء الذى مبعثه المصباح، وما أن أمسك بلجام الحمار حتى شعر هذا الحيوان بالخوف وبدا فى النهيق بصوت عال.

"هششش". كانت هذه أوامر نيكلسون للحمار وهو يلاحظ أن الأصوات الصادرة من المنزل المقابل ما زالت مستمرة وتتزايد، كان هذا النهيق هو القشة القاصمة، استدار سريعا وهرب من الميدان عائدا إلى حماية الظلام ثم تبع مسار الشاطئ حتى وصل إلى مستعمرته.

عاد الهدوء مرة أخرى إلى الميدان. أخذ الحمار فى التجول لفترة إلى أن توقف أمام باب المسجد الرئيسى للبلدة. وجد بعض عروش الجزر أخذ يلوكها وهو فى منتهى السعادة، علما أن القليلين كانوا يعلمون أن تلك آخر وجبة يتناولها هذا الحمار المسكين.

* * *

انفجرت القنبلة فى مسجد الجمعة بالبلدة. واحدة من المنارات تهدمت تماما، بينما الأخرى فقدت نصفها العلوى، بينما تناثرت بقايا الحمار بين الحطام مضيفة إهانة أخرى إلى تلك المصيبة التى حلت على هذه البلد.

حزن أهالى سفينة حزنا لا يقدر، ولم تفتح محلات الميدان أبوابها اليوم التالى. السمك الذى ورد اليوم ترك للذباب يلغ فيه. ثم توافد الناس من كل مكان بالبلدة ليشاهدوا ما حدث. كانوا يقتربون من الجامع ثم يحدقون لبضع ثوان، بعدها يبتعدون وأمارات الحزن والأسى تطغى على ملامحهم، كأنما التحديق أكثر من ذلك قد يدنس مبناهم المقدس.

هذا المسجد له من العمر مائتى عام. وكان قد بناه تاجر ثرى، مصدر ثرائه هو تجارته فى البن والتوابل التى كان يجلبها من زنزبار وموانئ الهند وملقا. كان هذا المسجد هو هدية منه وذكرى له. لم يبخل عليه بأى إنفاق لكى يجمله ويزينه: بلاطات زرقاء مستوردة من أصفهان، سجاجيد الداخل منسوجة ومستوردة من نائين وقم. لكن أثمن ما فى هذا الجامع هو زجاج النوافذ، وهى تلك التى دمرها الانفجار بالكامل.

ذهب هيبورث ليتفقد الدمار صباح يوم الخميس. لم يستمر بقائه فى المكان كثيرا لأن الناس كانوا يشيرون نحوه، يبدو عليهم أنهم يعتبرونه مسئولا عما حدث، بل إن ولدا رمى نحوه بحجر.

وهو عائد إلى سيارته، أخذ يزعق، "اضبطوا عيالكم هؤلاء"، لكنه لاحظ أن الناس كانوا واقفين ساكنين فى أماكنهم يراقبون.

فى أذهان ناس سفينة، كانت تدور أفكار تدهش وتصدم كل من نيكلسون وهيبورث. هم يعلمون أنه لم يحدث أبدا أثناء الحرب الأهلية أن تجاسر أحد من المتمردين وهاجم مسجدا. ليس هذا بأسلوبهم. ربما يهاجمون محطة الكهرباء أو حتى مخزن الكتب، لكن الجامع، مستحيل. المتمردون هو أولا وأخيرا مسلمين يدعون نضالهم بالجهاد. كان جوهر دعوتهم هو أن الثروة التى مصدرها العاصمة ليست سوى صنما جديدا يقدم لهم لكى يبعد عن أذهانهم الحق والحقيقة. يحاول الأهالى الآن استرجاع دعايات المتمردين بينما هم يتطلعون لحطام المسجد. تملكهم العجب، *هل هذا هو العقاب الذى حل بهم لأنهم تقبلوا أن يحكموا بواسطة* أعوان الأمير من الأجانب، كذلك من أجل عيون كل تلك البضائع المستوردة؟ السيارات الحديثة تتعطل وبالتالى هى فى حاجة إلى خبرة الأجانب لتصليحها، المعدات والأدوات الحديثة تتفكك عند أقل استعمال ولا يمكن إصلاحها. كل شىء فى حاجة إلى إنفاق أكثر ولم يعد أحد يهتم بالمهارات التى تقدمها سفينة ذاتها.

المشاعر الدافقة التى تعزز فكرة أنهم يستحقون ما جرى لهم، مطعمة بوجهة نظرهم عن متمردى زمان، وعدد كبير من هؤلاء معروفين لهم بالاسم وترعرعوا بين أحضانهم، يجعلهم متأكدين أن المتمردين لم يفعلوا آخر تلك المصائب التى حلت على البلدة. لكن إذا لم يكن هم الفاعلين، إذن من فعلها؟

ذهب هيبورث إلى المستشفى وطلب من الجميع أن لا يذهبوا للسوق هذا اليوم. قابل جوانا وعرض عليها أن تذهب معه إلى معسكر فرقة الصحراء لكى تستحم هناك فى المساء. قالت هى بأنها قد دعت بالفعل كل من السيدة مارى آن وكذلك المفتش بيتر للعشاء عندها.

– ألا تريدين رابعا معكم؟

قالها هيبورث وهو فاقد للأمل.

– لا. شكرا لك.

نطقت بها جوانا وهى لا تتظاهر بأنها إجابة مؤدبة.

– حسنا. بخاطرك ! لو كنت مكانك ما ذهبت للسوق اليوم لأتبضع.

– ذهبت بالفعل مساء الأمس. شكرا.

* * *

اندفع هيبورث إلى مكتب نيكلسون صائحا:

– حسنا، أنت الذى فعلتها هذه المرة أيضا!

هز نيكلسون رأسه موافقا.

– هل هذا كل ما تنطق به؟

– يجب أن تلوم الحمار.

ظهرت ملامح غاضبة على وجه هيبورث:

- ألوم الحمار! لا بل ألوم العربجى الذى قاد الحمار! ما الذى جرى لك. لقد اتفقنا أن تعقله أمام باب مكتب البريد وتتركه هناك. لكن لا، لست أنت! إذا أردت أن تستمع لرأيى، أقولها لك بكل وضوح أيها الولد العجوز، لقد هانت قبضتك.

- حسنا، أعتقد أنها خرمت معى هذه المرة. كان من المفترض أن تكون العملية أفضل من ذلك.

انفجر هيبورث:

- أفضل من ذلك! هل نحن فى مدرسة ابتدائية فى نهاية العام. لعلك لا تعلم، نحن فى عالم الناضجين المتفقهين.

شعر هيبورث أن موازين القوى قد تعادلت، فمنذ قيامه بحرق مخزن الكتب وقتل الحارس، عادت إليه عناصر الثقة فى النفس مرة أخرى، ملاحظا أن نجم نيكلسون بدأ فى الأفول. استمر فى القول:

- لقد عرضتنا إلى خطر داهم، "ثم أدار سكينه فى الجرح أكثر،" ما حدث بالأمس رجعنا إلى الوراء ميلا بأكمله. أى مغفل فى البلدة يمكن أن يخبرك بأنه من المستحيل أن يقدم المتمردين على تدمير الجامع. ألا تدرى ذلك؟

أجاب نيكلسون بهدوء بالغ:

- علينا إذن أن ننتقل إلى المرحلة التالية.

– ما هى المرحلة التالية.. نضرب مكة بالقنابل؟

– لا، ليس كذلك. الجملة الهامة فى موضوعنا كله هى "أن نفعل كل ما هو ضرورى". علينا إذن فى هذه المرة أن نؤكد لهم أنه حتى الأجانب ليس لديهم مناعة من الهجوم عليهم. ولأن العرب هم الذين تلقوا الضربات حتى الآن، لذا لا مانع أن نضحى بأجنبى أو أجنبية من جنسنا. إذا كان تدمير المسجد – وللعلم كنت أنا من المعجبين بتصميمه – أدى إلى استفسار الناس عمن فعلها، فإن حدوث قتل لأحد الأجانب سوف يحول ويغير من اتجاهات أفكارهم. لا سيما إذا كان هذا الأجنبى قد أدى خدمات جليلة لهذه البلدة.

بدا الاهتمام على وجه هيبورث:

– إذن من ترشحه لذلك؟

– بالطبع ما فيش غيرها. الحيزبون الأمريكية. هى معروفة للجميع وقضت سنوات طوال هنا. إذا قتلت، سوف تجد الجميع يقفون فى صفنا.

– لماذا لا تكون جوانا... إنها تقرفنى!

– ربما هى تقرفك، لكن هى لم تعش هنا مدة طويلة، لذلك لن تحدث فرقا كبيرا. بالعكس، الممرضة سيسون حصلت على جائزة من الأمير بسبب خدماتها للبلد، إنها بالطبع ليست أمنا تريزا، افعلها وانظر ماذا تجنى.

- نعم، اعتقد ذلك، هل لديك خطة معينة؟

- هناك خطة، لكنها لم تختمر بعد.

- إذن تأكد أن يكون لى دور فيها.

- بالطبع يا هيبورث، بالطبع.

ثم قدم لهيبورث مشروبا وغير الموضوع:

- لكن، ما أخبار الحب معك؟

أجاب هذا:

- زى الزفت. الست جوانا عبارة عن لوح ثلجى. اليوم أخبرتنى أنها سوف تعزم هذه الحيزبون كذلك المفتش الغبى على العشاء. قالت لى بكل وقاحة بأنها لا ترحب بى لأنضم إليهم، تصور؟

- أين سيكون هذا الاحتفال؟

- فى منزلها بالطبع.

بعد فترة من التفكير، قال نيكلسون فجأة:

- انظر. هناك شىء من الممكن أن تفعله لى. تجسس حول منزل هذا المفتش وتأكد أن رفيقه قد خرج.

- حسنا، أستطيع أن أخبرك الآن. رأيتهما سويا الليلة الماضية ورأسيهما متقاربتان جالسين على عتبة عش الغرام".

قالها هيبورث وقد بدأت الخمر تعشش فى دماغه.

- أه. إذن هكذا الحال، ربما يكون لإبراهيم هذا دورا مهما فى خطتى الكبرى التى تكتمل خطوطها الرئيسية الآن فى ذهنى.

- لن نستخدم حميرا هذه المرة يا سيمون.

- وحياتك، لا حمير بعد اليوم.

نظر إلى هيبورث مبتسما فى وجهه متخيلا كيف يكون اللجام مناسبا عليه.

* * *

فى مساء اليوم التالى، كان نيكلسون واقفا يراقب بنظارته المكبرة وصول بيتر درورى حتى مجمع المستشفيات. رأى بيتر فى سيارته اللاندروفر يقف خارج منزل جوانا، ثم وهو يترجل منها ويعدل من وضع رباط عنقه ويصفف شعره باستخدام المرآة الجانبية للسيارة، قابضا بيده على علبة "كوالتى ستريت" اشتراها هذا الصباح. تقدم نحو باب جوانا وبمجرد أن طرق الباب حتى فتحت هى له مرحبة ثم اختفى فى الداخل.

فكر نيكلسون، "الآن سوف يستغرق خمس دقائق يقدم اعتذارات لأنه حضر وبرفقته علبة حلوى تافهة".

أدار جهاز الفيديو والتلفزيون وجلس يشاهد جزء من مسلسل "جوهرة التاج". كانت أمه ترسل له هذه الحلقات أسبوعيا منذ عدة سنوات، واستمرت بعدها زمنا تطمئن منه ما إذا كان المسلسل قد أعجبه أم لا. لقد أعجب به بالفعل وداوم على مشاهدة حلقاته للمرة المليون، ولو أن هناك أجزاء فى المسلسل تؤثر فيه وتوجعه.

شاهد أربع حلقات من "جوهرة التاج". لقد أحب شخصية ميريك وأراد له أن يكسب المعركة، لكنه لن يكسب بالطبع. إذا كان قد كسبها لما قبل الناشرين طبع الرواية. إذا كسب ميريك فى الحياة الحقيقية، إذن لظل الإنجليز محتلين الهند حتى الآن ولم تعد هناك قصة مؤثرة تحكى. بطلة القصة وهى دافنى تجعله يشعر أحيانا أنه يود أن يقىء. دافنى هذه تمثل كل ما هو سيئ بالنسبة للاستعمار الإنجليزى وذلك بسبب آرائها التحررية. يتوافق هو تماما مع تلك الشخصية التى شاهدها فى مسرحية ما تصرخ عندما علمت أنهم قد نصبوا أسقفا على بومباى: "أليس هذا يحمل المسيحية أكثر مما تحتمل؟". فى رأيه الجازم أن المبادئ المسيحية هى التى دمرت الإمبراطورية البريطانية. هو على اقتناع كامل أن المسيحية تلك يمكن أن تحتمل كجزء من الحياة الناعمة فى بلادهم، لكن أن ترحل إلى أماكن أبعد من ذلك، فهذا الخراب بعينه. هذه المبادئ تهز أركان القوة والسيطرة وتجعلها دائما فى حالة من الانكماش والتراجع. لا يجب بأى حال من الأحوال أن يترك لها الحرية أن تنتشر خارج نطاق انجلترا، هى فى الحقيقة تشبه الأمراض التى تصيب الفم أو القدم.

شاهد حلقة أخرى ثم فطن إلى أن الوقت قد حان. لن ينفذ خطته الجديدة بنفسه هذه المرة. هو لديه الأتباع المدربين على فعل كل ما يشير به، وهم يتمتعون بذلك ويرحبون به.

أمسك نيكلسون بسماعة التليفون واستدعى اثنين من أتباعه البدو المخلصين. هما اثنان طوال القامة مظهرهما يشبه الصقور - منبتهم هو قبيلة ترعرعت فى قلب الربع الخالى وهم مشهورين باستقلاليتهم واحتقارهم البالغ للفلاحين الودعاء أو الصيادين الذين يعيشون بقرب الشواطئ.

عندما يكون مقامهم فى سفينة، إذن تجدهم متجمعين فى داخل مستعمرة نيكلسون. من هناك يؤدون كل المهام القذرة التى يكلفهم هو بأدائها . أنهم يخلفون ورائهم زوجاتهم فى قلب الصحراء ولا يعودون إليهن إلا لمدة أسبوعين كل ثلاثة شهور. بشكل مختلف يعتبرون من الخبراء. مع ذلك، كان نيكلسون يسمح لهم أن يفرغوا طاقاتهم الجنسية الحبيسة فى المساجين وهم رهن التحقيق. التهديد بذلك ربما يكون كافيا لأن يدلى السجين على الفور بكل المعلومات لديه. إذا أبى أحدهم الحديث طوعا، فإنه يطلقهم عليه ويتلذذ وهو يشاهدهم ينتهكون الضحية.

- مراد أنت وزين، ربنا يعطيكم العافية! لدى مهمة أود أن تقضوها الليلة.

ابتسم كليهما.

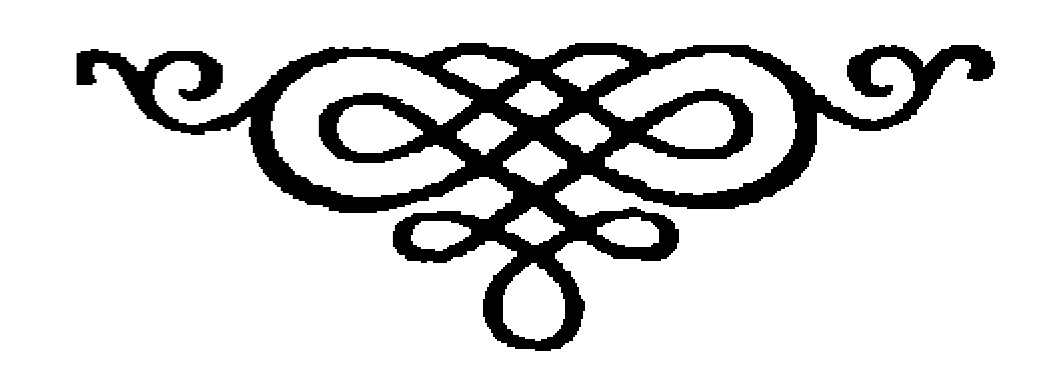
- هناك منزل صغير فى الصحراء ما بين المستعمرة وبلاد سفينة، فى هذا البيت سوف تجدان شابا صغيرا، هو من جهيل وسوف تتعرفون عليه فورا لأنه كان يعمل عندى سابقا. هذا الولد فعل أمورا مشينة لبلده جهيل. أريدكم أن تحضروه إلى هنا، وقبل نقله لكم مطلق الحرية فى تدمير كل ما تشاهدونه فى هذا المنزل. إذا لم يأت طوعا يمكن أن تستخدموا القوة معه، لكن لا تقتلوه. غموا عينيه بعد ذلك انقلوه إلى هنا وضعوه فى الزنزانة. إذا كنتم تشعرون بالجوع استعملوه. أنا أعذركم وأنتم بعيدين هكذا من زوجاتكم.

كليهما رفع يده بالتحية واستعدوا للخروج، ثم أضاف هو:

- شيء آخر: افعلوا ذلك الآن. أريده فى هذه الزنزانة فى ظرف ثلاث ساعات لا أكثر. هل هذا واضح؟

أجابوا "واضح". ثم خرجا لتنفيذ الأوامر.

جهز نيكلسون لنفسه كأسا مترعة، ورجع للفيديو ليشاهد تلك الحلقات المدهشة.



(١٤)

صاحت ماری آن وهی تستعرض المائدة التی زینت بالشموع والورود ونصبت بشكل رائع:

– لقد تجشمتی جهدا بالغا من أجلنا یا جوانا!

وافقها بیتر علی ذلك، "هذا صحیح". هو یشعر الآن براحة عمیقة بعدما احتسی كأسا من الشیری. قالت جوانا:

– أخشی أنكم تتخیلون أمورا. عندما تتناولون الشوربة فی أطباقی هذه، قد أضطر أن أحملها وأغسلها فی المطبخ لكی أضع فیها قطع الفراخ. أیضا لیس لدی سوی ثلاث كئوس، لذا انتم مضطرون أن تستخدمونها هی أیضا فی شرب الماء والخمر أیضا.

تساءل بیتر:

– خمر! كیف توصلتی إلی الحصول علی هذا الصنف الرائع؟

– فی الحقیقة الأمر فی غایة البساطة. لقد صنعته فی الیوم التالی لحضوری إلی هنا. اشتریت وعاءً واسعا من البلاستیك

وكمية من الزبيب وقدر محترم من السكر من السوق، ثم طبقت وصفة قديمة تعلمتها فى مدرسة "أنقذوا الأطفال"، بذلك اخترعت هذه الخمر.

قالت مارى آن:

– هذا شيء رائع. أنت إنسانة صبورة للغاية!

ضحكت جوانا بطريقتها العفوية، التى تبدو أحيانا كأنها مغلقة بنوع من الوقاحة، بل هى قادرة أن تصبح سمجة اذا توافرت الظروف. لذلك قالت:

– لا، أنت تبالغين كعادتك!

ابتدءوا فى تناول الشوربة. قالت جوانا:

– فى الواقع هى شوربة معلبة، لكنى تمكنت من إضافة بعض من عش الغراب من صنف مالنج.

أخذوا يتبادلون المجاملات المعهودة إلى أن وصلوا لموضوع أكل قطع الفراخ. وجد كل من بيتر وجوانا قدرا بالغا من الصعوبة فى مضغ لحم الفراخ وهما يتبادلان الحديث.

مارى آن كانت متحفظة نوعا ما. هى لم تتفتح تماما مع جوانا إلا فى تلك الليلة التى حدث فيها حريق مخزن الكتب، لذا تجدها الآن وقد عادت إلى قوقعتها المفضلة. تبتسم وتوافق على كل شيء، لكن هى غارقة

فى عالم آخر. أحس كل من بيتر وجوانا بلذة تبادل الحديث، لكنهما تحفظا قليلا بسبب منظر مارى آن.

أخيرا، لم تحتمل جوانا الموقف أكثر من ذلك. لذا تساءلت وهى تتجرع كمية كبيرة من الخمر:

- إذن إلى متى يمكن أن نتحمل ما يجرى هنا؟

حدجت مارى جوانا بنظراتها قائلة:

- كل شيء على ما يرام. اعتقد أننا سوف نجوز هذه المتاعب بكل سلاسة.

قال بيتر:

- لا أعتقد أن هذا ما تقصده جوانا.

فكرت جوانا:

- الحمد لله! بالطبع لم أقصد ذلك، اقصد ما يقع من أحداث هنا فى سفينة.

بيتر:

- حسنا، لأكون صريحا، أقول بأن الأمور بدأت تخيفنى.

جوانا:

- وأنا أيضا. كل شيء يحدث بشكل غير منطقى. لما يدمرون المسجد؟ هل تظنهم راغبين فى اكتساب الناس إلى جانبهم. لكن هذه ليست هى الطريقة المناسبة لفعل ذلك.

سال بيتر مارى آن:

- ما رأيك فى هذا الموضوع يا ريسة؟

- من، أنا؟ لا أدرى، ليس لدى أى فكرة. أعتقد أنه من الأفضل أن لا يفكر الإنسان فى هذا الموضوع كثيرا. دع الأمور لمن يستطيعون. أعتقد أن مستر نيكلسون وهيبورث يفعلون كل جهدهم لحمايتنا. لقد عينوا عددا أكبر من الحراس أمام المستشفى وفى كل مكان. أعتقد أن الأمور سوف تتحسن عن ذلك. كانت الأحوال أسوأ من ذلك كثيرا أثناء الحرب الأهلية.

ثم عادت مارى آن تتعامل مع قطعة الفراخ التى أمامها.

تساءلت جوانا:

- هل وضعوا حرسا فى المكان الذى تسكن فيه يا بيتر؟

- لا لم يحدث. هل من الضرورى أن يفعلوا هذا؟

- هل طلبت أنت حرسا؟

- حسنا. لم يحدث.

- أنت تعيش فى معزل هناك.

قالت مارى آن:

- لكن أنا لا أظن أن أحدا فى إدارة التعليم يمكن أن يتعرض للخطر. أثناء الحرب الأهلية لم يهاجم المتمردين سوى الأهداف العسكرية.

- لكن لا تنسى يا مارى آن أنهم دمروا مخزن الكتب!

- لم أنسى، أعتقد أننى كنت أفكر بصوت عال. بصراحة الموضوع بدأ يزعجني، هذا المرة، الموضوع مختلف تماما . أنا ليس لدى وقت لأن أفكر فيما يصنعه المتمردين والارهابيين. لكن أعترف لك بأن المتمردين فى الحرب السابقة كانوا يستحقون الاحترام. كانوا دائما يهاجمون المواقع التى يكرهونها. لكن هذه المرة، الأسلوب مختلف وملئ بكل ما هو خسيس وغبى.

قالت جوانا بانفعال:

- أخبرى بيتر عما نطق به عثمان.

تساءل بيتر:

- عثمان؟

- نعم، حارس مخزن الكتب، ذاك الذى قتل.

- أتذكر عثمان هذا . لقد ساعدنى فى ترتيب الكتب قبلما تشتعل النيران فى المخزن بيوم واحد.

تبسمت مارى آن:

- هل فعلا حدث هذا؟ هذه هى شيمة عثمان. إذا أحبك فإنه يفعل أى شىء لمصلحتك. أعتقد أنه كان معجبا بك، لأنه اذا لم يمكن كذلك فإنه لن يفكر أبدا أن يمنحك بعضا من وقته.

صاحت جوانا:

– إذن، بيتر ليس هو الشيطان.

تضرعت مارى آن:

– أرجوكى يا جوانا، لا.

استمرت جوانا فى الحملقة فى مارى آن التى لم تبادلها النظرات، لكنها كانت تبدل من وضع حبات الأرز فى طبقها.

أخبرت جوانا بيتر:

– عثمان قال شيئا قبل وفاته إلى مارى آن.

– حدث هذا؟ كنت أظن أنه توفى على الفور.

– هو تعرض للخنق، لكنه لم يمت على الفور. مات وهو فى المستشفى.

أطلقت مارى آن تنهيدة صعبة قائلة:

– وهذا الأمر يزعجنى أيضا. الخنق. ليست هذه هى الطريقة التى يستخدمها العرب فى القتل. لا يقتلون باستخدام هذا الأسلوب. الدم يجب أن ينزف سواء وأنت تقتل فرخة أو إنسان.

نظر بيتر نحو مارى آن:

– أتقولين أنك تظنين أن القتلة لم يكونوا عربا؟

هزت مارى آن رأسها. لم تكن تلك أشارة تدل على إنكارها لتساؤل بيتر أكثر من كونها عدم الرضى عن التملى فى تبعات أفكارها.

تساءلت جوانا فجأة بكل حدة، لدرجة أن بيتر ود لو لكز ساقها خلف المائدة:

– عثمان؟

وضعت مارى آن شوكتها فى الطبق قائلة:

– كنت أظن دائما أن الإنجليز لا يتحدثون إلا عن أحوال الجو والطقس. انه موضوع ممل غالبا اذا أعدت التفكير فيه. نحن مخلوقات الله على الأرض. الجو والطقس هما الشىء الوحيد اللذان يتحكما فينا كبشر. اذا أمكن للأزهار أن تتحدث فإنها لن تتكلم إلا عن الجو ومفاعيله، لأنك عندما تتحدث عن الجو، إذن أنت تذكر أهم عنصر من عناصر الحياة على الأرض. أنت تلون الجزء الأكبر من انطباعاتك، ثم تتركها لكى تنفرج التفاصيل تباعا. ألا يمكن أن نتحدث عن الطقس؟

– مارى آن!

نظرت مارى نحو جوانا، التى بدت من نظراتها أنها لن تتوقف. لذا قالت:

– عثمان، نعم عثمان. لقد قال لى شيئا قبل وفاته. قال لى الإنجليزى شيطان. استخدم هذه الجملة كأنه يشير إلى شخص معين.

مع ذلك، تذكرى أنه كان مقدما على الموت، بل ربما يكون قد مات فعلا. لقد حاولنا أن ننعشه فى المستشفى. بالتأكيد هو كان يعانى فى تلك اللحظة من نقص خطير فى توارد الدم إلى المخ، بل ربما يكون قد حدث له تلف خطير فى خلايا المخ. لا أعرف كيف يمكن للإنسان أن يلتفت بجدية إلى حديث يدلى به وهو فى هذه الحالة.

قالت جوانا، وقد رجع إليها الطابع اللطيف مرة أخرى:

– الآن يمكن أن نتحدث عن الجو.

لم تجب مارى آن. قامت جوانا ونقلت الأطباق الفارغة، ثم عادت ومعها طبق ضخم من حلوى الترايفل:

– الآن هذا الصنف صنعته جيدا، لكن للأسف الكريمة واردة من الدانمرك واللبن من نوع نيدو المجفف، لكن الباقى عبارة عن منتجات حقيقية.

تناولوا الحلوى فى صمت. فكر بيتر، الإنجليزى شيطان، ربما كان يعنينى أنا بهذا الحديث. ربما يكون قد نظر إلى الكتب كشىء يمكن أن يضل التلاميذ، فهى كتب مليئة بالصور وكثير من المسلمين لا يرحبون بالصور. يا الله، يا له من أمر مقبض!

بعد احتسائهم القهوة، قامت مارى آن معتذرة بأنها مضطرة للرحيل لكى تذهب للمستشفى لتشرف على انتظام العمل هناك.

شكرت جوانا بحرارة، لكن كان واضحا أنها فى حالة انفعال بالغ بسبب النقاش الذى دار أثناء تناول الطعام.

قام هو ليساعد جوانا فى غسيل الأطباق. قالت جوانا:

- مارى آن تبدو أحيانا غريبة الأطوار.

- حسنا، لقد قسوتى عليها نوعا ما. لما لم تخبرينى عن موضوع عثمان، اذا كان من المهم أن أعلم؟

- كنت أظن أن لديها بعض الأفكار عما حدث.

- حسنا، ما رأيك أنت؟

- ليس لدى رأى محدد - لكن هى مجرد شكوك. كنت آمل أن تحقق مارى آن شكوكى.

- حسنا، هى لم تفعل. إذن انطقى أنت بها.

- لا.

- لما لا تذكرينها؟ هل تريدين ازعاجى؟ ليس لطيفا أن يذكر عن شخص ما أنه شيطان من فم رجل على شفا الموت.

توقفت جوانا عن دعك فناجين القهوة قائلة:

- اعتقد أنك لم تصل بعد للحقيقة. أنا متأكدة أنه لم يقصدك أنت بالذات.

- حسنا، إذن من كان يقصد؟

- لا أعلم.

- من تظنين كان يقصد؟

نظرت نحوه كما لو كان تلميذا بليدا. تساءل هو غير مصدق:

- تقصدين ربما يكون نيكلسون أو هيبورث!

- بالطبع واحد منهما. هـــذه هي نظريتي - لا، ليست نظـرية، لكنها وجهة نظر أكيدة.

- ما الذي يدعوك إلى هذا الشك؟

- أولا وقبل كل شيء، أنا متوافقــة تماما مع الجمــلة التي نطق بها عثمان، أعتقد أن هناك شيطانين وليس واحــد وذلك بسبب ما شاهدته من أفعالهما. ثانيا، اذا فكرت جيدا في الموضـوع، أعتقد أنهما....

- ماذا؟ أخبريني بكل ما يدور في ذهنك.

- انه ليس فكرا واثقا، ليس لدي الدليل. فقط أشعر أنهما هما اللذين صنعا كل هذه الأفعال الإجرامية. لا أفـهم لما، لكني على يقين بأنهما قادرين على هذا الفعل. هما لهما طباع الأسود والصقور، لكن لا يتمتعا بحسن أخلاق هذه الأعاجم. هما ليسا سوى اثنين من المرتزقة استمر بقائهما هنا لسبب أو آخر. هذا القطر كله

يدار بنوعيات تماثلهما – لكن هما يشعران بقوة غير عادية فى مقرهما هنا فى المنطقة الشرقية. الآن، لما يشعران بهذا القدر من القوة هنا بالذات؟ كل مناطق الإمارة بها أقسام للبوليس المحلى، لكن ليس هنا. ما زالت الحكومة تنظر إلى هذه المنطقة وتعتبرها غير آمنة وإخلاص الناس محل نظر. تخيل نفسك أنت واحد منهما، تحصل على ألفين من الدراهم كل شهر وتعيش فى بحبوحة هنا. إذا لم يحدث شيء يبرر تواجدك، إذا حضر إلى هنا خبراء مثلنا ويحصلون على أجر زهيد ويتعايشون راضين بذلك، إذا تصورت نفسك وقد شحنت مرة أخرى لانجلترا لكى تقف فى طابور الشحاذين. فقط تصور انك مكانهم، وأنت ليس لديك أى معيار من المعايير الأخلاقية. ما الذى سوف تفعله؟

فكر بيتر فى هذا الموضوع لفترة. لم يحر بالإجابة لكن أخيرا قال:

– بالطبع سوف أبرر استمرار تواجدى هنا.

– كيف؟ تذكر أنك بلا معايير أخلاقية.

– بأن أجعل الأحوال تبدو كأنما الإضطرابات ما زالت قائمة.

ألقت جوانا كوبا بعنف فى الحوض، عندما التقطته وجدت به شرخا.

– الآن، لم يعد عندى سوى كوبين فقط.

قالت ذلك بحماس بالغ. حينئذ شعر بيتر بالخوف يمسك بتلابيبه:

– مع ذلك، هذه مجرد شكوك. بالتأكيد الحكومة وصلت لنفس التحليل الآن!

– لكل النوايا والأغراض، أقول لك أيها الفتى السخيف، هما الاثنان يمثلان الحكومة.

جفقت جوانا يديها، تقدمت نحوه. ظن للحظة أنها سوف تضربه قلما، لكنه قبلته، قالت:

– اشعر بالخوف يا بيتر.

– أنا أيضا.

– لكن ليس منى بالطبع.

– قليلا.

– لا تخف.

– فليكن كقولك.

– أنت بالطبع لا تود أن تعود إلى منزلك فى هذا الظلام القاتم.

......

– لا بالطبع. المرضة قالت كلمتها.

قادت جوانا مريضها المنذهل إلى غرفة النوم.

* * *

أوقف كل من مراد وزين، رجال نيكلسون، السيارة الشيروكى على بعد ١٠٠ ياردة من منزل بيتر. اقتربا مسترشدين ببصيص الضوء الصادر من نافذة غرفة المعيشة. نظرا من خلال زجاج النافذة فشاهدا إبراهيم منكبا أمام كراسته.

كان إبراهيم منهمكا فى كتابة جملة "مارى، الفتاة ذات الرداء الأزرق، تتحدث إلى جون". كتب تلك الجملة حوالى عشرين مرة للتدريب على تحسين خطه. أثناء الكتابة كان ينظر بفخر بعلامات صح و "حسن جدا" التى سطرها بيتر بعدما قرأ ما كتبه هو.

لا يشعر إبراهيم أبدا بالملل أو ينتابه شعور بالتعاسة وهو يذاكر ويؤدى واجباته المدرسية. فى الواقع، صنع منه هذا الانشغال أفضل مما توقع وتخيل، حيث أزاح هذا عن خياله أى فكر يختص بموطنه الكائن وراء تلك الجبال الشمالية.

سمع طرقا على الباب، لكنه لم يقم فورا لرؤية من الطارق. يعلم هو أن مصباحه الكيروسينى يدل عليه ويبين أن هناك إنسانا موجودا بالداخل، لعل الطارق قد نظر خلال النافذة وعلم أنه موجود، لكن هو تجمد فى مكانه وجلس يحدق فى قلمه المشرع أمام الورق بينما يتسمع بخوف لصوت دقات قلبه المزعجة.

خبط الاثنان الباب مرة أخرى ثم نادا، "يا إبراهيم!"

لم يتبين من هو صاحب هذا الصوت، ليس به لكنه ناس جهيل، لذا أحس ببعض الراحة، لكن الحركة أعوزته وأمسك الخوف بتلابيبه.

ثم ظهر شكل وجه زين من خلال زجاج النافذة، وأنفه ملصق بالسلك الموضوع لمقاومة الناموس.

- افتح الباب يا إبراهيم! مستر نيكلسون يريد الحديث معك.

سأل إبراهيم:

- لما يريدنى؟

- لا نعلم.

- أريد أن أظل هنا . لم افعل أى سوء لأحد.

اختفى الوجه وازدادت الطرقات على الباب، ثم سمع صوت أكتاف الرجلين وهى تدفع الباب. الضغط جعل كل المنزل يهتز. الغبار، المحبوس فى فراغات السقف، سقط كالمطر على الأرضية وبعضها صبغ كراسته.

صاح إبراهيم:

- أنا آت!

توقف الخبط.

أطفأ إبراهيم لمبته وبدأ فى الوقوف. لاحظ أنه ممسك بقلمه بقوة بين أصابعه. فى الظلام عثر على كراسته وكتب "أنا عند مستر نيكلسون". ببطء والخوف يتملكه توجه ناحية الباب. تعثر وهو يحاول العثور على الأكرة. أخيرا فتح فرجة من الباب.

أمسك مراد وزين بإبراهيم وثنيا يديه خلف ظهره. صفعه مراد على وجهه وضربه بلكمة فى صدره.

– ماذا تفعل، لماذا؟

زعق زين:

– لما لم تفتح الباب على الفور، فى المستقبل لازم أن تتعلم كيف تنفذ أوامرنا فى التو واللحظة.

أخرجه زين من المنزل وهو يسوقه من يديه المقيدتين خلفه، أثناء تعثره فى الأرض الصلبة متجها نحو السيارة، سمع صوت زجاج يتكسر والأثاث يلقى به بعنف فى أرجاء المنزل.

– لما يفعل هكذا، هذا المنزل يخص الخواجة الإنجليزى.

أجاب زين وهو يضغط بالأكثر على يديه المقيدتين، "اخرس!". ثم ألقى به فى خلفية السيارة وقيد يده المتوجعة فى أحد أعمدة هيكل السيارة. بعد ذلك، تركه زين وانضم إلى مراد داخل المنزل. سمع إبراهيم أصواتا متزايدة لتكسير محتوى المنزل، ولاحظ أنهما يفعلان ذلك بالاستعانة بضوء مصباح بطارية.

كان إبراهيم يعرف هذين الرجلين. رآهما عندما كان يعمل عند نيكلسون، لكن جون دى لوبو طالما حذره منهم:

– كن على حذر منهم يا إبراهيم! إنهم يقترفون كل الأعمال القذرة التى يكلفهم بها مستر نيكلسون. أنت تعلم بالطبع لما يتواجد هذا الرجل الإنجليزى فى سفينة، لكى يكشف عن أى معارض للأمير. عندما يكتشف أحدهم، يرسل هذان الاثنان ليقبضا عليه.

ثم أشار جون إلى مبنى يخلو من النوافذ ملحق بمكتب نيكلسون وأخبر إبراهيم أنهم يسجنون الناس "الأشرار" فى هذا المبنى حيث يتم استجوابهم. لكن إبراهيم لم يشاهد أحدا تم إرساله إلى هذا المكان. هذان الاثنان المنهمكان الآن فى تخريب المنزل، دائما ما كان يجدهم جالسين فى الفراندة الموجودة خارج مكتب نيكلسون.

أخذ إبراهيم يجذب قيوده، لكن ذراعه آلمته للغاية. فكر انه إذا أمكن له أن يخلص نفسه، إذن من الممكن أن يهرب إلى بطن الصحراء ولن يتمكنا أبدا أن يعثرا عليه، لكن حتى لو استطاع الإفلات، فأين يكون مستقره؟ الآن فقد الأمان الذى تمتع به فى منزل بيتر، لذا لا يوجد أى مكان آخر على الأرض يمكن أن يختبئ فيه.

توقف عن بذل أى جهد وحاول أن يشعر بالتفاؤل. ربما يريده نيكلسون ليعرف لماذا ترك خدمته. ربما حينذاك يطلق سراحه. أخبر نفسه، "أنا لم أفعل أى شيء يسيء إليه". لكن داهمه صوت آخر يخبره بأنه يستحق أى إجراء يمكن أن يتخذه نيكلسون بمعاقبته. أى شيء مهما كان. لذا تمدد مستكينا فى خلفية السيارة.

ما أن ركب كل من زين ومراد السيارة، لاحظ إبراهيم أنهما لم يتوجها ناحية المستعمرة، بل سلكا طريقا يبتعد عن سفينة ووجهته الجبال ولمسافة ميل، ثم ترك مراد الطريق الرئيسى وسلك طريقا غير ممهد لعدة دقائق. أخير أوقف السيارة فى وسط لا مكان. قال لزميله:

– هنا؟

– نعم، هنا مناسب.

سأل إبراهيم والخوف يسيطر عليه:

– لما توقفتا هنا. خذانى فورا إلى مستر نيكلسون.

– نحن نعلم ما يتوجب أن نفعله

أخرجوه من السيارة الجيب وبدءوا فى نزع ملابسه، ثم امسك به زين عنوة من خلفه. هنا علم إبراهيم ما سوف يحدث له. صرخ:

– أرجوكم، لا، لا

سمع ضحكة تعلو خلفه ومراد يقول:

– ألست أنت عشيق الرجل الإنجليزى. إذن الموضوع سوف يكون سهلا عليك.

شعر إبراهيم بالألم. دفن وجهه فى الرمال وصرخ. ربما يكون هذا هو كل ما يحتاجه. ربما يتركوننى بعدها ويدعوننى أعود للمنزل وكأن لا شىء قد حدث. من الأفضل أن يقتلونه.

أنهى مراد مهمته، لذا أخذ زين مكانه. رقد إبراهيم منبطحا. لم يقاوم ما يحدث له، لكنه حاول أن يصغى منفصلا عن صوت النخر الذى يصدر من الرجل القابض على مؤخرته. جزء منه شعر أنه يستحق ذلك. إذن هذا هو الشعور! لقد فعل نفس الشىء لآخرين وهو فى مدارج النمو، لكنه حرص دائما أن لا يستعمل هو فى المقابل. استرجع مشاعره حينذاك وكم شعر بالاحتقار لمن يستخدم وكيف هو يشتعل بالرغبات الجامحة.

وكان دائما ما يتجاهل صياح الولد المنتهك. إذن قد حل عليه الدور، وكما أن أولاد جهيل قد استحقوا ذلك، إذن هو أيضا يستحق لأن الأولاد الذين استغلهم كانوا أصغر وأضعف. حاول أن لا يفكر كثيرا وربما تجرى الأمور بلا تغيير. الألم صاحبه نوع من الراحة. كان متأكدا إنهما سوف يطلقان سراحه بعد فعلتهما. هذان من البدو وكانا يطلبان هذا الأمر فقط لا غير.

لكن ما أن انتهيا حتى ألقيا بالثياب إليه ودفعوه إلى مؤخرة السيارة أخرى. هذه المرة

لم يقيدا يديه لكن سارا فى الطرق الخشن فى اتجاه سفينة. لم يتحدث أحد.

فتحت بوابة مستعمرة نيكلسون. تذكر إبراهيم بكل الأسى هذه البوابة عندما فتحت له فى المرة الأولى، ثم أقفل الحارس البوابة خلفهم. توقفت السيارة أمام المبنى الخالى من النوافذ، فتح مراد الباب بينما زين يدفع إبراهيم داخل المبنى، ثم فتحا باب الزنزانة ودفعاه داخلها وأقفل الباب. جلس إبراهيم على الأرض الإسمنتية بينما يستمع إلى صدى الضحكات الماجنة ثم صوت الباب الخارجى وهو يصد ورائهم بينما هو يتجرع الألم وتعذبه الأفكار.

* * *

– ما فيش فايدة.. أليس كذلك

جوانا، العرق يندفع من كل أجزاء جسدها، جعل شعر رأسها يتهدل على وجهها وكتفيها ورقبتها على هيئة خصلات. هكذا خاطبت بيتر بصوت يبدو كأنه يصدر من مكان ناء بينما هى ما زالت تحت بيتر.

رقد بيتر على السرير، الملاءة تحته مبلولة، وجسده مغطى بعرقه وعرق جوانا. بعض من هذا العرق استقر بين ثنايا رقبته وعظمة صدره وبين أضلعه.

– لا.. يبدو اننى لم أوفق. يا الله، أنا آسف جدا يا جوانا.

بدا وجه جوانا فوقه بشكل ضبابى. فكر أن يصل بيده ليلتقط نظارته الطبية، لكن هذا التصرف قد يعنى "من فضلك، ابتعدى قليلا"، وفكر بأن هذا التصرف ربما قد يمثل القشة الأخيرة. حاول أيضا أن يبرر عجزه إلى كمية الخمر التى شربها، لكن هذه هى حجة البليد.

تصفحته جوانا بعينيها وهى فوقه. كم يبدو أصغر عمرا بدون تلك هذه النظارة الطبية المخيفة. لكن فوق كل شىء، تمنت لو لم تبدأ هذه المغامرة من الأصل. لما لم تتبع غريزتها وتطلقه بعيدا عنها؟ هناك شىء ما أخبرها أن التجربة سوف تتحول إلى كارثة. لم تتبين مدى الإخفاق، لكن هما كانا متوافقين تماما. لم يكن هناك ذلك التوتر الخاص، الذى، من خلال خبراتها، يشعل لواعج الغرام، أو حتى لقضاء ليلة حب وحيدة.

لامت نفسها. بيتر إنسان طيب، مؤدب وعاقل، أرادت بكل جوارحها أن تعاشر ذكرا وأن تمنحه الحب كله في المقابل. لم يكن في متناولها سوى بيتر، لذا تجاهلت غريزتها وسحبته إلى عرينها.

سارت الأمور حسنا في البداية. شكل الرجل الجميل ومنبته الحسن الذي هو موطنها البريطاني- هو الذكر المثالي. لكن مع مرور الوقت تحول عضوه إلى حجم من اللحم الطري الفاقد الإحساس. في تلك اللحظة بالذات، مر سريعا في مخيلتها مجموعة الرجال الكبار في السن الذين كانوا في جناح الشيخوخة بمستشفاها في وطنها. هم، أثناء قيامها بتنظيفهم أثناء الاستحمام، حيث يبدو عليهم الفخار وقد انتصبوا قليلا وتبدو عليهم أيضا مظاهر الانسجام عليهم وهي تدعك أجسادهم بفوطتها. تقول لهم، "بالتأكيد كنت أنت قاتل خطير للنساء في أيامك!". يرد هو، "لقد أخذت نصيبي من الحياة". وهي مستمرة في دعكهم، تكاد دمعتها أن تفر، متفكرة في هذه الأجساد في أيام عزها ومجدها وتأسف للحالة التي وصلت إليها كينونتهم الحالية غير قادرين على تذكر أسمائهم أو عناوين منازلهم، بينما أعضائهم الذكرية التي طالما مرحت هناك وهناك في أيام الشباب، تجدها الآن وقد أشارت نحو التراب بدلا من أن تشرئب إلى العلا.

تحركت بخفة بعيدا عن بيتر واستدارت ودفعت برأسها فوق الوسادة. شيء جميل أن تستقر مرة أخرى على مادة صلبة. فمها يشكو ويتألم وكذلك جسدها، بسبب جهودها غير المثمرة، لكن خلف ذكرى ذلك

الوقت المهدر بلا طائل، هناك تعب عميق يكاد أن يعبر عنه كأنه نوع من الرضى. شعرت به يربت على ظهرها بحركة خفيفة، ثم أحجم قليلا، انه يخشى أن يلمسها. هى تعلم أنه يشعر بالمهانة والذنب والضياع - مثل رجالها العواجيز الذين كانوا يثارون من دعك الفوطة. علمت جوانا أن النوم لن يواتها إلا إذا نام هو.

مدت إليه ذراعها فأمسك كفها ولثمها بحنان معترفا بفضلها. سألته:

- كيف حالك؟

- أنا آسف يا جوانا.

- لا تقول هذا.

- آسف لأننى عرضتك لكل هذا ال...

- الإثارة؟

- نعم، آسف.

- ليس من ذلك مفر. أعتقد أنك احتسيت قدراً كبيراً من الخمر.

أجاب ممتنا:

- ربما.

- أو ربما تشعر بحالة من التوتر والقلق.. التوتر هو من أسوأ الأمور بالنسبة لـ.. لهذا الموضوع.

- صحيح؟

- طبعا.

- هل تعلمين أن تلك هى أول مرة اعملها.

قال ذلك بشكل طبيعى للغاية، مدهشا ذاته بذلك. التفتت نحوه جوانا بينما هو يحدق فى السقف.

- معقولة؟

قالتها غير مصدقة، بينما يتوارد على ذهنها صورة متوالية من عشاقها ثم يغيبون.

- نعم.. أنا.. إلى حد ما.. لم أحاول.

- ماذا تعنى؟

- إلى حد ما، لم اعثر من قبل على فتاة ترضى بى.

- وأنت لم تكن قادرا أبدا أن تقنع واحدة تغامر معك؟

- لا.. لم أستطع.

لم تجب. بدلا من ذلك استدارت كلها نحوه ونامت على ظهرها. أخذت المروحة تدور فوقهما وهما راقدين كأنهما جثتين فى مشرحة غير متلامسين، كل ما كان ينقصهما، وهذا ما فكرت فيه، أن تشبك بطاقة ورقية فى الإصبع الكبير لأقدامهما.

ثم طرأ على ذهن جوانا فكرة معينة، لعل بيتر من النوع المثلى، هو الآن يعيش وبصحبته ولد عربى. ربما يكون هذا حاله؟ طردت هذه الفكرة واعتذرت لبيتر فى خيالها ثم عاد إليها هذا التصور مرة أخرى. تذكرت أنه قضى سنتين فى مجاهل السودان، ألم يفعل حينذاك شيئا؟ هو الذى اعترف بأنها تلك هى تجربته الأولى. ربما يكون قد ضاجع كل رجال سفينة وعندما كان فى السودان، لعله صنع ذلك مع كل رجال القبائل أو مع أى سائق لورى عابر!

بدأت الصور الخيالية تتوارد على ذهنها بشكل مكثف وسريع، فكرت فى زجاجة اللسترين القابعة فى حمامها وصعب عليها أن تتحرك إلى هناك لتضع قدرا من هذا المحلول على رقبتها وعلى كل جسدها. تساءلت:

- لم تباشر الجنس أبدا من قبل؟

- لا.

- ولا حتى عندما كنت فى المدرسة؟

أجاب ببراءة،

- كنت منخرطا فى مدرسة للأولاد.

- نعم، لكن الأولاد أيضا يمارسون أحيانا بعض التجارب مع بعضهم البعض. ألم يحدث هذا معك؟

- أعتقد لا.

- إذن كيف لك أن...

- حسنا، أحيانا ما كنت أحلم.

- تحلم بماذا؟

صمت بيتر لفترة طويلة. تعجبت هل ربما تكون قد زودتها قليلا. إنها تحاول أن تكتشف ما خبئ فى دقائق بينما استغرق هو سنوات لدفنها. لكن لم يكن هناك مبررا لأن تقلق، فبعد عدة تلعثمات قال:

- حسنا، فى العادة لا أستطيع تذكر تلك الأحلام. لكن عندما كنت أتسلق الجبال مع أصدقائى فى الحلم. نصل جميعا إلى قمة الجبل و...

- نعم؟

- أصحو من النوم لزقا.

نظرت نحوه ونظر إليها. كانت نظرتها عميقة، بالرغم إنها كانت فى حيرة، هل هو قادر على رؤيتها بدون نظارته الطبية؟

شعرت أن الضحك يتجمع فى داخلها لينطلق، ثم أنطلق فعلا. كلما حاولت أن تسيطر على نفسها، كلما زاد مقدار الضحك. يئست من محاولة التحكم فى نفسها فانطلقت على سجيتها قائلة:

- تتسلق مع أصدقائك!

هذا ما استطاعت أن تلفظه بين دفعات قهقهاتها. انحنى نحوها بيتر وشاركها الضحك.

– لم اعترف لأحد بهذا من قبل!

حاولت أن تسيطر على دفعات ضحكها. بدا أنه تعبير قاس إلى حد ما، لكن هو أيضا كان يقهقه بينما كليهما يعتلى الآخر، ثم بدأت تلهث محاولة أن تنطق بشىء آخر، لكنها كانت متأثرة بمجهود الضحك الذى بذلته. بعزم بالغ عضت على ركن المخدة لوهلة، ثم، بصوت أجش، محاولة بقدر امكانها أن تتماسك حتى لا تنطلق فى نوبة ضحك مجددة، قالت:

– ولا حتى زملائك فى المدرسة؟

ثم انفجرت ضاحكة لدرجة أن أنفها سال.

– يوب!

قالت هذا وهى تمسك أنفها بطرف الملاءة.

كرر هو ورائها،

– يوب! "رافعا إياها فوقه"

هاجمته حينذاك، وما زالت مستغرقة فى الضحك، محاولة أن تخمد أنفاسه بالوسادة. دافع هو عن نفسه واعتلاها، دنا منها محاولا أن يقبل ثديها الأيمن، لكن، بدلا من ذلك أصدر صوتا كأنما هى ظرطة كبرى،

حدث هذا عندما فع جسده فوق جسدها الناعم. هنا تذكرت جوانا قسم الأطفال في مستشفى كوين وكيف إنها كانت تضرب الطفل على مؤخرته بنفس الطريقة، فيبدأ هو في الضحك لأول مرة في حياته.

بعد ذلك، فجأة توقف هو من الضحك. حدق فيها وتسمع لها وشعر بجسدها وهو ملتصق ويبتعد عنه. علم أن هناك شيئا ما يحدث.

ضحكت هي. ثم توقفت عن ذلك لأنه هو توقف وأخذت تتسمع للسكون الذي داهمه. ليس هناك من صوت سوى صوت دوران مروحة السقف.

ثم شعرت هي بشيء ينتصب هناك ويتحرك نحوها. علمت حينذاك لماذا توقف هو عن الضحك.

كانا صامتين ساكنين.

قال بشكل متعجل بصوت مرتعد:

– هل تسمحيلي يا جوانا؟

هي وما زالت تشعر بالحركة والحرارة والصلابة التي مست وركها، أجابت:

– استمر.

* * *

فى الخامسة صباحا، أمرت جوانا بيتر أن يغادر الفراش قائلة:

- سوف يتوافد الناس على مجمع المستشفى بعد دقائق معدودات من الآن. لا أود أن يروا سيارتك أمام منزلى، هذا سوف يدمر سمعتى.

نهض مسرعا، راغبا فى جلب قدر من السعادة إلى محياها. ارتدى ملابسه سريعا وأجرى يديه فى شعره، محاولا أن يعيد ترتيبه بحيث يعود إلى شكله الأصلى.

رقدت جوانا فى الفراش، فى حالة من التشويش، بشكل مختلف تماما عن الترتيب الذى تنتهجه دائما فى حياتها، لكنها اغتصبت ابتسامة وجهتها إلى بيتر حيث وقف بجوار السرير ليودعها. وهو يفعل ذلك، لاحظت أنه متردد، ثم جلس بجوارها. أحست أنه سوف يعتذر مرة أخرى. فكرت أنها لن تتحمل ذلك. عليها أن لا تمتنع من لومه، لكنها علمت أنها لن تحتمل أن تستمع إلى عبارات الاعتذار منه مرة أخرى. مدت يديها نحوه، كانت حركة كلها ود وحب، لكنها مانعة أيضا.

أضافت ابتسامة وهى تقول:

- أعلم ما تود النطق به يا بيتر. لكن لا أود سماعه. بصراحة لا أود.

- لكن أنا...

– لا. ولا كلمة أخرى! الممرضة قالت كلمتها! أنا المفروض أن أعتذر لك. فأنا التي أجبرتك على هذا. لذا ليس هناك مبرر أن تلوم نفسك.

وقف بيتر وبدون وعى أخذ يدعك ساقه الأيسر بمقدم صندله الأيمن، أخذ يحدق فى المرتبة وهو يتحدث:

– حسنا، ربما يلزمنى وقت أطول.

أرادت أن تقول، "لك سبعة وعشرين عاما! كم من الوقت يلزمك أكثر من ذلك؟"، لكن بدلا من ذلك، عبرت عن أحاسيسها بشكل لطيف:

– لعلى لست الفتاة المناسبة لكن، هذا يحدث، كما تعلم!

– أوه، لا يا جوانا، أنت رائعة جدا، لكن العيب فى و...

– ها أنت تبدأ من جديد.

استمرت فى حديثها وقد فرغ صبرها:

– قلت لك اننى لست مستعدة لسماع أى اعتذارات. انظر، من الأفضل أن تتحرك.

– حسنا. على الفور.

– لكن يا بيتر، أنا حرة فى نهاية اليوم. ما رأيك أن تدع إبراهيم يشوى لنا السمك الذى طالما مدحت فيه؟ هل أزورك فى منزلك؟

هز رأسه موافقا.

- الساعة الواحدة ظهرا؟

هز رأسه مرة أخرى، ثم انثنى وأخذ يحك ساقه بيده.

- عندك هنا كم هائل من البعوض يا جوانا، أكثر مما الذى عندى.

- أعتقد أن الخور هو السبب.

- أعتقد ذلك.

تلكأ قليلا فكشرت فى وجهه، لكنها ابتسمت فى نفس الوقت ففهم القصد. خبط يديه فى بعضهما قائلا:

- باى يا جوانا.

- باى بيتر. سلم لى على إبراهيم ,أخبره أننى فى شوق لمقابلته.

أدار بيتر سيارته مبتعدا عن مجمع المستشفى، بينما تظهر ملامح اليوم فى الأفق الشرقى. خلافا لصوت محول كهرباء المستشفى، كل شىء تجده ساكنا وصامتا.

شعر فجأة بالسرور يملأ جوانحه، ثم داهمه فكر يدله على أن سبب سروره هذا هو ربما لكونه الآن لوحده مرة أخرى بعيدا عن نطاق وشكل أى امرأة جميلة - مضطرا أن يستدعى جملة من المشاعر والحركات الجسدية المعقدة - التى يجب أن يؤديها لكى يرضيها. بالطبع،

وهذا ما أخبر نفسه به، لم تطلب منه جوانا هذا كله منه. هى فى الواقع إنسانة رقيقة ومقدرة وفعلت كل ما فى استطاعتها لكى تساعده. لكن هو كان يشبه قائد طائرة مبتدئ دفع ليديه مفاتيح طيارة كونكورد وطلب منه أن ينطلق بها بسرعة ٢ ماخ. هذا بالطبع يفوق قدراته بمراحل. أراد هو أن يفعل ذلك لكى لا يخيب ظن أحد، لكن شرارة الإقدام والجسارة لم تتوافر لديه.

اتجه بسيارته نحو الشاطئ. تذكر فيلما سينمائيا لدوريس داى كان قد شاهده قبل مغادرته المنزل. دوريس، وقد مثلت دور مضيفة طائرة تركت بمفرده لكى تهبط بطائرة ضخمة واستطاعت أن تحقق ذلك. هل هو، وهذا ما خطر فى ذهنه، نوع مختلف من الشبان. لو كان هو نيكلسون أو هيبورث، لقال فى نفسه "دع الأمور لى!"، ثم يتقدم، وهناك بريق وهاج يلمع فى عينيه موضحا للجميع أنه أهل لذلك، وأنه سوف" يفعل ما يتوجب صنعه فى تلك المسألة.

حسنا، يبدو أنه هو لم يكن على مستوى فعل ما يتوجب فعله. أوقف سيارته بقرب علامة ارتفاع المد البحرى. هل هو ما زال بكرا؟

هل الولوج إلى الداخل له هذا القدر من الأهمية؟ عندما كانا يتضاحكان ويلعبان لعبة الحصان وهما على السرير، سار كل شىء فى طريقه الطبيعى. لكن عندما قالت جوانا "استمر"، جددت داخله سحائب الوجل التى ظن أنها اختفت. فى الحال، انتقل من كونه بيتر درورى،

المنتصب المثار، ليصبح ولدا صغيرا أعصابه مضطربة جالس في موقع المروحة المعلقة على السقف ينظر بحسرة نحو جسده النحيل وماذا يفعل.

داهمه صوت ينبعث من داخله مرارا وتكرارا "ليس لديك أي أمل حتى ولو في الجحيم أن تستطيع إرضاء فتاة! أنت!". كلما حاول أن يسيطر على هذا الغلام المبتئس داخله، كلما زاد احتجاجه. هذا الولد طالما اطلع على كل الكتب التي تتحدث عن فن الأداء الجنسي واقتبس منها: " لقد نسيت أن تداعب أعضائها الحسية! لقد أهملت ذلك تماما! لا تستطيع أن تمتطي جيدا لترضي الأنثى، أنت تعلم ذلك! ألا تعلم أن النساء بطيئات في الاستثارة. ليس لديك أي عذر الآن! هذا ما يبرع فيه الأولاد الكبار! فقط انظر إلى حالك"!

بيتر فشل مرة أخرى.

مع ذلك، لم يشعر أنه تعيس "من الأفضل أن تجرب وتفشل من أن لا تجرب بالمرة". هذا ما أخبر به نفسه، متذكرا أن تلك هي كلماته التي بثها لمن حاول أن يتسلق جبل سنوداون وهم في منتصف مسافة الصعود. هذه الليلة علمته شيئا جديدا، هذا ما شعر به. لكن ماذا؟ انه ليس مستعدا الآن أن يحدد ذلك.

جلس بيتر على مقدمة السيارة وأخذ يراقب لون السماء البرتقالي. لكن، فجأة، لم يعد هذا كافيا. وجه أنظاره يمينه ويساره، خلع ملابسه وجرى نحو الشاطئ في اتجاه المحيط. غطس في المياه بقوة وأخذ يعوم

بأقصى سرعة ممكنه - سرعة تمكنه أن يغرق كل تلك الأفكار التى تحاول أن تهيمن عليه - فى المياه العميقة، مياه البحر كانت باردة، والسطح هادئ بشكل غير عادى. طفا إلى السطح وأخذ يراقب شروق الشمس الذى تقريبا بادر بالظهور طبقا لأوامره ورغباته. أخذ يصفق لهذا الظهور، ثم غطس مجددا. لمسرته عثر على تيار بارد جدا فى العمق، حاول أن يبقى هناك مدركا أن وضعه هو رأسا على عقب. ترك نفسه للمياه كلية ووجد أنه يصعد بطيئا، بطيئا - لكى يرحب فى النهاية بالسطح الأحمر لمياه المحيط وتلك الكرة النارية على البعد السحيق.

أخذ يراقب اكتمال شروق الشمس، التى سرعان ما فقدت لونها الأحمر واتخذت لنفسها ذلك اللون الأبيض الزاعق. بعد نصف ساعة من الآن سوف تكون عبارة عن شعلة نارية فى كبد السماء ولا تصبح حينذاك مصدرا للجمال والعشق، لكنها تصبح جرما كله تهديد يوقع عقابا مدهشا على أهالى راس الصرة.

عام بيتر إلى اتجاه الشاطئ، ثم أخذ يلعب فى المياه الضحلة قليلا. هبط عليه شعور بالحزن مع طلوع الشمس واضمحلال الألوان الرائعة للشروق. شعر أنه لا يدرك تماما كيف تجرى أمور العالم. معظم الرجال لا يواجهون أى مشكلة، مستر شكرى وأحمد وصديقى بل وربما هيبورث وكل رجال سفينة ينامون مع نسائهم ويمتعون أنفسهم وينجبون الأولاد والبنات، كأنما هذا الأمر هى أسهل الأمور فى العالم. كل هؤلاء الأطفال القابعين فى صفوف التعليم المختلفة، سواء كان مقامهم القصور

أو الخيام أو حتى تحت الأشجار السودانية، هم نتاج ذلك الشبق الذى ينتج حياة وتجديد. هم جميعا يعتبرون هـذا الموضـوع أمراً واقعياً. لكن هو، من الجانب الآخر، يجبن ويعتذر ويخاف وتشتمله البرودة والسخونة متعاقبتين، ارتخاء ثم انتصاب.

ارتدى ملابسه وأدار سيارته متجها إلى منزله. ما أن وصل إلى عتبة بابه حتى ضغط على نفير السيارة، متوقعا أن يظهر إبراهيم متسائلا عن سر غيابه. هل سـوف يخبره عما حدث فى تلك الليلة؟ ربما يفعل. ثم لاحظ أن الباب مواربا. ربما يكون إبراهيم قد خرج.

دخل المنزل ينادى، "إبراهيم!". لكن الكلمة تجمدت على شفتيه عندما لمح شكل الداخل. كل المنزل فى حالة من الفوضى والارتباك والتهشيم: الكتب والأوراق متناثرة فى كل مكان؛ الثلاجة منكفئة على مقدمتها إلى الأرض؛ المراتب مستندة على الحوائط.

شعر بيتر أنه يتابع المرتبة فى صعودها الجدار. أخذ يجول فى أنحاء المنزل لفترة ورأسه ملئ بالاستفسارات. كل مناظر الساعات القليلة الماضية اختفت من مخيلته وحل بدلا منها ذلك الواقع المزعج الذى يشاهده ملقى على أرضية منزله.

دخل كل غرفة مدمرة والدموع تصنع سحابة على عينيه. أين إبراهيم؟ هل حضر أهله من القرية وسحبوه؟ لكن هم لا يعلموا أنه هنا. أخذ ينادى باسمه عدة مرات، عالما أنه، إذا حدث وتحقق حلم بعيد هو أن يظهر إبراهيم أمامه، فإنه سوف يشعر براحة عميقة ويفارقه هذا

الشعور المأساوى. سوف يجرى نحوه ويعانقه ثم يلومه لأنه سبب له أكبر قدر من الانزعاج، ثم يشتركان سويا فى إعادة ترتيب المنزل. سوف يقول بيتر "ولا يهمك يا إبراهيم، هذه ليست سوى أشياء. أهم ما فى الأمر هو سلامتك".

ارتعدت ذقنه قليلا عندما فكر فى تلك الليلة عندما بكى إبراهيم، فاقترب منه وأخذ يربت عليه ويحضنه مواسيا ويخبره أنه فى أمان هنا. لكن هو كذب على صديقه.

جلس وأخذ يراقب ما أمامه صامتا، بينما تطرق أرجاء عقله أفكار وخيالات انتقامية، تدميرية. شعر كأنما هو راكب طيارة تعرضت للاختطاف، بينما هو جالس فى مقعده والعرق يتصبب من كل أجزاء جسده، فاقد العزم والقوة، يراقب فى رعب نجاح ونصرة اللامعقول.

شعر انه فى حاجة لأن يخبر أحدا، لكن من؟ لا يوجد مركز للبوليس فى سفينة. خطر على باله كل من نيكسون وهيبورث. فكران يذهب إليهما، لكنه تخيل شكل نيكلسون الساخر والاستنتاجات إلى سوف يصل إليها والنصيحة السابقة التى أبداها "لقد قلت لك كذا وكذا.." ثم يكرر ذلك مرارا. هذا جعله يهجر هذا الرأى. ليس هناك أى شىء الآن يمكن أن يصنعه.

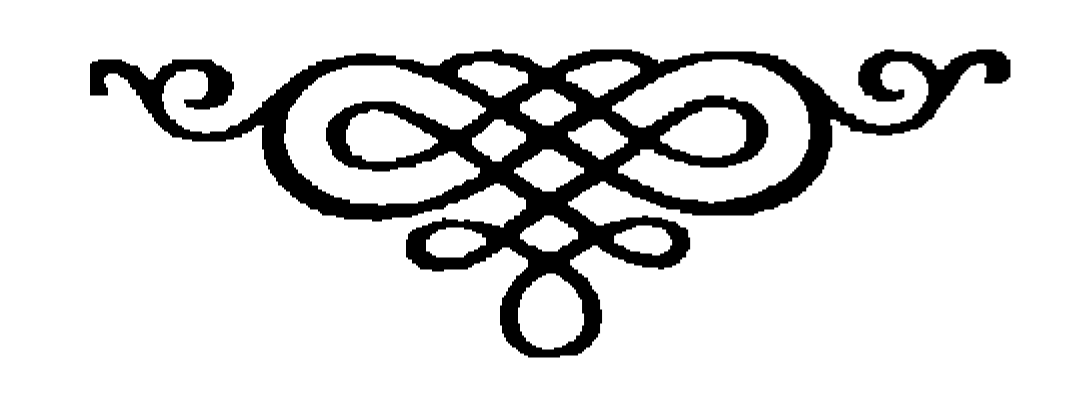
بدأ بيتر فى إجراء بعض الترتيبات داخل المنزل. بدأ هذا العمل ليس بغرض أن يعود الوضع إلى ما كان عليه، لكنه لأنه شعر أنه، ربما وسط هذا الحطام ربما يصل إلى دليل يرشده على من فعل ذلك.

لكن بعد ساعة ونصف وقف على حيله والعرق يغطيه وقد تعرى حتى وسطه. ليس هناك أى مبرر لهذا الهجوم المجنون على منزله.

خمسة من الست صفحات التى أعدها لجريدته مزقت وأصبحت غير صالحة. اثنان من كتب إبراهيم مزقتا إلى اثنتين. وضع كل كتب إبراهيم على المائدة، و، أثناء وهو يفعل ذلك، وجد الكراسة ما بين الجدار والمائدة. كانت مفتوحة على تدريب. بشكل بطئ بدأ فى قراءة العشرين جملة، مبتسما وفخورا لأنها بلا أخطاء، وسعيدا لأنه عثر على شيء يوحى بتواجد صديقه. قرأ الجملة الأخيرة "مارى، الفتاة ذات الرداء الأزرق، تتحدث مع جون". ثم فى خط ملتو ليس هو أسلوب إبراهيم فى تحسين خطه قرأ، "أنا عند مستر نيكلسون".

لم تبدو كأنها جملة كتبت فى حالة من الذعر، هذا ما فكر فيه بيتر، لكنها أعجزته للغاية، فقط بسبب طريقة كتابتها. هل نيكلسون هو الذى أخذ إبراهيم؟ إذا كان هذا هو الأمر، لكن لماذا؟ لم يخطر بباله أى سبب لذلك. تذكر الحديث الذى جرى ما بين مارى آن وجوانا الليلة الماضية. حسنا، فلنفرض أن شكوك جوانا فى محلها، إذن لما يأخذ نيكلسون إبراهيم؟ ربما فكر هذا أنه بالقبض على إبراهيم، هذا سوف يشعره بالخوف ويقرر فى النهاية أن يغادر سفينة. حسنا، إذا كانت هذه هى رغبته، فإنه لم ينجح. قرر بيتر أن لا يغادر سفينة مهما كانت الظروف. ليس الآن وليس بهذه الطريقة. انه يود أن يرجع إليه إبراهيم. لكن كيف

يمكن له أن يحقق ذلك؟ سوف يسأل جوانا . نعم، هذا ما سوف يفعله متذكرا أنها سوف تأتى فى الواحدة ظهرا . استمر فى ترتيب منزله ولاحظ أن لا طعام يقتات به. أمسك بكتاب "تسلق الجبال"، لكنه أحس بالذنب لأنه سوف يقرأ كتابا، ربما يحتفظ نيكلسون بإبراهيم بقية اليوم ثم يطلق سراحه. ربما تعود الأمور إلى وضعها الطبيعى مرة أخرى. وجد أن هذا صعب التصديق، لكنه فضل أن يستمر الأمل واستمر فى قراءة كتابه، و، أثناء القراءة، أخذ يفكر فى المرأة التى خاب فألها بشأنه وصنعت المستحيل معه، لكنها لم تسخر منه ولم تدعه ينطلق فى تقديم الاعتذارات أو يشعر بالأسى بسبب حالته تلك. لذا أحس بقدر من الراحة. فكر "جوانا هى التى سوف تفيدنى فى مشكلتى الحالية تلك"!



(١٥)

فى منتصف النهار، فتح نيكلسون باب السجن ودخل. أمسك مفتاح زنزانة إبراهيم أمامه وهو يقترب من بابها، ثم مرر المفتاح على مقدمة شفته العليا، ثم السفلى. قوة الضوء جعلته يرعش. تعجب كيف سيكون وضع إبراهيم وهو يدخل إليه. معظم المساجين الذين يزورهم يجدهم نائمين على أجنابهم منكمشين فى ركن الزنزانة. عدد قليل منهم تجدهم واقفين فى منتصف الزنزانة، وهذا يحدث نادرا.

فتح باب الزنزانة. اندهش عندما وجد إبراهيم جالسا على الأرض يحدق أمامه، لكنه لم يرفع ناظريه نحوه.

– من فضلك يا إبراهيم. قم! هذه ليست قهوة.

وقف إبراهيم.

– أشكرك.

لم يجب إبراهيم.

– ربما تتعجب لما أحضرتك إلى هنا. فى الحقيقة أنا مندهش لأنك

لم تبادر بسؤالى. لكن، عندما فكرت مليا، وجدت أنه ليس هناك مدعاة للاندهاش. ربما أنت تعلم ذلك. ربما تظن أنت أنك تستحق القبض عليك وتهان بمعرفة من قبضوا عليك وتسجن فى هذه الزنزانة التى تشبه القبور. أنت لوطى طبعا، أليس كذلك؟

هز إبراهيم رأسه نفيا.

أضاف نيكلسون:

– نعم، أنا متأكد أنك وجدت أن ما حدث معك هو أمر مستحق. حسنا، قبلما أخبرك لما أنت هنا، أطلب منك أن تخبرنى لماذا غادرت منزلى هذا فجأة منذ فترة؟ بدون كلمة؟ هذا كان تصرفا غبيا منك، أليس كذلك؟

أجاب إبراهيم:

– أنت قدمت لى خمرا وحاولت أن تنتهكنى.

– هل هذا كل شىء؟ هذا هو السبب الوحيد؟ لا شىء آخر؟ حسنا، لقد خاب ظنى فيك، هذا تصرف أطفال. كل ما كان عليك أن تفعله هو أن تقول لا. أنا لست وحشا أعاملك مثلما عاملك الاثنين البدو بالأمس. كنت سوف أحترم رغباتك. فى تلك الليلة لم أجبرك على الموافقة على تحقيق رغباتى؟ لا. بل وتركتك تغادر سريعا الغرفة وقلت لنفسى "هكذا هى الحياة". لكن أنا أعرف نوعيتك يا إبراهيم. أعلم من هم أهلك. أنت

دخلت منزلى وتعلمت أشياء كثيرة، لكن عندما تعقدت الأمور إلى حد ما، جريت سريعا إلى قريتك. هناك لم تحتمل نوعية الصراع، تشوقت أن تعود إلى نمط حياتك السابقة البسيطة. لكن جهيل هذه ليست سوى قرية صغيرة، أليس كذلك يا إبراهيم؟ دعنى أخمن. عندما وصلت هناك اكتشفت صعوبة بالغة فى معاودة حياتك السابقة، ألست أنا على صواب؟

هز إبراهيم رأسه موافقا، فأضاف نيكلسون:

– نعم. أنا على حق. انك لم تحتمل ضغوط الحياة الجديدة التى اطلعت عليها هنا. لقد اشتقت للعودة إلى روتين قريتك الساذج. لكن عندما عدت شعرت بمدى قسوة الحياة هناك. إنها قاسية لدرجة انك شعرت بعدم قدرتك على فعل ما تطلبه منك عادات القرية وهى أن تتزوج وأن تستقر وتبنى عائلة، بحيث تنقضى حياتك بنفس الأسلوب والطريقة المملة بدون حدوث أى تغيير! لقد تعرضت إلى ألم يصعب احتماله، ألم كنت تجاهد أن تتجنبه حتى ولو اضطرت أن تخون أهلك. سمعت عن هذه الحياة من فم ناصر حامد يا إبراهيم. انه يلومك بسبب وفاة والدك. أنت بالطبع تعلم أنه مات، أليس ذلك؟عندما كنا نتحادث، كنت أنا أهز رأسى موافقا. لكن للأمانة يا إبراهيم، أنا لا ألومك. ربما يكون الأمر غريبا أن تستمع لكل هذا من القابض عليك، لكنى فى الواقع ألوم نفسى. أنا واحد من جيش جرار أسمه التقدم يا إبراهيم.

من مهامى أن أدفع أناس مثلك لكى يشرفوا على أعتاب القرن العشرين لكى تكون معتمدا على منتجاتنا، لأن نجذبك نحو منتجاتنا - لأن يكون اعتمادك كله على منتجاتنا، علما بأن كل اهتماماتنا منصبة دائما على إنتاج الأدوات الحديثة. فهى آلهتنا التى تمثل الطمع والجشع - هى لك أيضا. دعنى أخبرك إننا نحن أفراد من كتيبة عالمية مهمتها سهلة للغاية. منتجاتنا تبيع نفسها بنفسها. لك أن تسافر بعيدا يا إبراهيم، لكن إذا رحلت يوما إلى الغرب، سوف تلاحظ أننا قد طورنا حياة شعوبنا بحيث يلهثون وراء كل ما هو سار ومتميز. انه مسعى بذئ، يجعلهم يتناسون تماما أن لهم أرواحا. هم لديهم سيارات. أنت تستطيع أن ترى سيارتك وتلمسها وتنتقل بها من مكان إلى آخر فى بلاد الغرب. إنهم فقدوا أى اعتبار لأرواحهم. الروح هذه ليست سوى عنصر مراوغ، دراستها والعمل على نموها يحتاج إلى بذل جهد مضنى. لقد دربنا أهالينا على سلوك أيسر السبل والطرق.

بدأ نيكلسون فى السير جيئة وذهابا داخل الزنزانة. ثم التفت نحو إبراهيم قائلا:

- هل تتابعنى؟

هز إبراهيم رأسه موافقا، بالرغم أنه لم يحاول أن يبذل أى جهد ليتفهم ما ينطق به نيكلسون.

- نعم، هكذا هو الحال. وهكذا سوف يستمر الحال إذا استطعنا أن نعبد طريقا مناسبا لنا. صدقني يا إبراهيم، إننا سوف ننجح في مسعانا هذا.

ثم أخرج سيجارة وقدمها إلى إبراهيم الذي تناولها ممتنا. ابتسم نيكلسون وأشعلها له قائلا:

- ألا ترى؟ أنت تعلمت التدخين إذن. أنت لم تكن مدخنا قبل مجيئك سفينة، أراهن على ذلك!

- لا. لم أكن مدخنا.

- لكنك تفعل الآن، وأنت تشتاق إليها عندما لا تتواجد معك. هل أنا على صواب؟ - نعم، أنت على حق.

- حسنا، هكذا بالنسبة لأي شيء آخر. سوف نجعلك في حاجة دائمة لما لا تريد، تشتاق إلى الشيء، الذي سوف تكتشف بعد وقت متأخر للغاية، أنه ليس في مصلحتك.

أرسلت السيجارة نوع من الحبور في كيان إبراهيم. قال:

- لما تخبرني بكل هذه الأمور. هل تظن أنني لا أعرفها مقدما؟

- نعم. أعذرني. ربما أكون قد أوضحت ما هو جلي. كان من المفترض أن توقفني في وقت مبكر. مع ذلك، يبقى السؤال هو لماذا أحضرتك إلى هنا. إنها إجابة سهلة للغاية يا إبراهيم.

أنت هنا لكى تؤدى مهمة لى. أنت ممتاز لأداء هذه المهمة بالذات لأنك لا تنتمى الآن إلى أى مكان. أنت، وأعذرنى فى القول، ليس لك أى مكان أقامة فى كل منطقة العربية القديمة، ولست أنت أيضا عضوا فى العربية الحديثة. أنت فلتة. لا تستطيع أن تعود سواء للأمام أو الخلف.

– سوف أتصرف.. دعني أذهب!

– إذن أنت تريد أن تعود مرة أخرى إلى منزل الأستاذ الإنجليزى. أليس كذلك؟ حسنا، هذا ليس هو التصرف الحسن. صدقنى، صديقك الإنجليزى هذا هو أيضا فلتة من فلتات الزمان. فهو ليس له مستقرا فى بلده بريطانيا، يختمر فى عقله كم كبير من الأفكار السخيفة الرومانتيكية عن المنطقة العربية الحقيقية. ليس لديه شىء يمكن أن يعلمك إياه لمنفعتك يا إبراهيم. لكنك إذا اعتمدت على ونفذت الخدمة التى أطلبها منك، سوف أرسلك إلى العاصمة. هناك يمكن لك أن تتعلم اللغة الإنجليزية والعلوم. سوف تجد الملابس والطعام الوفير وتتدرب على عمل تتكسب منه فى منطقة العربية الحديثة. سوف تكون من الناجحين يا إبراهيم. أنت الآن من الخاسرين وسوف تستمر خاسرا. إذا أديت تلك المهمة الصغيرة لتثبت بها ولائك لأميرك، حينئذ سوف تستحق مكانا في هذا المجتمع. ما رأيك؟

لم يعجب إبراهيم بكل ما يستمع إليه. تعجب هل نيكلسون هذا عاقلا، قـال:

- ما هى تلك المهمة التى تطلبها منى.

- مهمة بسيطة للغاية. أريدك أن تقتل امرأة من أجلى.

- أى امرأة ؟

- امرأة ليس ذات أهمية.. امرأة أجنبية.

* * *

- إذن هو سوف ينفذ ما طلبته منه؟

هيبورث كان فى انتظار نيكلسون لحين عودته من زنزانة إبراهيم، بينما كأسه الثالثة ما زالت بين يديه.

قال نيكلسون:

- أعطنى أولا كأسا. انه يرفض، واضحا أن لديه بعض الشكوك. أخبرته بأننى سوف أعطيه مهلة للتفكير. بعد الظهر سوف أطلق عليه الاثنين البدو مرة أخرى اذا فشل هذا الحل سوف نفكر فى أسلوب آخر.

- حسنا، دعنا نأمل أن لا يفشل هذا الحل. نحن فى حاجة حقيقية فى أن تنجح خطتنا. سوف يكون رائعا أن نستطيع دفع هذه الجريمة على عربى.

– هذا صحيح. إذا فعلها إبراهيم، فإن الممرضة سيسون سوف تكون هى الضامن لنا. سوف نتمكن حينذاك من كتم تلك الهمسات التى تتناثر فى أرجاء السوق وتسبب إزعاجا مريعا للحكومة المركزية فى نفس الوقت. لكنى لست متأكدا أنه سوف يفعلها. هذا الولد له معايير أخلاقية مزعجة.

هز هيبورث رأسه:

– حسنا يا سيمون، أريدك أن تكون على ثقة تامة بأنه يمكن الاعتماد على إذا استمر هذا الولد فى عناده.

– هذا شىء يسرنى يا هيبورث.

جلسا سويا يستمتعان بأطايب يوم الجمعة.

– ما هى نوعية الإقناع التى يتبعها البدو الذين هم فى خدمتك يا سيمون؟

– لا أبدا، هو إقناع ودى!

– له خواص نفسية، أليس كذلك؟

– إلى حد ما هى نفسية. لكنه هو فى الأساس نوع من نوعيات الإقناع الجسدى القديم.

هز هيبورث رأسه، ولم يحاول الاستيضاح أكثر من ذلك.

– خمرة ممتازة يا سيمون! أنا لا أعلم لماذا تصر أن يؤدى تلك المهمة عربى، بينما الهنود كلهم تحت تصرفك وبسهولة.

– لا. انه نوع من الانحراف من جانبى، لكن صدقنى، لقد تعلمت الدرس يا بوب.

– حسنا، هذا شيء جيد، دعنا نأمل أن يستطيعا إقناع صديقنا إبراهيم سريعا.

هز نيكلسون كتفيه:

– سواء هذا أو ذاك، هى جنة عدن بالنسبة له كما أخشى. يا له من ولد غبى ومغفل.

* * *

وصلت جوانا متأخرة نصف ساعة إلى منزل بيتر وقدمت اعتذارات بسبب مشغولياتها المتعددة فى المستشفى هذا الصباح.

قالت وهى تخطو داخل المنزل:

– يا الله، ما هذا الحر الشنيع فى الداخل، ما هذه الرائحة الغبية، كأنما هى رائحة بارافين.

– أحدهم ألقى بجاز اللمبة على الحائط.

– لا. من؟ هل تعاركت مع إبراهيم؟ هل يمكن أن نخرج من هنا. أشعر كأننا فى فرن هنا. كيف تحتمل هذا الجو؟

– بصعوبة بالغة. أعتقد أننى قد تعودت عليه.

- أين إبراهيم؟ ارغب فى مقابلته.

خرجا سويا وجلسا تحت المظلة التى صنعها إبراهيم. أخبرها بيتر عما حدث كله وأنهى سرده بأن أظهر لها المخربشات التى كتبها إبراهيم فى كراسته. سألته:

- لكن ما الذى سوف تفعله؟

- لا أعلم. ما زلت أظن أنه سوف يعود. لذا فكرت أن أظل هنا فى انتظاره.

- حسنا، نحن نعلم أين هو. لما لا نذهب ونسأل نيكلسون عما حدث له؟

- نعم هذه كانت فكرتى الأولى، لكن عندما فكرت فيما أخبرتينى به بالأمس - أقصد إذا كنت أنت على صواب وأن نيكلسون وهيبورث هما المجرمان اللذان تسببا فى وقوع كل هذه المآسى التى وقعت هنا - إذن ما المنفعة؟ سوف يقول بكل بساطة بأننا على خطأ. ما الذى يمكن أن نفعله حينئذ؟ انه يقبض على مقاليد السلطة هنا كما تعلمين، هو الحكومة.

- حسنا، لا يضيرنا فى شىء أن نذهب ونزوره.

- لست متأكدا!

بدا الابتهاج على وجه جوانا:

- لكن أنظر. أنت قلت سابقا أنه الحكومة هنا. حسنا، أنت على حق. إذا كان الأمر كذلك، فمن الطبيعي أن نتوجه إليه هو بالذات لنبلغه أن يساعدنا فى العثور على إبراهيم! سوف نذهب سويا ونحاول أن نعرف رد فعله. ربما نجد إبراهيم جالسا عنده هناك يحتسى زجاجة ببس. من يعلم.

- بعد هذا التخريب الذى حدث فى منزلى، أشك فى ذلك. مع ذلك، أنت على حق. دعنا نذهب.

ذهبا إلى مستعمرة نيكلسون بسيارة بيتر اللاندروفر، بعد أن تركا سيارة جوانا أمام المستشفى. فى الطريق عبرا على مجموعة من الغربيين جالسين تحت ظل نخلة على جانب الطريق. لوحا بأيديهما لكنهما لم يتوقفا. تنهد بيتر:

- يا الله. كم كنت أود أن أتوقف وأتحدث معهم.

- أعلم ماذا تعنى.

دخلا إلى مستعمرة نيكلسون بدون معاناة. أوقف بيتر سيارته بجوار سيارة هيبورث. كان نيكلسون واقفا خلف الباب السلكى وهما يرتقيان السلم. قال وهو يبتسم مرحبا مخاطبا هيبورث:

- دعنى أنا أخاطبهم، "ثم أكمل"، يا له من سرور بالغ! شىء مؤسف إنكما لم تحضرا مبكرا لتتناولا الغذاء معنا. مع ذلك، هل تشربان كأسا؟

فتح الباب. عبرا إلى داخل غرفته المكيفة الهواء وجلسا، بدأ بيتر في الحديث:

– في الواقع، هذه ليست زيارة مجاملة. هي على الأكثر زيارة عمل.

– حسنا، دعنا نخلطها قليلا. اليوم هو يوم أجازة، ما الذى تودين احتسائه يا جوانا؟

طلبت جوانا أن تشرب كأسا من الشيرى بينما طلب بيتر جن وتونيك. سأل نيكلسون:

– كيف لى أن أخدمكما؟

– لقد اختفى إبراهيم من منزلى.

استند نيكلسون على مقعده خلفا،

– وهذا الأمر يزعجك بالطبع، أليس كذلك؟

– نعم. هو ليس لديه أى مكان آخر يمكن أن يقصده. وأيضا هو لم يترك لى خطابا يبلغنى فيه برحيله وكذلك المنزل قلب رأسا على عقب عندما حضرت اليوم صباحا.

– إذن أنت تظن أنه قد أخذ بالقوة من منزلك و..

– كان هناك عراكا أيضا.

لم يتحدث نيكلسون بل أخذ جرعة كبرى من كأسه وهو يبتسم لجوانا. قالت هي:

– فكرنا، طالما أنك تمثل قوة القانون هنا، إذن سوف تهتم بتلك المسألة. أقصد أن هذا الحادث ربما يكون جزء من المتاعب التى تحدث هنا. ربما يكون هم المتمردين الذين خطفوه.

– لا أظن أن هذا ما حدث، بل أقول أن إبراهيم قد غادر منزلك طوعا. هو لديه هذه العادة الغريبة. عندما يبدأ فى الفرد فى انتهاج هذه التصرفات، فإنه لا يسلاها أبدا، حينئذ تصبح تلك عادة لديه. لن أندهش إذا قرر أن يذهب للعاصمة ليجرب حظه هناك.

علق بيتر:

– لكن المنزل تعرض لتخريب عجيب، كل مقتنياتى أما مكسرة أو مهشمة.

اقترح نيكلسون بابتسامة هادئة:

– ربما تكون تلك عبارة عن (الوداع وشكرا لك).

حملق بيتر بشدة فى نيكلسون وهو يضع كأسه التى لم تفرغ على المائدة. ثم تدخل هيبورث:

– بالطبع، هناك احتمال آخر. ربما حضر ناس من قريته وسحبوه. يجب أن يكون هذا الاحتمال فى الحسبان.

- لكن لا أحد من قريته يعلم أنه يمكث معى. هو لا يخرج بعيدا أبدا. لم يتجول أبدا داخل سفينة. المكان الوحيد الذى كان يرتاده هو شاطئ البحر شمالا ليصطاد. كان دائما يخشى أن يشاهده أحد.

قال نيكلسون:

- لكن رأى الكابتن هيبورث له وجاهته. أنت لا تعلم ما إذا كان قد رآه أحد، فكثير من العرب يأتون إلى سفينة سالكين طريق البحر قادمين عبر الهضاب المجاورة لجهيل القديمة. أيضا، أنت دائما فى العمل صباحا. من ذاك الذى يعلم ما صنعه هو؟ لا. هناك احتمال قوى أنه قد أقتيد عنوة إلى قريته.

تساءلت جوانا:

- ما الذى سوف يجرى له هناك؟

قال هيبورث وأمارات السعادة تكسو وجهه:

- سوف يقتلونه بالطبع أو يخصونه أو شىء من هذا القبيل. لن أتعجب أبدا إذا حدث مثل هذا.

نظر نيكلسون نجو هيبورث بنظرة محذرة:

- من الصعب التخمين عما حدث له، لكن ليس لهذا شأن بى. إبراهيم هذا بعيد عن سلطتى. لقد أخبرتكم عما يجب أن تفعلونه. أليس كذلك؟

أجاب بيتر متذكرا كم يكره هذا الرجل:

- نعم. نتذكر فعلا ما قلته، لكن مع مزيد احترامنا، أنت الوحيد هنا الذى يمثل القانون والنظام، ونحن هنا نبلغ عن غياب شخص. أعتقد أنه واجبا أن تبدى قدرا أكبر من الاهتمام ودعنا نترك المشاعر الشخصية جانبا.

تجمدت ابتسامة نيكلسون على وجهه ثم تلاشت تدريجيا مع استمرار بيتر فى حديثه، ماذا يظن نفسه هذا المغفل المبلول حتى يشير إلى طبيعة واجباته؟ لكنه تراجع عن التعبير عما يشعر به، وأجاب بشكل محايد:

- مفهوم القانون والنظام هنا فى سفينة له مفهوم آخر مختلف تماما عما عهدته فى بلدك. إذا كان هذا الولد قد أخذه أهالى قريته أو عائلة الفتاة، إذا أنا فى غاية السعادة لأنهم سوف يلحقون به العقاب المناسب. ليس من سلطتى أن أتدخل فى هذا الشأن. إذا غامرت أنت وذهبت إلى قرية ظاروت، سوف تجد هناك امرأة مجنونة مقيدة إلى وتد فى منتصف حوش منزل أحد الشيوخ هناك. ربما تكون إصابتها الذهنية بسيطة، وربما أشعر أنا أن هذا عقاب غير عادى، لكنى لن أذهب إلى هذا الشيخ وأسرد أمامه بتواشيح من القيم الغربية. مهمتى هنا هى أن أحافظ على عاداتهم وتقاليدهم، إذا كان من عاداتهم أن يرجموا الزانية، إذن فليكن كذلك، طالما أنهم لا يتآمرون على الأمير. إذن لهم أن يرجموا كل الزناة ويقيدوا كل المجانين ويخطفوا كل العرسان العصاة.

قال بيتر:

– فهمت.

– سوف أندهش إذا فهمت، لكن ما أخشاه هو، أن هكذا هو الحال هنا.

قالت جوانا بعصبية:

– إذن أنت ليس فى مقدورك أن تساعدنا؟

– ليس بهذا المفهوم. سوف أجرى بعض الاستخبارات، إذا كان هذا سوف يرضيكم. فى المرة التالية التى أشاهد فيها حامد نصر، هو عميلى هناك فى جهيل. سوف أسأل عن إبراهيم بطريقة عرضية بالطبع. لكن هذا كل ما أستطيع فعله. أنتم تعلمون مقدار العمل الملقى على عاتقنا هذه الأيام.

حدج بيتر جوانا التى هزت رأسها قائلا:

– حسنا، أعتقد أنه لازما علينا أن نرحل يا مستر نيكلسون.

– ألا تبقيا لاحتساء كأسا أخرى؟

– لا. شكرا لك.

* * *

شاهد نيكلسون السيارة اللاندروفر وهى تغادر المستعمرة. ما أن أقفلت البوابة ورائهما حتى نادى على مراد وزين، اللذين حضرا مسرعين نحوه من الفراندة، سألهما:

– أتشعران بالجوع؟

هز الاثنان رأسيهما.

– طعامكما فى الانتظار.

وهما يبتسمان، عاد هو إلى غرفة المعيشة واستدعى هيبورث:

– لقد طلبت منى مبكرا أن تشاهد طريقة البدو فى الإقناع يا بوب. تعالى معى، سوف أجعلك تشاهد بعضا من وسائلهم.

قام هيبورث بكل طاعة وتبعه خارجين من الفيلا. عبر الرجلان حتى وصلا إلى السجن. فتح نيكلسون الباب ووضع إصبعا على شفتيه محذرا. لذا صارا صامتين حتى باب الزنزانة حيث سمعا صوت بكاء وعويل إبراهيم.

وضع نيكلسون عينه على ثقب الباب. لم ينطق بشىء، لكن هيبورث لاحظ تلك الابتسامة الشريرة وهى ترتسم على وجهه. ظلت هذه الابتسامة ثابتة وهو ما زال يحدق فى الباب مباشرة لدقيقة أو أكثر. همس هيبورث:

– وبعدين يا سيمون، دعنى أنظر!

بتردد، أبعد نيكلسون عينه عن الباب ونظر نحو هيبورث، بينما الابتسامة ما زالت معلقة على فمه.

اتخذ هيبورث مكانه وأخذ ينظر خلال ثقب مفتاح الباب وما زال متذكرا تعبيرات نيكلسون المسرورة.

مع ذلك، ما شاهده لم يجعله قادرا على اغتصاب ابتسامة، بل تعجب من نفسه. ما الذى يفعله هنا فى هذا المكان كأنما هو تلميذ خائب. نيكلسون كان يلكزه راغبا فى أن يزيحه من مكانه لكى يختلس نظرة متجددة، لكن هيبورث لم يترك مكانه. المنظر الذى شاهده بعينه اليمنى، مزدوجا مع الوخزات والهمسات المجنونة لنيكلسون، كانت تفعل فى فؤاده أفاعيل عجيبة. فجأة اشتاق أن يكون الآن بين أحضان زوجته دورثى محاطا بأشيائها. العين اليمنى وهى مأخوذة بهذا النمط الغريب من التعذيب الذى يتعرض له إبراهيم بواسطة أناس من مواطنيه، هو تعذيب حرض عليه جماعة من الأجانب. كل هذا، جعل الدموع تتجمع فى عينيه.

ترك مكانه لنيكلسون. تراجع إلى الخلف وزحف نحو ركن واعيا لفحيح الضحك الصادر من نيكلسون.

* * *

أدار بيتر سيارته متجها نحو المستشفى، في الطريق لم يتبادلا الحديث، كليهما تعرض إلى مزيد من عدم الفهم بعد مقابلتهما لنيكلسون. كانت هذه المقابلة، كما عبرت عنها جوانا، بأنها عمل غير مجد. كان هو، كما بدا، غريبا وشاذا إلى أقصى حد لكن كليهما، بينما يرغبان أن يوجها له إصبع الاتهام، في الحقيقـــة، لم يصدقا هذا الذي يحدث – هذا الشر الذي عشش عند أعتابهما.

قال بيتر، وهو يســاعد جوانا في النزول أمام مستقرها داخل مجمع المستشفى:

– مثل هذه الأمور تحدث دائما لأناس آخرين، أنا الآن أكرر لنفسي مرارا أن هناك تفسيرا منطقيا لكل ما يحدث.

– هل تأتي معي؟

– أظن أن هذا ليس مناسبا. أنا في حاجة لأن أجلس مع نفسي أفكر.

توجه بعد ذلك نحو سيارته متوجها نحو منزله، الشمس كانت تستعد للغروب، لا يمكن أن يصدق أنه قضى صباحا منعشا في حضن البحر، الأرض كلها حوله كانت غارقة في اللون الأحمر تعكس ضياء الغروب، نظارته لم تفعل شيئا سوى أن تجعله قادرا على تحمل أشعة الضياء، لذا كان مضطرا أن ينحني قليلا مقتربا نحو الحاجز الزجاجي لكي يميز الطريق أمامه.

وصل إلى منزله وجلس على مقدمة السيارة يتأمله. لم تواته الشجاعة أن يخطو تلك الخمس خطوات ويفتح الباب الأمامى. هو يعلم جيدا ما بالداخل، لذا لم يشأ أن يواجه هذا الموقف مجددا، تعجب ما إذا كان قادرا أبدا أن يواجه هذا المنظر. الأسابيع الأولى التى قضاها بمفرده كان بها قدر من الجدة، لكن عندما بهتت تلك، أرسل له حظه الحسن إبراهيم. كانت هناك أوقات يشعر أنه راغب فى الوحدة، لكن هذه الأوقات لم تكن عديدة. الآن وقد اختفى إبراهيم فجأة مثلما ظهر فى حياته فجأة، شعر بيتر كم كان تواجد هذا الولد هاما للغاية بالنسبة له.

أخذ فى الضغط على آلة التنبيه. أصاغ السمع أولا، خشى أن يفتح الناس نوافذهم محتجين ويطلبون منه أن يتوقف، لكنه أدرك أنه وحيد وسط صحراء خالية يحاول إدراك المستحيل فى وقت ما بعد الظهر وحيدا داخل فرن متقد. وضع كل صفحة يده على البوق وجعله يزعق لمدة نصف دقيقة، ثم توقف عندما أدرك أنه بذلك قد يفرغ بطارية السيارة. صدى الصوت أخذ يتردد فى ذاكرته لفترة ثم اختفت هذه أيضا. حل سكون تلك الصحراء الموحشة مرة أخرى مخبرة إياه أنه إنسان غريب فى أرض غريبة وإنه ما كان واجبا إن يكون هنا من الأساس.

أخذ ينادى، "إبراهيم"، مدركا أنه بمناداة اسم صديقه إنما يرتكب فعلا آخر يدل على البلاهة. إذا لم يكن بالداخل ولم يسمع أحد، إذن هو ليس بالداخل. إبراهيم قد رحل- رحل إلى قريته ليتقبل عقابه، أخذه نيكلسون وجعله يتجول وحيدا. بينما شعوره بالذنب يثقل عليه بحيث

صعب عليه أن يستمر فى البقاء، أخذت الأفكار تتوارد فى ذهنه بشكل غير منطقى. أخذ العرق يتدفق من كل أجزاء جسده وصنعت بحيرة على مقعده، ثم حاول أن يطارد حيرته بأن يشغل سيارته اللاندروفر ثم يبطلها عدة مرات حتى صرخت منه السيارة، ثم ركبها وقادها متجها نحو البحر.

على الشاطئ شاهد سيارة وحيدة، هذا نبه فضوله، فاتجه نحوها. ثم، وهو يقترب، تذكر أنه شاهد هذه السيارة من قبل، إنهم جماعة الأوروبيين الذين لوح لهم فى وقت مبكر من هذا النهار.

اقترب منهم، لاحظ أنهم مجموعة من الفتيان والفتيات يستظلون على الظل الضئيل لسيارتهم، وهناك أيضا مظلة شاطئية تستكمل الظل لهم. لاحظ أنهم يحتسون البيرة من كولمان كبير. حياهم، لاحظ أنهم سعداء بوجوده، تساءل:

– من أين أتيتم؟

أجاب أحد الشبان منهم:

– من العاصمة لقضاء يوم واحد هنا

– يوم واحد فقط؟

صاحت واحدة من الفتيات:

– هذا ما قلته لكم! لكن نحن ليس لدينا سوى يوم جمعة واحد ولن نتمكن من العودة فى وقت مبكر كما قلت.

– لا أتصور كيف أمكن لكم الحضور إلى هنا بكل هذه السرعة.

– حسنا، لقد اكتمل ثلثا الطريق المسفلت، وهو سريع للغاية. المشكلة كلها تنحصر فى الثلث الأخير من الطريق. يجب علينا حاليا أن نتحرك سريعا لكى نصل إلى الطريق المعبد قبل حلول الظلام. لا نود أن نتعرض إلى أن تغرز سيارتنا أثناء الليل.

– لما لا تفكرون فى قضاء الليلة عندى؟

أخذ الأربعة يحدقون فى بعضهم البعض. شعر بيتر فجأة أنه عبيط. إنهم حتى لا يعرفونه، هو أيضا لا يعرف حتى أسمائهم ولم يسألهم عنها، لذا قال:

– اسمى بيتر دوروى وأنا أعمل فى الإدارة التعليمية هنا.

عرف كل واحد منهم باسمه، لكنهم جميعا رفضوا عرضه.

قالت فتاة منهم:

– علينا جميعا أن نكون بالعمل صباحا.

– نعم؟

– حسنا، نحن نــود العودة فعــلا، هذا المكان مفــزع. لا نعنى أى إساءة لأحد.

– ولا يهمك، فى نفس اللحظة بالذات، أعترف لكم بأن هذا بالضبط ما يفعله معى.

- أنت بالطبع واحد من الخبراء المرتاحين هنا.

ثم وجهت له نظرة كادت أن تجعله يذرف الدمع، أضافت هي:

- منذ حضوري إلى هنا وأنا أفكر باستمرار في ثلاجتي!

- هل شاهدتم القلعة القديمة؟

- لقد حاولنا استكشافها، لكن بعض الأولاد أخذوا يحدفون علينا الطوب. إنكم تتعايشون في مكان يعيش في زمن آخر.

أجاب بيتر مدافعا:

- لا تنسى أبدا أن هذا المكان هو آخر ركن في منطقة العربية.

أجابت الفتاة الأخرى:

- كل الوساخات تتركز في الأركان كما تعلم.

ثم بعجلة واضحة، قام الأربعة وأخذوا في تجميع حاجياتهم. تساءل بيتر بيأس واضح:

- أنتم لستم راحلين كما أظن؟

قال شاب منهم:

- مضطرين أن نرحل لكي نصل للطريق المعبد قبل حلول الظلام.

وقف بيتر وأخذ يراقبهم يائسا، شاهدهم وهم يشحنون سيارتهم بصندوق التبريد، المظلة، الفوط، زجاجات اللوسيون ضد حروق الشمس،

عدة روايات حديثة ثم الترموس. شعر كأنما هو عبيط القرية الذى يصادفه دائما فى زياراته لقرى المنطقة، الذين يتتبعونه عند الرحيل. بدا أمام هؤلاء الأربعة كالأهبل. مع ذلك، ود لو أمكن له أن يوقف رحيلهم ويخبرهم بكل شىء. أن يمنعهم من الرحيل، ويقضون ليلتهم عنده. بدا عليهم أنهم عقلاء، لكن ها هم الآن يهربون بعيدا .

جلسوا داخل سيارتهم، ثم قدم أحدهم علبة بيرة إلى بيتر:

– هذه لك يا صديقى! أعتقد أنك فى حاجة ماسة لها!

تناول منه بيتر العلبة بسذاجة وهز رأسه، حاول أن يبتسم لكن قسمات وجهه لم تطاوعه. كان العرق يند منه بغزارة فى ذلك الضوء الحارق للشمس. لوح ركاب السيارة مودعين، ثم انطلقوا بعيدا ... بعيدا!

وقف مكانه وأخذ يحرك علبة البيرة الساقعة على وجهه وصدره. فكر فى عبطاء القرية الذين يدفعون بأدمغتهم داخل نافذة سيارته بينما هو يهم بالسير – وكيف انه يبحث عن قطعة توفى أو علبة مشروب ليقدمها لهم.

جرى نحو البحر، أثناء جريه رمى بعلبة البيرة أمامه وشاهدها وهى تتدحرج على بعد ياردات منه ومست مياه البحر. ضمن آلاف الأفكار التى زاحمت عقله ظهرت فكرة تقول، إذا انفتحت علبة البيرة، فإن البحر سوف يحتوى حينذاك على الكحول. السمك سوف يشرب مثله،

الصيادون سوف يصيدون السمك. السمك سوف يباع للغاوين فى السوق. الغاوون سوف يأكلون السمك، حينئذ سوف يحدث لهم تلوث بسيط من بقايا الكحول الممنوع عليهم تعاطيه!

أخذ يضحك جزلا وغطس فى المياه بكامل ملابسه فى مياه المحيط الفاترة.

* * *

قبل تلك اللحظات بالذات، اقتنع هيبورث أنه قد شاهد كل شيء وأنه قد عبر منذ زمن علامة الطريق السالك فى الحياة التى كتب عليها عنوان "آخر منفذ قبل وقوع الصدمة".

لكن هو كان على خطأ بين، لأنه لم يأخذ فى حسبانه أن نيكلسون سوف يدبر مزيدا من الصدمات. لقد سمع من قبل عن الأفعال القبيحة التى شاهد مثلها منذ لحظات فى الصحراء أثناء قيام الحرب الأهلية. علم هو أن هناك مثل هذه الفعال تحدث بعيدا عن متناولهم. ومماثلا لنيكلسون كان دائما ما يحول عينا مغمضة لكى لا يشاهد أو يسمع. إنها أمور تشعره بالاشمئزاز لأنها لم تكن فى مجال الإغراءات التى يحبذها. لكن حينذاك حاول أن يمنطق الأمور وانه ليس ملزما بان ينتهج المثاليات الخلقية وأن يطبقها على فرقته من البدو الذين يمتازون بالعنف والقسوة. هو يتذكر أيضا أن هذه الأفعال كانت تحدث أيضا فى موطنه. لكنه وهو وسط البدو أو عندما كان فى موطنه، دائما ما كان يحول عينيه ويعزى نفسه بالتمعن فى صورة زوجته دورثى فى أوضاع مختلفة.

لكن الآن، وهو الآن بجوار نيكلسون، شاهد أمام عينيه هذه الأفعال القبيحة تحدث تحت ناظريه. شاهد نيكلسون وهو يكركر ويعض فى شفتيه ويعلق تعليقات سخيفة فجة متخيلا، نعم متخيلا! أن زميله سعيد وهو يشاهد هذه المناظر مثل سعادته.

يا الله، ما الذى يفعله مع هذا الرجل! كيف سمح لنفسه أن ينغمس فى هذه الأمور؟ من هو هذا الغريب، جسد من ذاك الذى يسكنه، من ذاك الذى سمح لنفسه أن يتماشى مع جنون نيكلسون؟ بل الأفضل بمقدار أن يقف فى طابور المحتاجين عن يكون بقرب هذا الرجل. يمكن له أن يعيش فى موطنه وشرفه مصان. الآن فات الميعاد. نيكلسون زحف على سهول حياته كأنما هو إعصار وجذبه وسط دوامة عاتية مدمرة.

شاهد هيبورث إبراهيم وهو يبكى ويصرخ من خلال ثقب الباب، شاهد كل من مراد وزين ينتهكانه، بكل هدوء وبراعة يكومون جبال الاحتقار لكى تغطيه وتطمره.

إنه أثم شرير، لكن الأكثر شرا هو مشاهدة ما يفعلونه. اعتاد الناس على اختراق بعضهم بعضا بطريقة أو بأخرى على مستوى العالم كله. ليس هناك شىء غير عادى فى ذلك. هذا، بالنسبة لأى إنسان يعيش فى العالم، يمكن أن يتعايش معه، لكن أن تشاهده؟ لأن تبتهج بسبب البؤس الذى تلحقه بالآخرين؟ هذا يبدو فى نظره يضاعف من حجم الجريمة ويضاعف أيضا من صيحات النجدة وطلب الانتقام من السماء.

شعر هيبورث، أن ما يحدث لإبراهيم حاليا، إنما يحدث له هو. هو ليس سوى عسكرى شطرنج فى مباراة أحد طرفيها إنسان مجنون، لكن كل من فى تلك المباراة ليسوا سوى عساكر وليس عليهم سوى أن يتقدموا للأمام لكى يفوز بهم نيكلسون مكركرا محتفظا لنفسه بكل النقلات المفضلة.

لم يشعر هيبورث من قبل بهذا القدر من الوحدة. هو شعور حل عليه واستقر كأنما هو ذبابة لحوحة. و، مماثلا للذبابة، التى يمكن طردها بسهولة. أن رحلة سريعة إلى بيت الدعارة أو ميس الضباط كفيلة بأن تعيد إليه حالة الانسجام والانشراح، هو شعور يعضد بواعث الزمالة الحقيقية. فزملائه من الضباط هم الذين جعلوه ذلك الرجل بالذات. الزملاء هم المرآة التى تخبره أنه فى أحسن حال - قاتل للنساء، البطل، الشرير، معبود النساء، المغوار، الفائز دائما، العربى المختال... لكنه الآن هو يجالس إنسانا غريبا. لقد سمح لهذا المجنون أن يعرض أمامه مرآة ليشاهد نفسه كأى زميل آخر. لكن الصورة كانت غريبة نوعا، ربما، ليس فيها من شكل هيبورث المعتاد، ليست بهذا القدر من الغرابة والشذوذ، عليه أن يزيح هذه المرآة جانبا صائحا "لا. لا، هذه ليست صورتى!"

لكن الآن، تذكر، أنه يحملق فى وحش قبالته، يبادله النظرات. ما أرغمه نيكلسون على فعله ليس مجرد امتداد لمغامراتهما أثناء الحرب الأهلية. الآن هو، هيبورث، يعكر صفو هذا المجنون. و، الأكثر سوء،

هو ليس سوى عبد لذلك المجنون. ما العمل؟ ليس هناك ما يمكن صنعه. هو أسير مماثلا فى ذلك إبراهيم.

سأل نيكلسون وهما يعودان إلى غرفة المعيشة:

- الآن، ما رأيك فى هذا؟

- عملية صعبة فعلا يا سيمون! إذا لم يقنعه هذا لتغيير رأيه، إذا أنا لا أعرف ما هو البديل؟

- نعم، أننى دائما ما أعتمد على هذين الاثنين لكى يؤديا منظرا لذيذا مثل هذا. هل تعلم يا هيبورث، لولا مراد وزين لما تمكنت من تحقيق أى شىء هنا. يا لله، إنه حظ حسن لنا أن رأس الصرة تلك عبارة عن مجموعة من القبائل المتناحرة يكرهون بعضهم بعضا، هذا يحفظنا داخل إطار مكين من الحماية، بينما المسرح يزخر بالمرح أمام عيوننا، هم دائما ما يذكرون الأمة العربية...

استمر فى محاضرته:

- نفس هذه الكلمة الأخيرة تجعلنى راغبا فى إطلاق ضحكات مدوية - لكن هم بالفعل يستطيعون أن يكونون قوة حقيقية إذا اتحدوا جميعا. لكن بالطبع، هذا لن يحدث مطلقا. مواقفهم التعسة المختلفة تماثل لما يحدث فى ايرلندا الشمالية. كل عربى آخر هو "ايان بيزلى". كل دولة صغيرة منهم مقتنعة تماما بأنها على صواب ووضعها متميز أمام العزة الإلهية. وهذه ليست سوى البداية.

داخل كل أمة منها توجد قبائل متعددة أو جماعات داخل تلك القبائل ثم ينحدر التقسيم حتى يصل إلى مستوى العائلات. تجد أن كل عائلة مقتنعة أنها الأفضل. بالطبع لا أدعى أن تلك خصلة عربية سيئة - تختص بهم فقط. لا، إنها رذيلة منتشرة على مستوى العالم كله، لكنها واضحة بشكل فاضح فى العالم العربى.. دائما ما تجد الأخ العربى يصنع فخا لأخيه العربى. الأخ العربى الثانى يصنع فخا لآخر وهكذا. هنا تجدنا نحن على أهبة الاستعداد لأن نمد أى طرف بالأدوات المناسبة لصنع الفخاخ طالما أن نقودهم حاضرة.

قام نيكلسون وصب لنفسه مشروبا:

- هذا فى صحة الفخاخ!

هيبورث لم يكن منصتا. لقد استمع لكل هذا اللغو من قبل، وهو يعلم أن ما أدلى به هو حقيقى. فخلف التصفيق عند توقيع المعاهدات واتفاقيات التجارة والتبادل الطلابى والمنح المقدمة، يمكن سماع أصوات الفخاخ وهى تنصب.

شعر بفراغ هائل يحتويه، فعندما أجاب على الهزل الذى صدر من نيكلسون عندما قال له "إنها فعلا عملية صعبة يا سيمون! إذا لم يقنعه هذا لتغيير رأيه، إذا أنا لا أعرف ما هو البديل". شعر أن تلك الكلمات ما زالت ترن فى أذنيه، كأنما هى حبات من الفول المدمس داخل علبة مقفلة.

رفع يديه لوجهه ليمسح عينيه، لكن بدلا من ذلك وجـد نفسه يتشمم أصابعه.

ظل هيبورث هناك طوال فترة الظهيرة حتى المساء المبكر. كان نيكلسون منسجما وفي حالة من الحديث المتواصل، لكن هيبورث بالكاد كان منصتا ونيكلسون بالكاد يدري ذلك. تقبل هيبورث كأسا بعد أخرى، مصمما أنه حالما يعود إلى مكانه في معسكر الصحراء، فإنه ينتوي أن ينهبد على سريره ويستغرق على الفور في نوم عميق. ربما تكون الأمور بشكل أفضل في الصباح.

بعد ساعة من غروب الشمس، وهو سكران ومحبط، يائسا ويكاد الدمع أن يفر مدرارا من عينيه، جرع آخر كأس قدمه له نيكلسون في جرعة واحدة، و، ممسكا بالبيريه، قام مودعا. رفض دعوة نيكلسون للبقاء وجلس خلف مقود سيارته اللاندروفر ناسيا كيف وصل إلى هذا المكان من غرفة معيشة نيكلسون.

ساق السيارة متوجها إلى المعسكر ببطء. أثناء القيادة أخذ يستعرض النجوم بناظريه. شعر أن الدموع تكاد أن تنهمر من عينيه. "سامحني!" كانت تلك هي همسته لله الذي يراقبه من وراء مليارات النجوم. هو اله تخيله كأنه فيلد مارشال على الاستيداع مهتم بشكل بالغ بمراقبة تصرفات ضباطه.

لكن بالرغم من ظهر هيبورث المنتصب، فإن الله كان ينظر نحوه من عليائه غير موافق على أفعاله وسلوكه. لم يشعر هيبورث بالتعزية أي انه نال غفرانا. ركز ناظريه على الطريق. كان واعيا وهو يشاهد بواسطة الضوء الأمامي لسيارته ذلك الطرد المهندم الملقى على الطريق أمامه، ربما يكون هذا شيء ما أرسلته زوجته دورثي والبنات متذكرين إياه في مناسبة أعياد الميلاد، لكنه للأسف لم يكن سريعا كفاية لكي يدرك أن هناك على بعد ١٠٠ ياردة يد تستعد للضغط على زر معين فتنطلق القنبلة القوية التي كانت مخبأة داخل هذا الطرد. قوة الانفجار حولت السيارة اللاندروفر لتصبح كأنما هي لمبة كهربائية انفجرت.

وسط البقايا المتطايرة، من ضمن بقايا جسد ونفس الكابتن بوب هيبورث المتطايرة، كانت رأسه التي ما زال فوقها بيريه فرقة الصحراء، صدرت منها كلمة "أوووه! " بينما هي تعلو وتعلو في الهواء كأنما هي كرة قدم. "أووه" كررت الرأس القول، ثم "لا، لست أنا!"، قبل أن تستقر وسط التراب والحصى الذي تابعها إلى أعلى ثم استقر معها على الأرض وسط الحطام المتناثر. ما حدث، مع صوت الانفجار المدوي بدا كأنه صوت مطر في غير أوانه، يدق بعنف على أرض غير مهتمة.

عندما وجد نيكلسون ورجاله مصابيحهم اليدوية على المنظر أمامهم بعد الحادث بدقائق، صعب عليهم أن يحددوا بقايا هيبورث المختلطة بحطام اللاندروفر وسط الحطام والرمال.

* * *

الانفجار الذى قتل هيبورث حدث على بعد نصف ميل من منزل بيتر فى اتجاه سفينة والبحر.

كان بيتر منهمكا فى كتابة خطاب إلى صديق له موطنه انجلترا، مستخدما ضوء بطارية. حكى فى هذا الخطاب عن أيامه التى قضاها فى سفينة. حاول أن ينقل لصديقه ولنفسه أيضا ما حدث وما يحدث. اتضح أن تلك ليست بالمهمة السهلة. كان بيتر يلهث وهو يعض مؤخرة قلمه ويعيد قراءة ما كتبه، ثم يتخيل صديقه وهو يقرأ هذا الخطاب فى مطبخه البريطاني، حيث تطل نافذة مطبخه على خضرة دائمة بينما كوبرى تلفورد يزهو على البعد. تعجب، كيف تمكن من كتابة خطابه هذا وسط تلك الظروف الغريبة التى تحدث معه الآن؟. لم يجد معنى لما يفعله بينما هو غارق تماما وسط منتصف كل أموره.

الكتابة عموما تجعله قادرا على تصنيف أفكاره ومشاعره، لكن بالنسبة لهذا الخطاب بالذات، هذا لم يحدث. ساعده ذلك فقط على زيادة درجة ارتباكه. كتب عدة مرات فى هذا الخطاب "جوانا قالت، جوانا تقول.." ثم يسجل آرائها فيما يحدث هنا، فهى على الأقل لها رأى محدد. لكن هو أقل تأكيدا منها. الأحداث الواقعة، طبقا لوجهة نظره، غير معقولة وكافية لأن تختزن بدون إمكانية إيجاد تفسير لها. قالت جوانا وأكدت بكل ثقة أن نيكلسون وهيبورث هما اللذان وراء كل المصائب التى تحدث فى سفينة. لكن هذا الرأى يشبه القول بأن البوليس الذى من المفترض أن يحل ألغاز الجرائم هو الذى يقترفها ويصنعها. هذا غير معقول بالمرة.

كان الأمل يراوده أن يكون إبراهيم حاليا فى قريته جهيل، بالرغم أن الخطاب أمامه يخبره بأن هذا الأمل صعب التحقيق.

وهو يعيد قراءة الخطاب الذى أرسله للصديق، وهو الصديق الذى ود يائسا أن يكون بجواره الآن فى غرفته ليساعده فى ملماته الشديدة. هذا يجعله يشعر بأنه ضعيف، متردد وغبى أيضا. كاد أن يكتب، "وما هى فكرتى عما يحدث هنا؟"، حينئذ سمع صوت الانفجار. جلس متجمدا لوهلة، ثم شاهد وهج النيران فى السماء لذا أحس بأن فمه قد جف. وهو يرتعش كتب: "أثناء كتابتى هذه لك، حدث انفجار جديد فوق التلال حيث أعيش". شعر كأنما هو مراسل صحفى فى جزر الفولكلاند يقدم تقريرا حربيا، يحصى عدد الطائرات القادمة والراحلة أيضا. مرة أخرى شعر بالغباء والسلبية الكاملة.

لم يقم ليستطلع موضوع هذا الانفجار، فهو لم يكن راغبا فى ذلك. قرأ ما كتبه شاعرا بقدر من الاستياء بسبب جبنه، أزاح هذا الشعور جانبا وأنهى كتابة الخطاب سريعا طالبا ردا عاجلا ثم وضع الخطاب فى المظروف ولصقه ووضع عليه العنوان ثم رقد فى سريره.

شعور الوحدة داهمه وسيطر عليه. أطفأ البطارية اليدوية، وفى الظلام، فكر فى إبراهيم. صلى من أجله وتعجب عما إذا كان فى إمكانه أن يرحل فى الغد إلى جهيل ليعرف ما حدث فعلا، ثم طرأ على ذهنه فكر آخر، حاول أن يطرده، لكن هذا الفكر عاد إليه مرة تلو الأخرى "أنت جبان.

جبان زنيم". هذا ما أكده له هذا الفكر "أفضل أصدقائك خطف من سفينة وأنت راقد فى سريرك ولا تفعل شيئا!"، و، اتهمه الفكر بكل وضوح:

- أنت ترقد هنا، يجب أن تفعل شيئا!

- لكن ماذا؟

- قم وانظر ماذا حدث!

- لكن ربما بقبض على المتمردين!

- يا لك من جبان.

- ما حدث ليس من شأنى فى شىء!

- حسنا، إذن هو شأن من؟ لقد حرقوا كتب أطفالك: خطفوا أفضل أصدقائك، وأحسن دارس للغة. ما الذى تود أن يفعلوه أكثر من ذلك لكى تتحرك؟

- نعم، لكنى لا أعرف ما إذا كان من حرقوا المخزن هم أنفسهم الذين خطفوا صديقى.

- بالتأكيد أنت تعلم ذلك! إنهم نفس الأشخاص. قم، أيها الجبان! اذهب واطلع وافهم ما حدث.

ثم اخبره هذا الصوت: لما هو لا يصدق اتهامات جوانا ولا يشاركها الرأى. لم يجد إجابة على ذلك سوى اقتناعه الجازم أن الإنجليزى لا يفعل

مثل تلك الأمور الخسيسة. ضحك الصوت من جهله، بالطبع من الممكن أن يفعلوا ذلك وأكثر منه! فى كل وقت وزمان.

بيتر، وهو يهتز بعنف، قام منفعلا وارتدى ملابسه ثم أخذ يبحث عن مفاتيحه وخرج. وقف مرة أخرى على العتب، غير متيقن، إلى أن صرخ فيه الصوت الداخلى:

- أيها المغفل، أقدم ولا تكن جبانا!

أخرس صوت أفكاره بالجرى نحو سيارته. أدارها وأسرع بها متجها نحو مكان الانفجار. شاهد أضواء السيارات قبلما يشاهد منظر البقايا والأشلاء. صفر بفمه عندما شاهد المنظر بأكمله. أوقف السيارة وترك النور الأمامى لسيارته يصدح منيرا الحطام. تحرك نحو مجموعة من العرب واقفين فى جماعة، يستطلعون فى صمت. سأل:

- ما الذى حدث؟

قال أحدهم:

- قنبلة قتلت الرجل الإنجليزى.

قال بيتر وهو يأمل أن لا يكون مخاطرا بذلك:

- أيهما؟

أجاب العربى:

- مستر هيبورث.

اقترب بيتر أكثر ناحية هذا الرجل، اتضح أنه ناصر رئيس مكتب البريد. سأل مندهشا وسعيدا فى نفس الوقت لأنه وجد شخصا يعرفه:

- هو أنت يا مستر ناصر؟

- نعم. أنا ناصر، هل كان مستر هيبورث صديقا لك؟

- لا، لكن من فعل هذا يا ناصر؟

هز ناصر كتفيه.

تساءل بيتر:

- لكن أين جثته؟

أشار ناصر نحو الحطام،

- فى كل مكان.

أخذ بيتر فى التحديق فى البقايا، لاحظ أنها مختلطة بالدماء وبقايا اللحم البشرى، كأنما هى قطع من الفراولة وسط الجيلى. شعر ببطنه تلعب.

خطا نحوه ناصر قائلا:

- مستر نيكلسون كان هنا. لقد رحل منذ لحظات. كان غاضبا للغاية، لم أشاهده من قبل فى مثل تلك الدرجة من الغضب!

- نعم.

جلس بيتر على الأرض ثم ركع على جنبه وشعر بفوران معدته. حاول أن يقيء، لكن معدته أبت أن تخرج شيئا. في شعور من المرارة والأسى، أدرك أن نظرية جوانا على خطأ تأكيدا. حاول أن ينطق ببعض الصلوات ترحما لهيبورث من بين حركات معدته اللاإرادية.

ركع ناصر بجواره وأخذ يربت عليه:

- أنت تعيش بالقرب من هنا، أليس كذلك؟

- نعم.

- حسنا، ربما من الأفضل أن تأتي وتبيت عندي هذه الليلة. أعتقد انك لن تكون ليلة سهلة بالنسبة إليك. هل أنا محق؟

- نعم، أنت على حق.

- إذن تعالى معي. أنت تعيش بمفردك، أليس كذلك؟

- نعم.. لوحدي.

أجاب بيتر بينما بدأت الدموع تسح في عينيه. أوقفه ناصر ومسح وجه بيتر بطاقيته:

- أنتم أيها الإنجليز! دائما ما تعيشون فرادى! كيف تفعلون ذلك؟

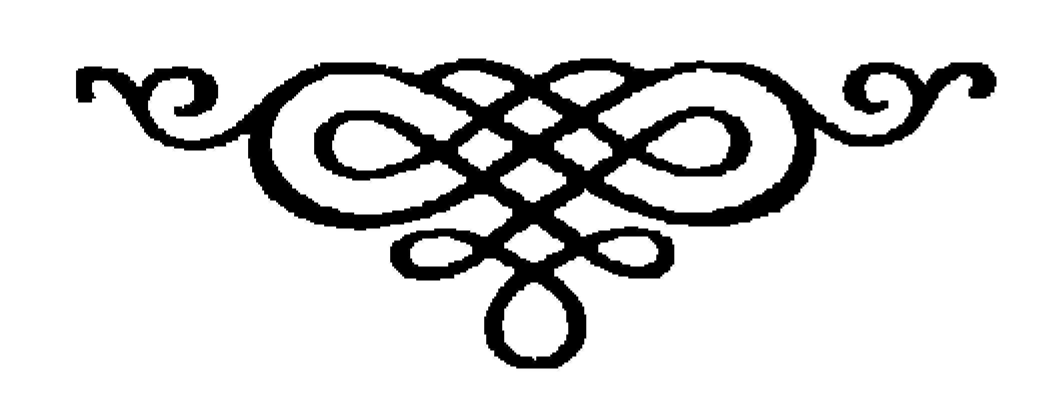
- لا أعلم يا ناصر. لكن أنظر. سوف أعبر هذه الملمة الماثلة أمامنا الآن. ربما من الأفضل أن أعود لمنزلى. إن ما تعرضه على ربما يمثل مشقة عليكم إذا..

- أنا مصر أن تأتى معى.

ابتسم بيتر:

- أشكرك يا ناصر، أنت جنتلمان حقيقى.

- كل ما أبغيه هو أن أساعدك حتى تعبر هذه الأزمة فقط لا غير.



(١٦)

حلم إبراهيم أن كل أموره سارت بشكل طبيعى. لقد تزوج الفتاة منى العلوى واتخذ مكانه المناسب فى عالم جهيل، يلجأ إليه المشايخ لاستشارته فى أى أمر يعرض عليهم. يصاحب والده عند الذهاب لحضور صلاة الجمعه، وتفرس فى وجه أبيه الملئ بالتجاعيد الذى أفتر عن ابتسامة واسعة عندما أخبره أن زوجته منى حامل وسوف تنجب أول أطفالهم.

فى حلمه، تصور زوجته منى شبه كاملة وناضجة. صحيح أنهما فى بداية معيشتهما سويا، كان يلزمها بعض التدريبات والتطويع. مثلا، اشتكت هى أن إبراهيم ليس بالقادر أن يمدها بالحلى والمجوهرات. كانت تلك هى شكوى عامة تتقدم بها الزوجات حديثى العهد فى جهيل. العادة دائما أن تشكو الفتاة الزوجة بأنها أحضرت إلى بيت فقير. هذا الأمر ليس خطأ من جانبهم، فطوال طفولتهن ومدارج نضجهن كانت أفكارهن تغذى بخيالات قيام أزواج المستقبل بتقديم الذهب والمجوهرات لهن. أغانيهن مليئة بكل هذه الأمانى. الجواهر تمثل عندهن الحب والأمان والمركز الاجتماعى. لكن إبراهيم لم يتسبب فى حدوث أى نوع من الإحباط لزوجته منى. اصطحبها إلى البحر فى يوم قمرى، طالبا منها أن تغمض عينيها،

وقادها حتى بلغت المياه رقبتها، ثم عندما فتحت عينيها، فوجئت أن الجواهر الفسفورية قد غطت كل جيدها. صاح هو، "ما رأيك إذن؟ هذه هى الجواهر التى يمكن أن يقدمها لك صياد سمك!"

ضحكت منه سعيدة، قالت أن فى هذا الكفاية وأكثر...

ثم فتح باب زنزانته ودخل نيكلسون، فى التو واللحظة انتبه إبراهيم. كان عاريا تماما، لم يخرج من زنزانته منذ وطأها، قال:

– ما الذى تريده منى؟ كن رحيما بى واقتلنى الآن من فضلك. أنت تعرف كيف تقتل بالطبع.

– نعم. أعرف كيف أقتل. لكن، لا أظن أننى سوف أقتلك. هناك قتل كاف للبلدة فى يوم واحد. على أية حال، هذا من أسهل الأمور، لكن إذا أردت أن تعيش فعلا، فربما فكرت أن أقتلك، لكن لا. أعتقد أننى سوف أدهشك.

– كيف ذلك؟

– سوف أطلق سراحك.

– أرجوك لا تفعل هذا.. أرجوك، أقتلنى.

ابتسم نيكلسون واهتز فى مكانه:

– لا، لا أظن، عد مرة أخرى إلى مستر درورى، أخبره ما فعلت بك، كما تشاء. أنا لا أهتم البتة، أستطيع دائما أن أبرر أفعالى. ليس هناك ما أخشاه.

دفع إبراهيم خارج الطرقة:

- ارتدى ملابسك وسوف أخرجك.

بكل تردد ارتدى إبراهيم دشداشته الملوثة القذرة، شاعرا مرة أخرى بأنه غارق فى الأوساخ والأدران وما يقرز. ثم فجأة هجم على نيكلسون وضربه بقبضة يده. أخذ نيكلسون على حين غرة ووقع على ظهره بينما جثم إبراهيم فوقه بكل قوته، لكن نيكلسون استرد وعيه وقلب المائدة على إبراهيم ووضعه تحته.

- يجب أن تقتلنى يا مستر نيكلسون! إذا لم يحدث هذا، سوف أقتلك أنا!

ضحك نيكلسون، وهو يفح بنفحات من رائحة الويسكى فى وجه إبراهيم:

- لا يمكن أن أعدد لك عدد المرات التى قيلت لى هذه الجملة أيها الشاب الغرير.

أمسك إبراهيم من شعره ودفعه خارج الزنزانة حتى أوصله إلى البوابة الرئيسية للمستعمرة، تقدم نحوهما الحارس. قال نيكلسون:

- ألق به بره!

ثبت الحارس ذراعا إبراهيم خلفه وضربه فى ضلوعه ودفعه خارج البوابة وأقفلها بعنف ورائه. أخذ الحارس يصيح خلفه:

- أنت محظوظ يا ولد، اجرى بعيدا!

لم يشعر إبراهيم انه محظوظ وهو يجرى ناحية الظلام البعيد عن المدى الذى غطته أنوار المستعمرة.

* * *

فتح ناصر البوابة الخشبية لمنزله ووقف جانبا لكى يدع بيتر يدخل. يقع هذا المنزل فى نهاية حارة قريبة من سوق البلدة. كان شكل المنزل غريبا من الخارج، لكن بيتر أحس بالراحة وهو يخطو أولى خطواته على العتب. خلع صندله وعبر خلال دهليز على طول امتداد عرض المنزل وانتهى إلى غرفة بها نافذة خالية من ألواح الزجاج، لكنها مزينة بنقوش زخرفية من الخشب. هذا أعطى منظرا خلابا للشاطئ الخلفى والبحر. الدهليز كان عاليا والسقف عبارة عن أنصاف أعواد النخيل.

أرشد ناصر بيتر حتى غرفة المجلس فى مؤخرة المنزل. الوسائد كانت مرصوصة حول الغرفة كلها، وهناك نافذة كبرى تطل على البحر أيضا. بينما انشغل ناصر فى إضاءة لمبة الجاز، جلس بيتر صائحا:

- يا له من منزل جميل! أنت إنسان محظوظ يا مستر ناصر.

هز ناصر كتفيه ثم اختفى. سمعه بيتر وهو يتحدث بصوت خافت مع شخص آخر فى غرفة مجاورة. جلس ساكنا داعيا صوت أمواج البحر أن تهدئ من مشاعره. شعر أنه على بعد مليون ميل من منزله.

السلام الحال فى هذا المنزل أنساه كل المشاهد التى صدمته فى طريق سفينة.

أتى ناصر محملا بصينية بها أكواب الشاى. تنهد بيتر وتناول فنجان شاى بالنعناع واحتساه ممتنا. تحدثا عن سفينة القديمة قبل قدوم الأمير الشاب وبزوغ ثروة البترول. لاحظ بيتر أن ناصر يهفو إلى الأيام الغابرة، لكنهما عادا مرة أخرى ليتناولا بالبحث أحداث أيامهم هذه. قال ناصر:

– نحن نعيش فى ظل أيام صعبة خطيرة يا بيتر. من الصعب التكهن كيف سوف تكون النهاية. فى الأيام الخوالى نادرا ما كنت تجدنى جالسا هكذا فى وقت الأمسيات، كنت دائما فى حالة تجوال مع أصدقائى، نشرب الشاى فى السوق أو على شط البحر. الآن، ما أن ينتهى عملى، أعود إلى هنا وأظل فى منزلى لا أغادره. كانت سفينة مكانا خطيرا أيام الحرب الأهلية. كنا كما لو أنه قد أجريت لنا عملية طهارة فى التو. الآن تبدو الأحوال كأنما هذه الأيام قد عادت من جديد. أعتقد أننى إنسانا محظوظا لأننى امتلك منزلا أستطيع أن أهرب وألجأ إليه، كما أظن.

– نعم، أنت محظوظ.

– لا أفهم كيف تسنى لك أن تعيش هكذا بمفردك فى هذا المكان المهجور. ألم تخف أبدا؟

– ليس دائما، على أية حال، أنا لم أكن بمفردى كل الأوقات.

التفت إليه ناصر بحدة، ثم أخبره بيتر عن كل قصته مع إبراهيم.

– أين هو الآن؟ هل عاد إلى منزلك؟

– لا، لقد اختفى بالأمس. أنا مشغول جدا بسببه.

ثم أخبره بباقى القصة. ما أن انتهى بيتر حتى علق ناصر:

– هناك شىء يحيرنى. لقد سمعت عن هذا الولد وكيف انه هرب من قريته. أنا أعرف حامد نصر هذا وهو الذى أخبرنى عنه. لكن أنت تقول أن مستر نيكلسون قال لك أن والده قد توفى. أنا لم أسمع بذلك الموضوع، أعلم أن الأب قد استاء للغاية مما فعله ابنه، لكن لا أظن أنه قد مات بسبب ذلك.

– حسنا، هذا ما أخبرنى به نيكلسون.

هز ناصر رأسه:

– هل مستر نيكلسون هذا هو صديق لك؟

أجاب بيتر بحرارة:

– لا، أبدا.

– من المحتمل جدا أن يكون نيكلسون هو الذى احتجز إبراهيم عنده. فى أيامه طالما احتجز شبابا بحجة استجوابهم. إما أن يعودوا

ويظلوا صامتين عما حدث معهم، أو أن يختفوا تماما ويقال أنهم توجهوا إلى العاصمة ولا تسمع عنهم أى خبر بعد ذلك.

- وهل كنتم تحتملون ذلك؟

- ما الذى يمكن أن نفعله؟ انه يمثل الحكومة هنا.

احتار بيتر، هل يمكن أن يدلى بشكوكه لناصر. تردد فى القول، لكن بعدها سأل ناصر:

- لكن من تظنه دمر محطة الكهرباء؟

لكن قبلما يتلقى إجابة، وجد نفسه يدلى بكل معلوماته إلى ناصر. شعر براحة عميقة وهو يخلى ذاته غير مهتم بما إذا كان هذا تصرفا حكيما منه أم لا.

هز ناصر رأسه وعلق بالقليل عما أخبره به بيتر وما نطق به عثمان قبل وفاته، وعن الشكوك التى ساورت جوانا. أجاب ناصر عندما انتهى بيتر من سرده

- لعلك أنت على حق.

- هل تعتقد كذلك، لكن ما رأيك عما حدث الليلة؟ إذا كان كل من نيكلسون وهيبورث هما وراء كل تلك الأفعال، إذن من قتل هيبورث؟

- لعل نيكلسون هو الذى فعلها. لا تستغرب حدوث أى شىء بواسطة هذا الرجل. هل تعتقد يا بيتر أن ما أدليت به من أفكار لم يرد

أبدا فى أذهان الناس هنا؟ نحن لا نجرؤ على الإدلاء بشكوكنا ومخاوفنا لأننا نخشى من الجواسيس بيننا. لكن انظر إلى أوضاعنا هنا، الأمير يرسل لنا اثنين من الأجانب الذين فى قدرتهم أن يفعلوا ما يشاءون ويحكموننا. نحن شعب نعتز باستقلاليتنا يا بيتر، ربما هذه هى نقطة الضعف لدينا. إذا كان من السهل حكمنا، فربما كنا نحكم أنفسنا بأنفسنا الآن. على أية حال هذا اغرب شىء يحدث لنا، وهو أن نحكم بواسطة الأجانب. لذا ليس من الصعوبة بعد كل هذا أن نصدق أمرا أقل غرابة. نحن نؤمن بلا تردد أن كل المغتصبين سوف يتصرفون بطريقة شريرة – ألم يباشروا كل هذا الشر تجاهنا؟

– إذن ما العمل؟

هز ناصر كتفيه وهو يصب كوبا آخر من الشاى لبيتر:

– هذه هى المشكلة، يبدو كأن لا شىء يمكن عمله. كل فعل شرير يجعل نيكلسون يشعر بأنه أكثر قوة ومتانة، لأن هذه الأمور تزعج وتخيف الأمير. يقول الناس أن الأمير لا يغادر قصره فى العاصمة أبدا. هناك يستمع إلى الموسيقى الأجنبية ويترك لأتباعه مسألة إدارة البلاد.

– إذن أنت تظن أنه يفعل كل هذه الأمور بنفسه! لقد حاولت أن لا أصدق ذلك!

– نعم. أعتقد أن هذا ممكن الحدوث. وهذا لا يمثل بالنسبة لى أى نوع من الغرابة.

– إذن ما الذى يمكن أن نفعله؟

ضحك ناصر:

– أنت سألتنى نفس السؤال منذ لحظات! وأنا أكرر: ليس هناك ما يمكن صنعه. ما يشاء الله إلا [illegible]سنا.

نظر بيتر نحو ناصر بنظرة جانبية رافعا حواجبه:

– هل تصدق ذلك؟

ابتسم ناصر لكنه لم يعلق. بعد دقائق ذهب وعاد محملا بوسائد وأغطية.

– أنت تنام هنا. صوت البحر سوف يساعدك على النوم. "ثم أضاف"، ماذا عنك أنت يا بيتر، هل تظن أنه من الواجب أن تظل هنا فى بلدتنا؟

– لا أعلم. أنا خائف، لكن إبراهيم هذا هو صديقى. أريد أن أعرف ماذا حدث له. أريد أيضا أن أنجح فى عملى هنا، لكنى لا أعلم. على أن أفكر. أنا قلق من تواجدى وحيدا فى منزلى.

– حسنا، أنا معجب بشجاعتك. أنت مرحب بك هنا وتظل معنا مهما طال الزمن. ربما تكون تلك الليلة هى نهاية الأحزان والمتاعب. من يعلم؟

- هذا ما أتمناه يا ناصر.

تركه ناصر لكى ينام. ثم غادر المنزل متجها نحو مكــان السوق. كل شيء كان هادئا. استدار يسارا فى حارة أخرى ودق على باب منزل. فتح الباب على الفـور وأدخل ناصـر. سـأله المضيف مـا أن جلسـا فى غرفة المجلس:

- ما الأخبار؟

أخبره ناصر بكل الأخبار. ابتسم الرجل قائلا:

- الإنجليزى أفرج عن الولد إبراهيم.

- أين هو؟

أشار الرجل نحو الغرفة المجاورة.

- وما حالته؟

- انه فى قمة الغضب ويردد عبارات الانتقام.

ابتسم ناصر.

* * *

فى اليوم التالى، فى منتصف الصباح، غادر بيتر منزل ناصر.

أثناء الليل، استمر فكر معين يطارده، ثم تحول هذا الفكر ليصبح تصميما. سوف يذهب إلى جهيل ويستفسر عن إبراهيم. إذا، كما توقع،

لم توافه القرية بمكان تواجد إبراهيم. سوف يعرف تأكيدا ما إذا كان والد إبراهيم على قيد الحياة أم لا.

بالرغم أن ناصر اضطــر أن يخــرج مبكرا ليفتح مكـتب البريد، إلا أنه ترك تعليمات لأبنائه أن يتركوا بيتر نائما حتى يستيقظ براحته، ثم يقدم له الإفطار.

كان الوقت هو العاشرة صباحا، عندما قدم بيتر كل تشكراته لكل قاطنى المنزل - ويبدو أن هناك حشد كبير داخله - قبل مغادرته وتوجهه إلى مكتب البريد ليشكر ناصر.

سأل هذا بيتر:

- هل تشرفنى بالمبيت عندى هذه الليلة أيضا؟

- أعتقد أننى سوف أكون أفضل حالا. أشكرك على كل شىء. أشعر اننى أحسن حالا الآن.

- نعم، لأننا الآن وقت الصباح، لكن أنظر كيف يكون الحال عندما يحل الليل.

- سوف أكون فى أفضل حال. أشكرك. مع السلامة يا ناصر.

ساق بيتر سيارته وعبر السوق، لاحظ أن كل الأمور تسير سيرها المعتاد. يبدو أن الناس اعتادوا على منظر المسجد المهدم، بينما منارته الوحيدة واقفة منتصبة فى حالة انتباه، كأنما هى جندى وحيد يستعرض

ميدان المعركة أمامه. كانت هناك عربة محملة بالأسمنت بجوار مدخل المسجد، بجوارها عدد من العمال الهنود يراقبون اثنين من الرجال مرتدين دشداشات مغرقة فى اللون الأبيض يتناقشان وهما يشيران نحو المبنى. من الواضح أن المسجد سوف يعاد بنائه. أهالى سفينة لن يتركوا جراحهم تنزف بدون فعل شىء لشفائها.

السوق كان يشغى بالناس، الأهالى يحملون السمك فوق رؤوسهم، أو، يقبضون على السمك من ذيولها والجسم يتأرجح أثناء سيرهم. نساء محجبات يجلسن بجوار بضائعهن، وكالعادة، الذباب يحتفل بوليمة عظيمة.

لكن عندما فكر فيما أخبره به ناصر، تعجب بيتر من نفسه ولم يندهش من تلك الحالة العادية التى يتعايش الناس هنا فى ظلها. سفينة تخبئ قلبها فى ظلام أكمامها وهى لا تحتمل ذلك، لكنها الآن هى على وعى كامل أن هذا القلب ينبض بقوة وعنف. شىء غريب أنه لم يتحقق سابقا أن الناس هنا ليسو بهذا القدر من الذكاء بحيث لا يدركون ما يجرى لهم! لكن هذا بالطبع هو المسار الذي يجرى فيه عادة مسلك الرؤى الإنسانية. يمكن له هو أو جوانا أن يتنافسا فى تحليل أسباب تعاسة الإنسان وما تعانى منه سفينة، لكن لم يحدث له من قبل أن داهمه فكر يقول أنهم يفكرون بنفس أسلوبه هو، يحللون الظواهر ويصلون إلى قليل أو كثير من الاستنتاجات.

توقف عند المستشفى وتحدث مع جوانا وأخبرها عن خطة رحيله إلى جهيل. لقد سمعت هى عن مقتل هيبورث وقالت بأنها تلقت برقية من رئيسها فى العاصمة يسألها عما إذا كانت فكرة صائبة أن تغادر سفينة. هى لا تعرف، وأرادت أن تتحدث.

لكنها لم تأخذ راحتها فى الكلام، فهناك طابور طويل من المرضى تراصوا فى الممر الذى يؤدى إلى غرفتها. قال بيتر أنه سوف يعود لاحقا بعد عودته من جهيل.

توقف أمام منزله وملأ زمزميته من الماء والتقط عدد من البلحات الجافة ليأخذها معه، ثم تحرك بسيارته متجها شمالا فى اتجاه الجبال.

مثلما حدث مع نيكلسون منذ شهر سابق، كان على بيتر أن يسلك طريقا متعرجا لكى يتجنب فخاخ الرمال المتحركة التى تقع بين السهول والمحيط. عبر بهشيم سيارة مدفون معظمها فى الرمال وقد تركت هناك معرضة للصدأ، بعد عدة سنوات سوف تختفى نهائيا.

أوقف السيارة، ثم سار عابرا الهضاب متجها نحو جهيل. بحلول الساعة الواحدة ظهرا كان يهبط الوادى الكبير المنبسط.

حامد نصر كان على وشك قفل أبواب محله، عندما اقترب منه بيتر وعرفه بنفسه. كان الرجل مهذبا إلى أن ذكر بيتر اسم إبراهيم، حينئذ تغيرت أحواله قائلا بأن هذا الاسم بالذات تود كل قرية جهيل أن

تتناساه وتتجاهله وتمحوه من ذاكرتها. لم يجد بيتر أنه من المناسب أن يخبر هذا الرجل بكل القصة واعتذر لأنه بدد بعضا من وقته.

أخذ يتجول وسط القرية إلى أن اقترب من شاطئ البحر حيث عثر على اثنين من الشباب يصلحون شباكهم. قدم نفسه وأخذ يتحدث معهم قليلا عن الصيد، متفكرا، كيف تحولت أموره هكذا. لقد تخيل أنه سوف يجد إبراهيم جالسا هنا يصلح من شباكه وسوف يجده سليما معافى مماثلا لهؤلاء الشباب الجالسين والفخر يشملهم بسبب ما يحققونه من صيد وفير، والطريقة الناسبة لرصد تجمعات الأسماك وأحسن أنواع الشباك الكورية.

ثم سألهم عما إذا كانوا يعرفون إبراهيم.

زعق الشاب المدعو ربيع:

– وهل تعرف أنت إبراهيم، كيف حاله، ما الذى حدث معه؟

أخبرهما بيتر أن إبراهيم توجه فعلا إلى سفينة وكان يعمل لحسابه، لكنه فجأة اختفى.

قال زميل ربيع المدعو سالم:

– إذن لما حضرت إلى هنا؟ انه لا يمكن أبدا له أن يحضر إلى هنا! بالنسبة إلى معظم الناس هنــا، إبراهيم يعتبر إنسانا كافرا.. إذا سمحت لى فى هذا القول.

- لكن انتم لا تظنونه هكذا، أليس كذلك؟

- حسنا، ما فعله كان خطأ بين، لكن إذا أتيحت لى نفس فرصته إذن لغادرت جهيل على الفور بدون الاعتناء برأى أهلنا هنا، من يهتم بما يفكر فيه الناس!

لم يعلق بيتر على ذلك. ولم تدهشه هذه الإجابة بالمرة. لقد خدش السطح فانبثقت نفس الدماء التى نزفت من جراح إبراهيم، قال:

- لكن ماذا عن والده؟

هز ربيع رأسه:

- آه.. والده.

- هل هو حى أم ميت؟

- هو حى، لكن من النادر أن تقع عينيك عليه. انه منعزل تماما، من النادر أن تراه فى الجامع ولا يأتى أبدا لكى يساعد فى القوارب التى يمتلكها.

- أين يعيش؟

- بالقرب من هنا.

- هل من الممكن أن تدلنى على منزله؟

- هو لن يرحب بك ولن يراك.

- حسنا، ليس عليك سوى أن ترشدنى إلى مكان منزله.

هز ربيع رأسه. كليهما قام على حيله فتبعهما بيتر سيرا فى شوارع القرية حتى وصلوا إلى منزل صغير. قال سالم:

- هو يسكن هنا. لكن لا يمكن أن ندخل معك، هذا الأمر متروك لك.

- أشكركم.

سأل سالم:

- يا مستر، أين تسكن فى سفينة؟ الآن وقد اختفى إبراهيم، ربما تحتاج إلى خادم آخر.

هز بيتر رأسه ببطء وهو يبتسم:

- لست فى حاجة إلى خادم جديد. شكرا.

بدت مظاهر خيبة الأمل على وجه سالم، لكن ربيع لكز يده وسحبه مبتعدين.

- مع السلامة يا خواجة.

خبط بيتر على الباب. لم يلاحظ أن هناك استجابة لطرقه. طرق الباب مرة أخرى، أخيرا فتحت فرجة بسيطة من الباب.

- ما الذى تريده؟

- هل أنت والد إبراهيم؟

لم يحصل على إجابة. شعر فجأة بمدى عوارية مهمته. كان واضحا أن إبراهيم ليس في القرية. لم يسمع عنه أحد منذ أن غادر هذه القرية، كاد أن يعتذر ويتراجع لكنه وجد الباب ينفتح على مصراعيه.

مد بيتر يده إلى الرجل العجوز، والد إبراهيم. أخذ الرجل يتأمل في تلك اليد الممدودة لفـترة، ثم مد يده وهـز يد بيـتر بشكل بطئ. تمتم ببعض التحيات وطلب من بيتر أن يدخل.

– أنا آسف لأنني أزعجتك بهذه الزيارة.

هز الرجل رأسه.

– ابنك إبراهيم، هو صديق لي.

ثم أخبر الرجل العجوز بكل القصة، آملا أن يكون هذا مبررا لإزعاج الرجل في مقره الهادئ. عندما انتهى، لاحظ بيتر أن الرجل كان يبكي وينهنه. ظلا صامتين إلى أن قال والد إبراهيم:

– عندما هرب إبراهيم حلفت أن لا اصفح عنه أبدا. جعلت الأمر معلوما للكل أنه ليس لدى ابن فيما بعد. العار الذى ألحقه بنا كان هائلا، أعتقد أنك تفهم ذلك. لكن، مع مرور الزمن، شعرت بتغيير يحدث داخلي، الآن أشعر أن وحدتي أقوى كثيرا بالمقارنة بغضبي. انني متوحد هنا بينما يحيط بي كل الأهل، ليس لأنني خجل من تصرفه، لكن لأنني حزين. أعتقد أنني أتفهم الآن عما دار في خيال إبراهيم. انه نفس الأمر إلى يدور داخل أفئدة آلاف

من الشباب هنا فى بلادنا . فليساعده الله، هو نتاج زمنه. كانت غلطتى الكبرى هى أننى سمحت له بالرحيل فى المرة الأولى. لم أعرف أنه بعدها لن يعود مرة أخرى إلى قريته. وقتى الطويل هو الذي أتاح لى أن أفكر وأصل إلى هذه الاستنتاجات. إلهنا يغفر الذنوب فى كل لحظة من اليوم، إذا لم أستطع أن أغفر لابنى فإننى لن أدعى مسلما فيما بعد.

– يا سيدى العزيز، كنت أود أن يكون ابنك حاضرا هنا لكى يستمع بأذنيه تلك الكلمات التى نطقت بها . انه لا يصدق أبدا أنك قد غفرت له.

– حسنا ، هو ليس هنا الآن، أليس كذلك. فى الواقع، أنا خائف أن يتعرض إلى أى أذى. هل يمكن عندما تعود أن تخبرنى بأى أخبار جديدة عنه من فضلك؟

– نعم بالطبع، ربما استطعت أيضا أن أحضر معى صديقى.

– أشكرك. لكن بالرغم أننى قلت لك أنه من الممكن أن أغفر له، لكن هذا لن يكون موقف أهالى قريتنا جهيل. لذا لا أعتقد أنه سوف يعود ليعيش هنا .

هز بيتر رأسه. أردف العجوز:

– آسف لأننى لا أستطيع أن أستضيفك. اننى خجول من نفسى، ما كانت والدة إبراهيم تنطق به فى هذه الظروف، هذا ما لا أعرفه.

غادر إبراهيم منزل الرجل العجوز. الشمس كانت تستعد للغروب وهو يسلك الطريق الخشن فى اتجاه سفينة. لم تمده جهيل بأى أخبار عن إبراهيم، هذا حقيقى، لكن ما أثلج صدره هو ما استمع إليه من حديث والد إبراهيم عندما عرف بعض من أخبار ابنه. أحس إنها هى نفس المشاعر التى يمكن أن يشعر بها إذا كان فى مكانه. ما سوف يكون رد فعله إذا ظهر ابنه الضال على عتبة بابه؟ انه بالطبع سوف ينسى كل شيء ويقع على عنقه مرحبا به. تمنى أن يقوم إبراهيم بتحقيق هذه الرحلة الصعبة إلى قريته هذه ويحدث كل هذا معه. تمنى له كان على صواب وأن كل الناس ليسوا مختلفين مهما كان موقعهم ومكانتهم.

إذن ما هو موضوع نيكلسون هذا؟ لقد كذب عليه بخصوص والد إبراهيم وكان يفشخ فمه بابتسامة جوفاء وهو يكذب. إذا كان فى مقدوره أن يكذب فى هذا الشأن، إذن هو قادر أن يكذب بالنسبة لأى موضوع آخر. كان المغرب قد حل عندما وصل إلى منزل جوانا.

* * *

قال بيتر وهو جالس داخل مقر جوانا:

- كنت أود لو كان عندى بندقية.

لقد أحتسى قدراً كبيراً من الخمر حتى وقت متأخر من نفس الليلة.

- ما الذى يمكن أن تصنع إذا كان معك بندقية؟

– يمكن بها أن أنتزع الحقيقة من فم نيكلسون.

– لقد قربعت خمرا كثيفا يا عزيزى!

– إذن أنت مقتنعة اننى غير قادر على استخدام البندقية؟

– بصراحة لا. لا أعتقد أنك بهذه الطبيعة العنيفة. سوف ينقح عليك ضميرك، ثم سوف تبعد فوهة البندقية وتعتذر بأنك كنت سخيفا للغاية.

– أوه.. إذن هذه هى الحقيقة.

– نعم، هذا ما أظنه وأعتقده.

فكر بيتر لفترة ثم قال:

– إذن ما الذى يمكن أن أفعله؟ يجب أن أفعل شيئا.

– يمكن لك أن تذهب إلى السفارة.

– وإذا طلبوا منى دليلا. أين الدليل؟

– لقد بحثنا هذا الأمر قبلا يا بيتر. ليس لدينا الدليل. أوه، دعنا لا نثير هذا الموضوع مجددا تلك الليلة. لقد ارتبك مخى من كثرة التفكير فيه.

– لكن ما رأيك فى موضوع مقتل هيبورث؟

– توقف! لا يمكن أن نحل هذا الموضوع الآن. كلانا تعبان، فقط استرح وخذ قليلا من هذه الخمر السيئة.

* * *

و، بينما يجاهد بيتر أن يتناساه قليلا، نجد نيكلسون وقد صحا من نوم طويل. خالط نومه كابوسا مزعجا جعل العرق يتصبب من كل أجزاء جسده. لقد فقد يوما بأكمله، يوما كان من الممكن فيه أن يكتب بعض التقارير ويرسلها إلى العاصمة ويهتم بموضوعات تختص بمقتل هيبورث. خلال هذا اليوم كان من الممكن أن يكنس البلدة بأكملها ويجمع كل المشتبه فيهم أو حتى أى شخص يلقى عليه نظرة جانبية. كان واجبا عليه أن يظهر أسنانه ويبعث الخوف في النفوس.

لكن بدلا من ذلك، عدى عليه النهار ولم ينجز شيئا والنوم شحنه بالخوف. انه لا يتذكر أى من أحلامه، لكنها جميعا تتركه ضعيفا وخائفا. انه لا يدرى ما الذى يبعث فى نفسه هذا الشعور، هل هى روح هيبورث تطلب منه الانتقام؟ لا، لا يمكن أن تكون هذه، انه لا يؤمن بهذه الخزعبلات. انه لا يؤمن بأى شىء، هل هذا حقيقى؟ حسنا، فكر، ليس كل شىء. أنه يؤمن بنيكلسون وقوة الأنانية الطاغية وحكمته ورؤاه. لكن الآن بالذات، فى هذه اللحظة، تعجب، هل هذا يعتبر كافيا، هل نسى شيئا لم يلتفت إليه، لكن ما هو؟ لا. انه شىء سخيف. سوف يختفى هذا الشعور بمجرد اكتمال صحوه، حينئذ سوف يستعيد كل تصوراته السليمة.

لكن آه، هو لم يكن حذرا بما فيه الكفاية. لقد أطلق سراح هذا الولد السخيف. ما الذى جعله يفعل ذلك؟ إنها تلك الخمر اللعينة. لقد كسر واحدة من أهم قوانينه العتيدة: "لا تتبرز على عتبة بابك، قبلما أن تكون مستعدا لتنظيف المكان لاحقا". الأمور سوف تسرى

بسهولة لو فكر أن يتخلص منه ويخفيه إلى الأبد فى مكان لا يخطر على بال أحد- هذا على فرض أن هناك من سوف يبحث عنه. لكن هو كان طريا ولينا.. لماذا؟ مهما كانت الظروف، كان واجبا عليه أن يقاوم، ويخمد أى أفكاره معاندة لقراراته.

لم تعجبه تصرفاته اللينة تلك. كره نفسه ولعن طراوته، لذا أسرع بالخروج إلى الفراندة وأخذ ينادى بصوت عال على مراد وزين.

عندما حضرا، قادهما إلى غرفة نومه، قال لهما:

- افعلا بى ما تشتهيان.. وبعنف!

بكل سعادة وحبور، لبى كل من مراد وزين كل رغباته.

* * *

فى تلك الليلة ذاتها، أخذ ناصر إبراهيم إلى منزله ووضعه فى نفس الغرفة إلى بات فيها بيتر الليلة الماضية. ثم أعطاه منوما فعالا لأن الولد اشتعلت داخله حمى شديدة جعلته يرتعش ويتصبب عرقا، ثم أقفل عليه الباب وتركه.

ناصر وأصدقائه استبقوا عندهم إبراهيم معظم الليلة السابقة محاولين معرفة كل الحقائق منه. لم يكن الأمر سهلا فى البداية، لكن عندما علم إبراهيم أن ناصر هو صديق لبيتر وإنهم يعضدونه وسوف ينتقمون من نيكلسون بسبب ما فعله فيه، اخبرهم بكل ما يعرفه.

في صباح اليوم التالي، وما زال إبراهيم نائما، أصدر ناصر أوامره لأهل منزله بأن لا يفتحوا الباب لأحد وهو غائب. ركب سيارته وساق حتى المستشفى ليقابل صديقته العتيدة ماري آن. ما أن عثر عليها حتى قال لها:

– من فضلك احضري وزوريني. أنت لا تحضرين عندي هذه الأيام!

كانت ماري مشغولة في معاينة المرضى وإرسالهم إلى مختلف الجهات المختصة في المستشفى وفي يد كل واحد منهم تقريرا بحالته. تساءلت ماري آن:

– هل هي زيارة اجتماعية عادية أم أحضر معي شنطتي الصغيرة السوداء؟

ابتسم ناصر:

– عزيزتي ماري آن! معك دائمًا أرغب أن تكون زيارتك لي اجتماعية، لكن لو حضرتي ومعك شنطتك السوداء...

– حسنا يا ناصر. متى أحضر عندكم؟

– بأسرع وقت ممكن.

– إنها زيارة اجتماعية عاجلة.. أليس كذلك؟

– حسنا، نعم.

ثم اقترب منها وأخذ ينظر يمينه ويساره قلقا وهمس:

– لدينا ولد مريض للغاية فى بيتى. لا يمكن لى أن أحضره إلى المستشفى لعدة أسباب وجيهة.

– فهمت.. هل افترض أن هذا له صلة بما حدث للمسكين هيبورث؟

غمز ناصر:

– أنت تعرفيننى منذ زمان بعيد يا أختى. نعم، لها صلة إلى حد ما، لكن صلة ضعيفة للغاية.

– ما هى نوعية إصاباته؟

قالت ذلك بشكل طبيعى. إنها تتذكر ناصر القديم أثناء فترة الحرب الأهلية. طالما ساعدته فى تطبيب المصابين فى المعارك. حينذاك ما كانت لتلقى سؤالا. كانت تعالج رجال الحكومة والمرتزقة والأهالي الذين يكتوون بنيران الحرب. كانت تشعر أن تلك مهمتها، أن تعالج المصابين حتى ولو كانوا من المتمردين إذا دعيت لذلك. ربما يكلفها هذا الكثير مع الحكومة، على الأقل سوف يستبعدونها من سفينة، لكنها كانت تمنطق الأمور فى تلك الأيام وتقنع نفسها أنها ليست تعمل لحساب الحكومة. هى هنا لتخدم الكل ولتبين للجميع مقدر محبة الله وما تعنيه. أيضا، إذا رفضت، فإنها بذلك تفقد احترام جزء كبير من أهالى سفينة.

– هو لديه جروح فى منطقة حساسة للغاية؟

– فهمت، أرجو أن لا يكون الأمر خطيراً. وربما لا أستطيع أن أتعامل مع الحالة بنفسى. أنا لست طبيبة كما تعلم.

– لا. أنت دكتورة، بل وأفضل من ستين دكتورة.

– أشكرك من أجل ذلك. حسنا يا ناصر، سوف أحضر اليك بعد الظهر.

– أرجو أن تحضرى عندى وتشرفينى بتناول الغذاء معى.

– نعم، هذا ما سوف أفعله. أشكرك.

حان الدور الآن على مارى لكى تلتفت يمينا ويسارا، لذا أضافت:

– أنت لست معرضا لأى متاعب يا ناصر؟ الأمور تجرى من سيء إلى أسوأ، ولسنا فى حاجة إلى أن يتعرض أعز صديق لى لأى متاعب.

– لا. لا أعتقد أننى معرض لشيء، لكن أنت على حق. هناك الكثير من المتاعب قادمة. أنا وبعض من أصدقائى نحاول أن نضع نهاية حاسمة لها.

ابتسم ابتسامة واسعة فى وجه مارى آن واتفق معها أن يعود إليها فى وقت متأخر من هذا النهار لتذهب معه. ثم تركها لتنشغل بمرضاها.

شعرت هى بقدر من عدم الارتياح، لكن روحها كانت فى قمة الانتعاش. فكرت:

"حسنا، يبدو اننى سوف يتم وضعى وسط الدوامة مرة أخرى، هذا يرضينى تماما".

* * *

بحلول اليوم التالى، شعر نيكلسون أنه أفضل حالا. نهض مبكرا واستحم بخفة ولم يأبه بفقد طبقة أو طبقتين من جلده باستخدام اللوفة بكل همة ونشاط. متاعبه ومعاناته خلال الست والثلاثين ساعة الماضية خفت وسكنت بعد المعاناة الجسدية التي تعرض لها الليلة الماضية. لا شيء يعدل الألم الحقيقى لتسكين الألم النفسى. لقد فعل كل من مراد وزين واجبهما وأكثر. بعد الاستحمام، ابتسم لنفسه فى المرآة ثم خاطب صورته، "الآن حل وقت انتعاش الاستخبارات!"

منذ يومين سابقين، كان قد عين مخبرين لمتابعة تحركات بيتر درورى. واحدا منهم حضر إليه وهو ما زال يرتدى ملابسه، قال أنه شاهد بيتر ومعه جوانا قد ركبا السيارة وسلكا الطريق الخارج من سفينة ناحية داخلية البلاد. طلب نيكلسون غرفة الحراس وأمر مراد وزين أن يتتبعا بيتر وجوانا ويعلما وجهة مقصدهما.

بشكل غير واضح، ظن انهما فى طريقهما إلى جهيل ليستعلما عن إبراهيم، فمن الواضح أن الولد لم يتوجه إلى منزل بيتر، وألا ما كان بيتر قد قضى كل هذا الوقت مع جوانا. طبعا لا، وألا كان الآن منهمكا فى دلك مرهم ملطف على فتحة شرج الولد، أو أن يندفع داخل منزله مبرطما ببعض التهديدات الفارغة. لكن نيكلسون لم يتوقع أبدا أن يقوم إبراهيم باللجوء إلى منزل بيتر، ليس الآن على أية حال، بالطبع هو سوف يقضى يوما أو يومين فى عرض الصحراء يلحس جراحه. ربما، حتى بعد ذلك، لن يكون قادرا على الرجوع إلى بيتر.

قدم إليه خادمه وجبة خفيفة التهمها نيكلسون بلذة غريبة - شعر أنه سوف ينجز عملا ضخما هذا اليوم. هناك تقارير عليه أن ينجزها واستخبارات يجب أن ينشغل بها. لكن بمن يبدأ؟

هناك العديد ليختار منهم، أولا أبو على فى ظاروت، حامد المؤذن، و، طبعا ناصر البوسطجى. ثم، اذا كان هناك وقت، سوف يكتب خطابا لطيفا إلى دورثى زوجة هيبورث وفيه ينعى لها بعلها انتقاله إلى السماء ويتمنى لها فترة ترمل سعيدة. انه يوم مرض للغاية.

عمل فى مكتبه لمدة ساعة، إلى أن دق مراد الباب ودخل:

- ما لديك من تقارير؟

- الرجل والمرأة ذهبا إلى بركة فى الوادى تلك التى بجوار برج المراقبة القديم، هما يعومان سويا ومعهما طعاما، هما أيضا...

- نعم.

- لا يرتديان شيئا يا سيدى!

قالها مراد مصدوما، لذا صرخ نيكلسون:

- الحيوانات!

هو بذلك يرضى احساسات مراد البدوية

- هل هذا كل شيء يا سيدى؟

- نعم، هذا كل شيء. أشكرك.

خرج مراد من الغرفة. عاد نيكلسون إلى عمله لبضع دقائق، لكنه فى الواقع كان مستغرقا فى التفكير فى هذين المتهتكين فى البركة. طالما كانت هذه البركة هى المفضلة بالنسبة له. قبل حدوث كل هذا، لم يكن هناك شيء يسره أكثر من الذهاب لتلك البركة مصطحبا معه سبت ملئ بالأطعمة وكذلك بعض من روايات ايان راند. الآن هوذا اثنان سخيفان ملعونان يلعبان فى بركته وهما عرايا بالكامل.

ابتسم نيكلسون وفكر أنه إذا عثر عليهما المتمردين، فإنهم سوف يستاءون بشكل بالغ اذا شاهدا هذين العريانين، حتى ربما...

صوت داخلى أخبره أن يستمر فى عمله ويترك هذا الموضوع لحاله، لكن هناك صوت آخر ملح صادر من أعماقه أخذ يردد، "هما عرايا.. عرايا".

* * *

حضر بيتر مصطحبا جوانا إلى بركة الوادى، لكنه كان يشعر بالذنب. هو لم يذهب إلى العمل اليوم السابق، شعر أن مرور يومين بدون الذهاب لمكان العمل يعتبر ذنبا لا يغتفر، ليس لأن عمله لا يمكن الانتظار، لكن بالأكثر أنه يعلم أن مستر صديقى وأحمد ونصراوى سوف يقلقون عليه. لكن جوانا كانت قد حصلت على يوم أجازة وظنت أن بيتر فى حاجة لوقت من الاسترخاء. أخيرا سمح لنفسه أن يرضى بخطتها.

أعدت جوانا صندوق تبريد به بعض الخمور، البيبسى، خبز، جبنة شيدر مربعات واردة من استراليا كذلك نصف علبة من توفى كوالتى ستريت.

عندما وصلا إلى المكان. فرمل بيتر وتوقف بعيدا عن الطريق بجوار جانب الوادى. كانت هناك كتلة ضخمة من السحب تتجمع وراء الجبال، تحتاج فقط إلى دفعة بسيطة بواسطة الريح لكى تستقر فوقها وتغرق سفينة وكل ما حولها. لكن الشمس كانت تبرق بقوة. سألت جوانا:

– إلى أين سوف نذهب؟

– ليس بعيدا، فقط بعد الهضبة التالية.

سارا، ثم ظهرت أمامهما البركة، ويدا بيد اتجها نحو المياه، قالت جوانا:

– هذا منظر رائع الجمال! كيف اكتشفتها؟

أخبرها بيتر كيف أن هذه البركة صادفته فى أول يوم حضر فيه إلى سفينة. ثم رجع إلى سيارته وأحضر الفوط وصندوق التبريد. تنهدت جوانا:

– كنت أود الاستحمام فى هذه البركة، لكنى لم احضر مايوه.

– لا تهتمى بذلك، لا أحد يحضر إلى هنا.

توقفت جوانا وأخذت تستعرض المكان حولها. عبر البركة شاهدت دغلا أخضر وبعض النباتات الصحرواية التى صنعت خطا مستقيما كحد يفصل عن الجبال البعيدة. على البعد شاهدت منظر نهر يفقد ملامحه وسط الهضاب. وجدت جوانا نفسها تخطط لرحلات مستقبلية إلى هذا المكان بمفردها، لقد نسبته على الفور لنفسها، هى ليست سوى حديقة غناء تمتاز بأنها بعيدة عن سفينة وعن المستشفى أيضا. كان هناك شىء يتحرك خلال النهر الضئيل الحجم المحيط بالصحراء الخالية. لا شك أن هذا النهر يحاول قدر جهده أن يشق طريقه نحو البحر، وربما يحدث هذا بعد هطول كثيف للأمطار.

خلع كل من بيتر وجوانا ملابسهما، نزلا البركة وهما عرايا. برودة المياه أدهشتهما سويا وصدمتهما، بينما يتذكران هما أن مياه المحيط دائما ما تكون فاترة، لم يكن من المحتمل أبدا أن تتواجد مياه فى مثل تلك البرودة فى كل أنحاء سفينة.

أخذا يعومـان حول البركـة الصـغـيـرة بهـدوء، تقريبا بـاحـتـشـام واحترام، كما لو كانا في زيارة لكنيسة أثناء تقديم الخدمات الدينية. أرادا أن لا يزعجا هذا الهدوء الذي يسود المكان كله، لذا أخذا يحدقان تحت أنوفهما على أجسادهما أسفلهما. كانا يتحركان مع الاحتفاظ بحالة الطفو لكي يمنعا السمك الصغير من عض سيقانهما. كيف وجدت تلك الأسماك الشفافة طريقها إلى هنا؟ إنها معجزة أخرى.

لم يتحدثا سويا، أحيانا يصبح الهدوء بينهما لا يحتمل، لذا تجدهما يطرطشان بأيديهما لكن برقة متناهية لكي يحدثا حركة بسيطة في المياه، ويراقبانها وهي تنزلق على أذرعتهما.

هذا المكان جعلهما سارحين في الملكوت.

لم ينسى بيتر إبراهيم، لكنه وضعه في مؤخرة ذهنه. الآن، وبطريقة عكسية، انسحب خياله نحو زملائه في مدرسة موطنه بانجور. ما الذي يفعلونه في تلك اللحظة بالذات؟ لعل مدرس الطبيعة يصحح الآن بعض الكراريس وفي نفس الوقت يدخن غليونه، بينما مدرس الكيمياء منهمك في شرح درس صعب لتلاميذه. فكر، هو الآن هنا وليس هناك، إنها معجزة. هو الآن يرقب مجموعة من الأسماك الدقيقة التي تحاول أن تستجمع أكبر قدر من شجاعتها لكي تهاجم وركه المتحرك. ترك لبرهة جسده ساكنا وشاهدهم وهم يقتربون بحذر نحوه لكي يتسلون بعضه،

لكن عضاتهم لم تفعل شيئا سوى أن تدغدغه قليلا. فجأة غطس فى الماء حتى مس القاع الصخرى:

"تعالوا، يا أطفالى، دعونا نبتعد.. إلى الأسفل، نعم إلى الأسفل.. دنج دونج بيل.."

لم يجد اقتباسات أخرى يرددها وهو مستكين فى القاع، أيضا فرغ منه الهواء، لذا دفع جسده حتى طفا على سطح البركة متفكرا أنه فى العالم المثالى تكون حادثة الغرق لها نفس المشاعر الذى اكتنفته وهو فى قاع البحيرة، لكن هو لم يكن يغرق، كان يعيش! ببطء وسهولة منقطعة النظير ظهر أمام إشعاعات الشمس الحانية. ما أن شاهدته جوانا حتى صاحت:

– كنت تود أن تبعث القلق فى داخلى؟

كانت هى منهمكة فى التدرب على ضربات اليد فى السباحة على الصدر، بينما تبث أنفاسا كأنما هى تنفخ فى طبق ساخن من الشوربة. سألها بيتر:

– هل أنت سعيدة؟

– نعم، فى قمة السعادة.

– هل ترشحين لى مكانا تناول الغذاء فيه؟

– فعلا، أن أحس بجوع فظيع.

خرجا من الماء، جلسا وأخرجت جوانا الطعام وشرعا فى تناوله. كان بيتر منهمكا فى الحديث عن إبراهيم معبرا عن مدى تشوقه لأن يستأنف الدروس التى كان يعطيها له. هذه الدروس، جعلته يشعر كأنما هو قد عاد ليصبح مدرسا حقيقيا مرة أخرى. كانت هى تهز رأسها وقد رقدت على جنبها بينما ثديها تجمعا فوق يديها. فكرت أنه أمر غريب عدم تواجد أى نوع من التوتر بينهما الآن. هو أيضا راقد هكذا عاريا يتحدث عن إبراهيم وهى تنصت بانتباه. لم تشعر بأى رغبة فى معاشرته. أحست بالارتياح لأن هذا الشاب النحيل العصبى يبدو على راحته تماما بحيث يستطيع أن ينزع عنه بنطلونه وكل ملابسه الداخلية بلا خجل. شعرت جوانا أنه بالرغم إنها لم تجد لها حبيبا فى سفينة، هى على الأقل عثرت على شخص تستطيع بكل ثقة أن تطلق عليه لفظ "أفضل صديق". انه إنجازا رائعا.

بعد الغذاء، رقدا لينالا حماما شمسيا. حالا عمل الخمر مفعوله فنعسا. حلم بيتر بالسودان، أحضر هو أولاده هناك إلى بحيرة صغيرة موقعها لا مكان، شاهدهم وهم يسبحون مسرورين منطلقين. سألوه، "هل يمكن أن نحضر إلى هنا فى الغد يا سيدى؟". أجاب هو، "بالطبع، تستطيعون! لقد عثرنا على هذا المكان بجهدنا، لذا سوف نحضر إلى هنا كل يوم، هذه البحيرة هى لكم طالما أن...

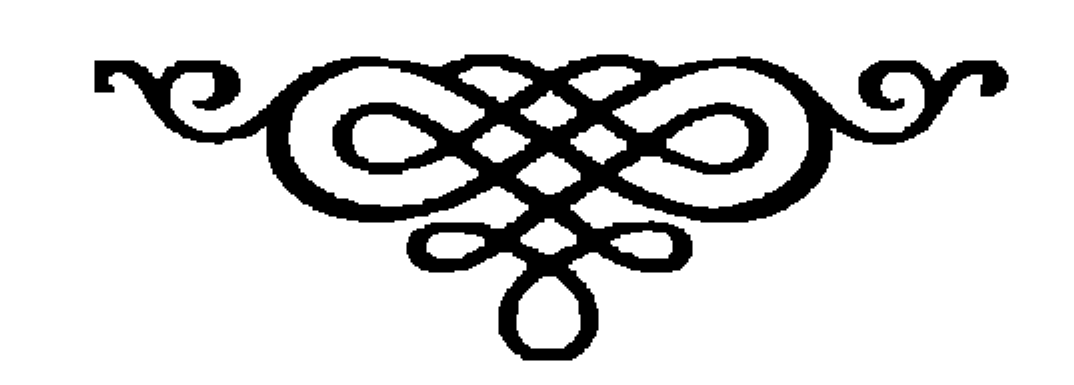
* * *

استيقظ فجأة مع صوت الطلقة التى قتلت جوانا. جلس مفرودا وراآها. عبارة عن ثقب نظيف فى منتصف جبهتها تماما، عيناها مغمضتان نوما، فمها الدقيق منفرج قليلا، قام سريعا والتفت حوله. أطلق نيكلسون بندقيته على بيتر وأصابه فى ذراعه. رآه بيتر وهو يبتسم ثم وهو يصوب البندقية مجددا. استدار لكى يهرب لكنه جرى ناحية الماء، التقط نفسا سريعا، لكن وهو فى حالة من الصدمة، أحس بألم مفاجئ فى وركه الأيسر، شعر بألم لم يعهد مثيلا له من قبل، انتشر هذا الألم ولم يدر أين المكان الذى اخترقته الرصاصة الجديدة، غطس سريعا فى الماء ومس قاع البحيرة. لاحظ أن أشعة الشمس ترشح خلال المياه فى الأسفل، سمع صوت رصاصة تلطم المياه ثم أخرى، رئتاه الفارغتين من الهواء جعلته يكاد أن ينفجر. أخذ يتخبط ويشرب الماء وهو يعوم فى القاع إلى أن شاهد صدفة الحفرة الجانبية. لقد نسى هذه الحفرة تماما، هل يمكن أن يمر من خلالها؟ ماذا عن جوانا؟ سمع صوت طلقة جديدة، لكن لم يشعر بألم جديد، ثم أخذ يعوم بشكل جنونى ملتمسا تلك الحفرة. أراد أن يستسلم ويغرق نفسه، لكنه داوم السباحة على جانب البركة السفلية، لم يكن متأكدا أنه قد اختار الجانب السليم. وصل أخيرا إلى مكان الحفرة وجذب نفسه داخلها حتى ظهر على سطح البركة الثانية. هناك ألقى بنفسه على صخرة بارزة يحدق بذعر فى المياه التى تحولت إلى اللون القرمزى. لم يكن فى استطاعته أن يحدد المكان الذى ينبثق منه الدم،

لكن منظر الدماء جعل معدته تتحرك، تقيأ بعنف وانتظر أن يشاهد وجه نيكلسون فوقه وبكل هدوء، مع ابتسامة تملأ وجهه يستنفذ ما تبقى من حياته.

أخذ ينصت لكنه لم يسمع شيئا. شعر بقدر من الهدوء مع انقضاء الوقت لكنه شعر بالبرد يسيطر عليه، هذا جعل الذعر يعود إليه. أين ذهب الألم؟ أين ذهب نيكلسون؟ هل رحل؟ ماذا عن الأطفال؟ لقد تركهم هناك بمفردهم تحت رحمة الشر. لقد خذلهم، هو يشبه الآخرين.

ثم أغمى على بيتر.



(١٧)

صاح إبراهيم فجأة ثم انتصب جالسا فى سريره بغرفة مجلس ناصر. هناك على الحائط قبالته معلق صورة آيات من ذكر الحكيم. "بسم الله الرحمن الرحيم...". قرأ هذه الآيات عدة مرات. إنها فاتحة أى عمل يقوم به المسلم فى حياته، تقرأ هذه الآية قبل الأكل أو ترديد آيات من القرآن أو الاستعداد لعمل ما أو القيام برحلة. لكن إبراهيم شعر انه فى نهاية كل شيء وأن تلك الآية ليس لها أى صلة به.

وضع ناصر قطعة قماش سوداء، هى حجاب امرأة، على النافذة. فى الجانب البعيد، أمكن لإبراهيم أن يميز صوت أمواج البحر وهى تتكسر. الصوت لا يختلف كثيرا عما كان يسمعه وهو فى منزله بقريته، لكن هنا البحر أكثر قربا وتقريبا صوته يطغى على أى صوت آخر. بعض من الأطفال كانوا يلعبون قريبا من نافذته. بعض من حديثهم كان يصل لأسماعه عندما تتراجع الأمواج إلى الداخل: "أعطنى كرتك!"، "لا أستطيع، أخى قال لى أنه بالامكان أن ألعب أنا بها"، ثم صوت عراك قبل أن تغرق الموجة التالية هذا الصوت أيضا. ثم سمع صوتا متصلا لنحيب طفل يبكى.

كان ناصر وأصدقائه رحماء، صديق لهم يعمل عند نيكلسون أخبرهم بكل ما حدث، لذا انتظروا بجوار أسوار مستعمرة نيكلسون لكي يستحضرونه اذا أطلق نيكلسون سراحه. عندما تعثر أثناء سيره، أخذ يناضل بعنف ضد آسريه الجدد بالرغم من جهده الضئيل، كل ما كان يرغب فيه هو أن يموت. العالم أصبح بالنسبة إليه مشابها لتلك الرمال السارية إلى يتلاعب بها موج الشاطئ جيئة وذهابا.

قبلما يأتى ناصر إلى المنزل الآخر ليتحدث معه بهدوء، لم يسمع من إبراهيم سوى العبارات التى تعكس مقــدار يأسه ورغبته الغامرة فى أن ينتقم. سأل لما فعل به نيكلسون كل هذه الفعال، لكنه عجز عن ذكر الأسباب.

ما أن أصبح بمفرده مع ناصر، حتى استطاع أن يدلى بكل قصته، بعد الانتهاء من سردها، قال ناصر:

– لا يمكن لى أن أعدد لك عدد المرات التى حدث فيها مثلما حدث معك لشباب آخرين. هذا هو السبب الذى من أجله يشترك بعضهم فى نضال محتدم ضد تلك الأوضاع الغبية. نيكلسون هذا ليس سوى حامل للمرض. خطاياك وآثامك لا تقارن أبدا بما فعله الآخرين. صدقنى يا إبراهيم، الوقت ليس متأخرا بالنسبة لك، يجب أن تعود وتصلى لله.

صدر عويل متقطع من إبراهيم وهو يقول:

– لكن الله لن يغفر لى أبدا! أبى مات. أنا الذى قتلته.

– أبدا . أبوك لم يمت، انه حى، هو فقط حزين.

بكى إبراهيم ارتياحا عندما سمع ذلك. جزء من متاعبه التى تغرقه انزاحت، لكن الحمل ما زال ثقيلا. شعر أن قدرته على حملها تفوق طاقته، لذا قال:

– لكن أنا يستحيل على أن أعود لقريتى.

– ربما يكون هذا صحيحا وربما لا . الزمن هو الذى يمكن أن يخبرنا بذلك.

ناوله ناصر دواء مرا شربه، بعدها استغرق فى نوم عميق. صحا بعد فترة على صوت باب يفتح. جلس فرأى ناصر يدخل مصطحبا معه مارى آن:

– أحضرت معى صديقتى الدكتورة لكى تفحص جراحك!

حيته مارى باللغة العربية، وطلبت منه أن ترى موضع ألمه. رفض إبراهيم أولا، لكن ناصر أنبه. أخيرا رفع ملابسه ودعا مارى آن لتشاهد:

– يا الله! ما هذا الذى حدث لك؟

أجاب عنه ناصر:

– هذه هى الطريقة التى يستخدمها نيكلسون لكى يعذب الناس. انه ليس أول إنسان يعانى هكذا .

- إنه شيطان.

هذا ما تمتمت به مارى لنفسها، لكن ناصر سمعها.

- بالتأكيد

- أريد كمية من الماء الساخن، أعتقد أن لدى كل ما يلزم غير ذلك.

ذهب ناصر ليحضر الماء. سألت مارى آن:

- هل تحس بألم شديد؟

- لا، ليس مبرحا.

عاد ناصر فبدأت مارى فى تنظيف الجروح المدممة ومعالجتها، كانت تهز رأسها وهى تفعل ذلك، بينما إبراهيم يبكى على الوسادة وهى تواسيه بكلمات طيبة. قال ناصر:

- أنظرى إلى أى درجة من الانحطاط وصلت إليها الحكومة.

هزت مارى رأسها، ثم نظرت نحو ناصر وسألته بالإنجليزية، اعتقادا من أن إبراهيم لا يفهم:

- ناصر، من قتل الكابتن هيبورث؟ هل هم أهلك؟

لم ينطق ناصر بحرف، لكنه اكتفى بهز رأسه إيجابا، أضافت هى:

- وكل شىء آخر حدث، هل أنتم الذين فعلتموه؟

– كيف تصدقين أنه من الممكن أن نقتل عثمان؟ لا بالطبع، لم نفعل سوى أننا انتقمنا من الرجل الإنجليزى. أنظرى، لقد فكرنا هكذا، قلنا أنه اذا عاد الهدوء إلى منطقتنا هذه فإن الأمير سوف يرسل شخصا من أهلنا يحكمنا بدلا من هؤلاء الأجانب، ومن سوف يرسله سوف يحكمنا بالحق والعدل.

– لكن هذا لم يحدث بالطبع.

– إلى أن حدثت تلك الانفجارات الأولى، كاد أن يحدث ما كنا نتمناه، وهذا، كما أعتقد هى نفس الأسباب التى دعت كل من نيكلسون وهيبورث أن يفتعلا تلك الأحداث ويلفقونها. لذا قررنا أخيرا أن نتخلص منهما. ما الذى يمكن أن نفعله غير ذلك؟

لم تنطق مارى بشىء، لكنها كانت على يقين أن ناصر على حق. لم تشجعه لأن يغفر لأعدائه ويلتمس طريق السلام. تدريبها جعلها تضع تلك الجمل فى مقدمة فكرها، لقد استقرت على طرف لسانها، لكنها شعرت أن إيمانها الغريب ليس لديه قول نافذ فى هذا الشأن بالذات. فى العهد القديم، الله لديه الكثير ليقوله، لكنه فى العهد الجديد كان هادئا بشكل غير عادى. الإسلام لم يعجبه ما ورد فى العهد الجديد، لكنه انتهج مبادئ العهد القديم من أن عين بعين وسن بسن، وعلى أهالى رأس الصرة أن ينزعوا أعين أعدائهم قبلما يفقدون هم أعينهم.

تناولت مرهما معينا وأعطته لناصر قائلة:

– أخبر إبراهيم أن يستخدم هذا المرهم ثلاثة مرات يوميا . أعتقد أنه سوف يشفى قريبا من جراحاته.

كانت ما تزال تستخدم لغتها الإنجليزية، لكن لدهشتها وجدت إبراهيم يقول بنفس لغتها:

– مدام، يمكن أن تعطيه لى. سوف استخدمه. أشكرك جدا لمساعدتى، أشعر أننى أحسن حالا الآن.

– أين تعلمت اللغة الإنجليزية يا إبراهيم؟

– بيتر علمنى ,كنت أعيش فى منزله.

– آه.. أنت إذن صديق بيتر!

– نعم. هل تعرفين كيف حاله الآن؟

– لم أره قريبا . لكن أعتقد أنه فى أفضل حال.

– اننى أخشى عليه. مستر نيكلسون لا يحبه. اعتقد أنه أخذنى إليه لأنه أراد أن يخيفه.

هزت مارى آن رأسها ثم التفتت نحو ناصر:

– والآن ما العمل؟

– علينا أن نقتل نيكلسون. المشكلة أنه فى حصن حصين. لن يكون الأمر سهلا.

علمت مارى أنه من الواجب أن تقول له "لا تفعلوا! تحلوا بالصبر! حاولوا قدر امكانكم أن تغفروا له!"، لكنها فكرت فى عثمان وهو يموت فى مستشفاها، فكرت فى كل الودعاء الذين عالجتهم فى حياتها والذين لم يرثوا الأرض، عن تلك المثل التى تنتحر وتموت أمام عالم تسوده مبادئ العهد القديم. لذا هزت رأسها.

* * *

صلت مارى آن إلى المستشفى. وهى تعبر البوابة لاحظت أن الحارس محمود يحدجها بنظرات وحشية. ثم، وهى تدخل المبنى، قابلتها الممرضة الهندية والدموع تملأ مآقيها وتهطل على خديها وأصوات نحيب تصدر منها، لذا غطت وجهها. سألت مارى آن:

– ماذا حدث؟

لكن الممرضة الهندية عجزت عن الرد، فقط أخذت تشير إلى نهاية الطرقة حيث تقع حجرة الطوارئ، وهى نفس الغرفة التى أحضر إليها عثمان.

جرت مارى فى الطرقة ودخلت هذه الغرفة. توقفت وأطلقت صيحة مدوية عندما شاهدت ممرضة أخرى تغسل جسد امرأة بيضاء مسجاة

على السرير. عرفت هى على الفور جسد من هذا بالرغم من أن هناك ملاءة بيضاء تغطي وجهها.

صاحت ماري آن "جوانا!" وكلها أمل أن تجيبها تلك الجثة المغطاة. خطت الممرضة ما بين الجسد وبين ماري قائلة:

- إنها ميتة يا ريسة.

- ابعدى عن طريقي!

ثم دفعت الممرضة جانبا ورفعت الملاءة عن وجه جوانا. بعضهم كان قد ثبت شاشا حول الوجه حتى يتم غلق الفكين. ثقب الرصاصة فى منتصف جبهة جوانا ذكرت ماري بتلك النقطة الحمراء التى تضعها النسوة الهنود على جباههن. انهمرت الدموع من عينيها ثم أعادت الغطاء على وجه الضحية وسقطت راكعة بجوار الجثة. اقتربت نحوها الممرضة محاولة تعزيها، لكنها أبعدت يدى الفتاة. ركعت كأنما هى تصلى، لكنها لم تكن تصلى. كانت تفكر: "هذه هى اللحظة التى أتيت من أجلها إلى رأس الصرة، هى اللحظة المناسبة لكى أكبر وأتعلم! هى اللحظة التى فيها سأفقد إيمانى!". وقفت وأخذت تحدق فى وجه ممرضتها الشاحب البارد قائلة:

- احضرى لى ورق كلينكس، ثم أخبرينى بعد ذلك عما حدث.

قالت الممرضة أنها لا تعرف ظروف مقتل جوانا، فأمرت ماري آن:

- إذن ابحثى لى عمن يعرف.

بعد نصف ساعة، كانت ماري تقود سيارتها متجهة إلى منزل ناصر. علمت أن جثة جوانا عثر عليها شخص كان فى طريقه إلى سفينة آتيا من العاصمة. توقف عند البركة لكى يستريح قليلا. كان يود أن ينظف سيارته من الغبار الذى لحق بها. انتابته دهشة بالغة، هكذا قال، لأنه وجد السيارة اللاندروفر متوقفة هناك، معتقدا أنه الوحيد الذى يعرف هذا المكان. فجأة شاهد ذلك الجسد المسجى بقرب البركة وتعرف عليها، فجوانا كانت قد عالجت زوجته منذ أسبوع فائت، كانت إنسانة طيبة. رفع الجسد الحزين إلى مؤخرة سيارته وغطى عريها بغطاء رأسه وأحضرها إلى المستشفى. تساءلت مارى آن:

- هل وجد أى إشارة لتواجد شخص آخر كان معها؟ لا يمكن لجوانا أن تذهب إلى هناك بمفردها.

- لا أحد.

- والسيارة اللاندروفر؟

- ما زالت هناك.

خبطت مارى آن على باب ناصر، فتح الباب أحد أبنائه. اندفعت إلى غرفة المجلس وأخبرت ناصر بما حدث، ثم تذكرت أنها شاهدت سيارة جوانا اللاندروفر أمام باب المستشفى.

كانت هى على حق، جوانا لم تذهب هناك بمفردها. لقد ذهبت مع بيتر. لكن أين بيتر؟

– ناصر. يجب أن نعود إلى هذا المكان ونبحث عما حدث لبيتر درورى.
أنا متأكدة أنه ذهب معها.

قام إبراهيم على الفور من سريره وأخذ يتوسل لهما أن يذهب معهما.

الشمس كانت تستعد للغروب عندما وصلوا إلى مكان البركة بمساعدة توجيهات إبراهيم. لاحظوا أن سيارة بيتر اللاندروفر ما زالت فى مكانها.

بدءوا جميعا فى البحث عن بيتر وأخذوا يطرقون كل المكان، لكن لم يعثروا عليه. الضوء بدأ يخبو الآن، كادوا أن يفقدوا الأمل وينهوا البحث. فجأة تذكر إبراهيم، خلع على الفور دشداشته وبدون أى كلمة غطس فى البركة وما أن عثر على الحفر الجانبية حتى دفع نفسه خلالها. عندما ظهر عند الجهة الأخرى من الجدار الصخرى المرتفع إلى البركة الصغرى، اصطدم بجسد بيتر. المياه حوله كانت بلون الدم. جذب إبراهيم جسد بيتر قليلا ووضعه بلطف على جانب، ثم تسلق الجدار وأخذ ينادى طالبا المساعدة.

استغرق منهم الأمر نصف ساعة لكى يضعوا بيتر فى السيارة. انهمكت مارى أن استجلاء علامات الحياة فى جسد بيتر، قالت أنه ما زال حيا لكنه فى حالة حرجة للغاية.

أداروا السيارة سريعا فى اتجاه سفينة ونقلوا جثمان بيتر على الفور إلى غرفة العمليات حيث بدأ الطبيب الهندى فى استخراج الرصاصتين من ذراعه ووركه.

مارى آن وناصر وإبراهيم جلسوا فى مكتب مارى. لم يتبادلوا أى حديث. وقت الكلام كان قد انتهى.

أخيرا حضر الجراح قائلا أنه يعتقد أن بيتر سوف يشفى مع الوقت. ابتسم الثلاثة لكن للحظات.

* * *

عاد نيكلسون إلى مستعمرته فى سفينة سعيدا بما أنجزه من أعمال فترة ما بعد الظهر تلك. حقا هو لم يشاهد بنفسه الجسد الميت للمفتش الإنجليزى، لكنه ظل بجوار البركة مدة كافية تؤكد أنه قد مات وشبع موتا. قبل مغادرته سار حول البركة لفترة. عندما لم يشاهد أى علامة تدل على جثة بيتر، استنتج أنه قد غرق وأن جسمه قد شبك فى صخرة من الصخور البارزة فى القاع. لقد استحسن العمل الذى أنجزه مع جوانا. كانت عملية نظيفة وأنيقة. كان على هيبورث أن يزجى له مزيد التهانى على انجازه لو كان حيا الآن.

بعد عودته إلى مكتبه، استمر فى كتابة تقاريره وكتب أيضا خطاب تعزية إلى دورثى زوجة المرحوم هيبورث، ثم عاد إلى فيلته وأخبر خادمه أن لا يزعجه أحد. جلس يستمع إلى موسيقاه المحببة إلى نفسه.

اختار أولا موسيقى "بيتر جريمز" ورقد نصف نعسان ونصف منصت لتلك الأوبرا الممتعة، بينما وقفت على الأرضية فى متناول يده زجاجة خمر من نوع بورت المعتق. شعر بالراحة الكاملة تسيطر على كل كيانه، أحس أنه يماثل جرايمز هذا، رجل لم يفهمه أحد، رجل كالوتد مغروس فى مكان صعب، محاط بالثرثرات والأعداء.

يعرف نيكلسون أنه قد زودها حبتين، علم يقينا أن مقتل هيبورث حدث بيد أناس عرفوا أنهما كانا وراء كل هذه الأحداث والانفجارات التى هزت سفينة. لكن كيف علموا ذلك؟ حسنا، المفترض أنهم كانوا يعلمون بأنهم ليسوا هم الذين فعلوها، هم بحثوا عمن يمكن أن يكون له مصلحة فى ذلك، لكن هذا لم يكن جزء من خطته. ثم، وحتى قبل حدوث هذه الأمور جميعا، شعر أن مكدرى الأمن كانوا قد ركنوا للسلام والاستسلام. فقد عاد الهدوء يسيطر فى المنطقة من خلال تضافره مع أمير البلاد فى تقديم العطايا والرشاوى لكى يهدأ هؤلاء المتمردين.

يستطيع الآن أن يتخيل وجوه المتمردين وهى تتراقص أمام النيران المشتعلة يحتسون الشاى ويتحدثون بأصوات هافتة. يعلم هو أنهم طالما ذكروا اسمه وكذلك هيبورث، من الواضح أن محاولة النيل منه سوف تجرى ولا يلزمه سوى وقت يمر.

كان محتارا كيف سوف يكون وسيلتهم للقضاء عليه. هل سوف يثور عليه غوغاء سفينة بتحريض من المتمردين، ثم يحاصرون مستعمرته مطالبين بالثأر منه؟ هل سوف ينتظر إبراهيم بصبر حتى ينال منه

وهو غير حذر ثم يدفع بسكينه فى أضلاعه؟ ربما يحدث هذا فى السوق. هل يذهب أحدهم إلى العاصمة ويدلى بشهادات ضده؟ وعند أى نقطة يمكن أن يصل فيه الظلم حتى يستحق عقابا؟ لقد حلت اللعنة على كل من عيدى أمين وبوكاسا بعد زمن طويل، الآن هوذا عيدى أمين يعيش سعيدا فى جدة فى نفس لحظتنا هذه.

"الإنسان يتناول من التورتة التى أعدها". هذه أيضا واحدة من أنصاف الحقائق المغطاة بطبقة من السكر. هى حقيقية بالنسبة لمن يصدقونها.

انتهت الأوبرا، سكر مرة أخرى وقام متوجها نحو الفراندة وجلس على كرسيه الهزاز. القمر كان كاملا يبرق فوق ماء البحر. سفينة، فى حالة إظلام ما عدا بعض النقاط الضئيلة الباهتة المستكينة.

مع ذلك، المظاهر خداعة وهوذا الطريق المسفلت يسير حثيثا واصلا من العاصمة. لا شىء فعله هو أو هيبورث كان كفيلا بإيقاف العمل فيه. بعد عدة شهور، وباحتفالات عظمى، سوف يصل حتى هنا ويختفى بين أرجاء سفينة، بعدها سوف يتاح لكل من هب ودب أن يأتى إلى هنا ليتفرج على آخر أركان الجزيرة العربية. بالطبع سوف تبنى محطة كهرباء جديدة، محطة عليها حراسة قوية. سمع أيضا أن هناك خطة لتشغيل مركزا للبوليس يديرها عدد من رجال البوليس المدنيين.

إذن ما الذى حققه هو أو هيبورث؟ ليس الكثير، هذا ما أدركه الآن. ومهما صنعا، فإن القوة والمجد انزلق رويدا من بين أيديهما على كل حال. ربما استطاعا أن يعيقا الأمور لفترة أطول - وقد حصلا على قدر كبير من المرح وهما يفعلان ذلك - لكن القدر هو الذى حكم بأن تؤول الأمور إلى أياد أخرى. ربما يسترجع أهالى سفينة أيامهم فى عهده كملك عليهم ويترحمون على أيامه، وبالمقارنة ببشائر المستقبل، ربما يعتبرون عهده وأيام حكمه باعتبارها وقتهم الذهبى الذى كان.

فكر، يا ترى، نهايتى كيف تكون؟ يا الله، شىء مفزع. أنا لم أنته بعد. و، فى الحقيقة، وهو يطل من الفراندة، لم تبدو الأمور مختلفة قطعا، حيث تبدو أمامه سفينة مستغرقة فى نوم عميق.

شاهد نيكلسون أضواء سيارة تعبر شوارع سفينة، ثم سلكت طريق الشاطئ متجهة ناحية مستعمرته. فتح الحارس البوابة بالرغم أن هناك أوامر مشددة أن لا يفعل. سوف يعاقب نيكلسون هذا البواب بالتأكيد.

وهو منفعل، جلس نيكلسون فى الفراندة يشاهد سيارة مارى آن وهى تقترب نحوه. توقفت السيارة وترجلت مارى قائلة:

- مستر نيكلسون، آسفة أن أحضر إليك فى هذا الوقت المتأخر من الليل، لكن هناك أمورا أعتقد أنه لازما أن تعرفها.

- أوه.. نعم

- نعم، لقد فعلها المتمردون مرة أخرى، جوانا مارشانت مساعدتى، قتـلـت.

- لا!

- أخشى القول إن هذه هى الحقيقة.

- أين حدث هذا؟

أخبرته مارى آن. قال نيكلسون:

- لقد تطورت الأمور وأصبحت أسوأ وأتعس.

هزت مارى رأسها، أضاف نيكلسون:

- لا تدرين كم أنا آسف لسماع تلك الأخبار المحزنة.

- مستر نيكلسون، كلنـــا فى حالة رهيبة من الحــزن والفزع. نحن مشغولون على بيتر درورى، جوانا وبيتر ذهبا سويا إلى هذا المكان، لكن لم نعثر على دليل عن مكان تواجده.

أخذت مارى تراقبه وقد بدا على وجهه تأثر بالغ. لذا عادت شكوكها مرة أخرى، لقد تدربت أن تشاهد أفضل ما فى الإنسان، لأن تراقب الخطوط الرقيقة للأدب والتصرف الحسن خلف السحب السوداء للشر الواضح الفاسق. هذا يستلزمه قدرا هائلا من أعمال الإرادة، هى تظهر بشكل غير طبيعى أمام عينيها.

سأل نيكلسون في صوت خفيض محزون:

– هل ربما يكون المتمردون هم الذين خطفوه؟

– كل شيء محتمل.

استمر صمت نيكلسون لفترة طويلة ثم نهض من مقعده قائلا:

– هل تذكرين يا ريسة تلك الليلة التي فيها أناروا للمارة محطة الكهرباء؟

هزت هي رأسها. أضاف:

– بدأت الأمور تسوء من بعد هذه الليلة، أنا أؤرخ كل ما حدث منذ تلك الليلة التي فيها ضغطوا على الزر الرئيسي لتشغيل المحطة. أتذكر أننا وقفنا سويا على بعد بسيط من هنا. كلانا كنا تعيسين، هذا ما أتذكره. إنني أتعجب، هل كنا نتصور حينئذ كل هذه المآسي التي حلت فوق رؤوسنا؟

ابتسمت ماري آن في وجهه، لكنها تفكرت في نفسها "إنه إنسان شرير! هو شيطان!" ولم يرد على ذهنها بعد ذلك أي فكر لين بشأنه.

أخذ نيكلسون يتحدث عن أوقاته التي قضاها في رأس الصرة ومدى حبه لهذا البلد وإعجابه بناسها؛ شعرت بكل وضوح، كأنما هو إلهام من الله، كل ما يعلنه من زيف وتصنع ينقله إليها صوته الناعم. جلست في مقابله، تبتسم وتهز رأسها بينما هي منشغلة بأفكارها.

أخبرها نيكلسون أنهما يعتبران سويا فلتة من فلتات الزمان، هما الوحيدان اللذان يعرفان حقا نوعية أهالي راس الصرة ويصنعان كل جهدهما لمصلحتهم وهما قريبين لقلوبهم. أثناء حديثه فكر هو كم يكون رائعا أن ينهى تلك الابتسامة المفشوخة أمامه وهى تهز رأسها توافق على كل ما يبديه من الأفكار الخيرة. لما لا، هذا ما فكر فيه، وهو أن يمضى فى خطته حتى النهاية ويقتلهم جميعا، طالما أنهم سوف يصطادونه في النهاية – وهى سوف تفعل المستحيل بالطبع لكى لا يحدث هذا – لما لا يكون هو آخر أجنبى يبقى هنا؟ لما يترك تلك الحيزبون قارئه الإنجيل لكى تصرخ فى جنازته؟.

انتهى من حديثه بالقول:

– يا ريسة، اعتقد انه قد حان الوقت لأن نفعل أنا وأنت شيئا لكى نخلص سفينة من تلك النقمة!

أجابت مارى آن وهى فى أتم استعداد لمجاراته:

– أنا أوافقك تماما فى تحليلاتك يا مستر نيكلسون، لكن كيف؟

– حسنا، أولا أن تقودينى إلى ذلك المكان الذى حدثت فيه كل هذه المآسى الأخيرة. هذه هى البداية. بعد ذلك، من يعلم؟

أهدته مارى آن ابتسامة بسيطة قائلة:

– أنا سوف أكون سعيدة عندما أرشدك إلى هذا المكان. أعتقد أنه ليس من المناسب أن نذهب الليلة. لما لا تحضر إلى المستشفى غدا الساعة العاشرة صباحا؟

- هذا مناسب تماما يا ريسة. تلك سوف تكون أولى بدايات حملتنا سويا.

- من يعلم؟

عادت إلى سيارتها، لاحظ نيكلسون أنها ما زالت ترتدى فستانها المهلهل البالى الذى ارتدته ليلة افتتاح محطة الكهرباء. هز رأسه بحزن "ولا فكرة! المعزة المسلية ليس لديها أى فكرة!

دخل هو وجهز لنفسه كأسا مترعة.

* * *

بينما تعود مارى آن إلى مقرها فى المستشفى، غطت السحب القمر كله.

لعدة أيام سابقة، كانت هى تراقب تجمعات السحب التى تكاد تغطى سفينة مدركة أنه لن يمر وقت طويل حتى يغمر طرف نهاية ذيل زوابع الهند الموسمية البلدة كلها. كان يدهشها كيف أن لا أحد هنا مستعدا لقدوم هذه الأمطار الوحشية القادمة. لم يفكر أحد البدالين أن يخزن عنده عدد من مظلات المطر، وتصبح تلك هى النكتة السنوية المعتادة التى تنطق بها مارى آن لتذكرهم. ينتقل الناس هنا وهناك واضعين فوق رؤوسهم قطع من الكرتون ورافعين ملابسهم الطويلة. الصنادل يغمرها الوحل وتتعذر الحركة فى الطرق. أما الصحراء الشغوفة

بابتلاع المياه، فإنها تستقبل القليل منه لكنها ترفض الباقى الكثير. تتكون البرك أولا ثم تتحول بمرور الوقت لتصبح بحيرات، حينئذ لا يمكن استخدام أى وسيلة للنقل سوى العربات ذات الأربعة عجلات التى تجرها البغال والحمير. سوف تدخل بلدة سفينة فى دائرة الصباح الرطب وتصبح صدور الأطفال ضعيفة وحرجة وتطول الصفوف أمام المستشفى وتذوب البيوت الطينية التى تنتهى إلى الأرض مرة أخرى.

بينما هى تدخل المستشفى متجهة إلى الغرفة الخلفية حيث وضع بيتر دروزى حتى يشفى. سقطت قطرة ضخمة فوق الفردة اليمنى لنظارتها، ثم أخرى سقطت أمامها فى الرمال وأخذت تتدحرج أمامها. نزعت نظارتها وأخذت تمسحها بطرف كمها، وبينما تفعل ذلك نظرت بغضب تجاه السماء الفارغة.

إبراهيم كان جالسا بجوار سرير بيتر، حارسا لصديقه. سألته مارى آن:

– هل أفاق؟

– ليس بعد يا سيدتى، تحرك قليلا من جهة لأخرى، لكنه لم يفتح عينيه أو نطق بشىء.

عدلت مارى آن من درجة تدفق نقاط الدم التى تغذى وريده بجوار سريره، ثم جست نبضه، سأل إبراهيم بصوت هادئ:

– إنه سوف يشفى بالتأكيد، أليس كذلك؟

– نعم. هو شاب صغير، لكن هذا سوف يلزمه بعض الوقت.

نظرت نحو إبراهيم، كانت قد علمت من ناصر مدى يأس هذا الولد، لذا قالت:

- على أية حال يا إبراهيم، هو فى حاجة إلى أصدقاء مخلصين لكى ترجع إليه صحته. أنت صديقه، أليس كذلك؟

- نعم، أنا صديقه.

- حسن. هذا جيد.

جلسا بجوار بيتر فى سريره لعدة دقائق لا يتبادلا الحديث. كانت مارى تفكر في خططها الخاصة. طوال حياتها العملية داومت دائما أن تكون ذات نفع للآخرين. بذلت كل جهد ممكن لكى لا تشفى الأمراض فى سفينة فقط، لكن لكى تقلل من آلامهم أيضا. كان لديها رغبة أكيدة أن تنقذ أرواحهم أيضا، لكنها الآن أدركت أنها لم تكن دائما على صواب.

ناس سفينة فى أفضل حال وأكثر مما كانت تظن وتعتقد. تعجبت من مقدار غرورها السابق عندما ظنت أن فكرتها عن الله هى الأصوب. خطأها هو نفس الخطأ الذى يقع فيه القادمين الجدد: البائعين المصاحبين معهم أجهزة الوكمان، الثلاجات الحديثة، التكييفات، أيضا نعم، مظلات المطر. لما نتدخل فى شئون الناس بينما هما يديرون حياتهم فى أفضل حال بدون تدخل منا؟ لماذا نفسدهم؟

لكن هى تعلم أن عليـها دين وخدمـة أخـيـرة يجب أن تقـوم بهـا لمصلحة أهل سفينة. أمامها شيطان عليها أن تخرجه وتطرده، لكن قبل قيامها بذلك عليها أن تكون متأكدة مئة فى المئة. كانت فى حاجة ملحة لأن يصحو بيتر دروري ليدلي بشهادته. عليه أن يجيب على سؤال واحد، عندئذ سوى تبدأ على الفور إجراءات التعزيم.

أقفلت باب غرفة بيتر وسحبت مقعدا بجوار سريره هناك بجوار إبراهيم، بدأت ليلة صحوها. حالا بدأت رأسها تتساقط على صدرها، لذا ترك إبراهيم ليراقب بمفرده. شعر إبراهيم بالسلام ينمو داخل فؤاده بما لم يشعر به من قبل. تعجب من هذا السلام الغريب، بدأ هذا عندما أخبره ناصر أن والده ما زال على قيد الحياة، وتعزز عندما أخبره ناصر أن هناك أملا أن يغفر له أباه ما فعله. حتى حادثة وفاة جوانا، التى لم يتاح له أن يتعرف عليها، كانت كفيلة أن تنزع عنه هذا الشعور. أحس أنه قد عبر خلال نفق أسود غطيس، نفق بدأ منذ أن خرج للمرة الأولى من جهيل وراء حامد نصر. انه ما زال حتى الآن فى هذا النفق، لكن يبدو على البعد بقعة من الضوء. حتى اذا مات الآن فإن بقعة الضوء تلك تتمثل كلها فى شكل هذا الراقد أمامه الآن الذى هو صديقه ومعلمه. هو يعلم أنه مرتبط به سواء فى الزمن أو الأبدية بروابط قوامها الدم والعصب، سوف يبرق قويا حتى الموت حاملا معه الأسى الذى تسبب فيه أو تعرض له.

بدأت الدموع تتساقط من عينى إبراهيم وكلها حزن وأسى، لكنها أراحته أيضا. لم يحاول منع هطولها كما كان يحدث معه سابقا. الآن هو وقت الدموع، تركها تغطى وجهها وتتساقط على ملاءة السرير البيضاء. فجأة سأله بيتر:

- لماذا تبكى؟

دفع إبراهيم يديه عن وجهه، الذى، ما أن تجلى، حتى ظهرت ابتسامة واسعة لم يشاهد بيتر مثيل لها من قبل. أجاب بالإنجليزية:

- اننى لا أبكى!

- أين أنا يا إبراهيم؟

استيقظت مارى آن:

- أنت فى المستشفى يا بيتر، هل تتذكر ما حدث معك؟

لم يجب بيتر لفترة، بينما تتسمع مارى آن لصوت سقوط الأمطار فى الخارج. ندت دمعة وحيدة من عين بيتر وسقطت على خده. سألته مارى آن:

- من أطلق عليك الرصاص يا بيتر؟

أجاب بيتر وقد أغمض عينيه:

- نيكلسون.

همس إبراهيم:

- لا تخشى شيئا يا بيتر. أنا هنا معك، كل شيء سوف يكون فى أفضل حال.

استغرق بيتر فى النوم مرة أخرى، لكن النوم جافى كل من مارى آن وإبراهيم. أخبرته عن خطتها وأعجب هو بالعزم الشديد الذى يكتنف هذه السيدة، هذا شيء خارج تماما عن خبراته. إنها رائعة. قالت هى:

- لدى بندقية يا إبراهيم. نيكلسون سوف يأتى إلى المستشفى فى الصباح. سوف يأتى ليرانى. هو يظن إننا ذاهبان لنبحث عن جثة بيتر. أريدك أن تذهب إلى منزل بيتر وتنتظر هناك. سوف أجعله يعرج على المنزل سواء ونحن فى طريقنا من أو إلى البركة. عندما يأتى ترفع عليه البندقية..

- بعد ذلك؟

- تطلق عليه النار.

فكر إبراهيم لوهلة، ثم قال:

- لا. لن نطلق عليه الرصاص، لدى وسيلة أخرى.

ثم اخبر مارى آن عن خطته.

قبل الفجر نادت مارى آن على إحدى الممرضات. أعطتها مفتاح الغرفة وطلبت منها أن تقفل على نفسها الغرفة ولا تفتح الباب لأحد،

ثم قادت إبراهيم فى ممرات المستشفى حتى الخارج عبر الأرض المشبعة بماء المطر حتى منزلها.

هناك وجدت بندقيتها، وهى بندقية أعطيت لها أثناء الحرب الأهلية. أخذت تنظفها وعبأتها ثم أعطتها لإبرهيم. ثم فكرت:

- إنها تمطر فى الخارج يا إبراهيم.

ثم ذهبت للمطبخ لتبحث عن كيس من البلاستيك. وجدت كيسا قديما من بلدتها كانت تحتفظ به كذكرى لزيارتها الأخيرة وطلبت من إبراهيم أن يضع البندقية داخلها، ثم غمزت له وأرسلته لكى يسير الأميال الثلاثة حتى منزل بيتر وحذرته بقولها:

- سوف تبتل تماما.

- لا تهتمى، فقط اعملى كل جهدك لأن يتوقف نيكلسون عند منزل بيتر، وسوف أكمل الباقى.

مارى آن، وقد أحست براحة عميقة لم تشعر بمثيل لها من قبل، راقبت إبراهيم وهو يسلك طريقه بمشقة خلال الأرض الغارقة فى المياه، رفع دشداشته بيد بينما هو يؤرجح الكيس البلاستيك باليد الأخرى. تمنت مارى أن يكون معها كاميرا لتسجل هذا المنظر.

ظلت هى مع الممرضة داخل الغرفة الراقد فيها بيتر حتى الساعة الثامنة والنصف صباحا، ثم غادرت الغرفة وتأكدت أنها استمعت لصوت

المفتاح وهو يقفل من الداخل قبلما تقطع الممر حتى غرفة الانتظار. هناك جلست فى انتظار نيكلسون.

ساعة المستشفى كانت تشير إلى العاشرة والربع ولم يصل نيكلسون. أحست بالقلق، لكنها منطقت الأمور وظنت أن الأرض الموحلة قد عطلته نوعا. ثم فى العاشرة والثلث شاهدت سيارته الرينجر البيضاء تدخل بوابة مجمع المستشفى وتقف فى مكان ركن السيارة المستخدمة لسيارة الإسعاف. خرج نيكلسون من السيارة ودخل صالة الاستقبال. لاحظت مارى أن انه قد علق مسدسا فى جراب معلق فى وسطه، بينما لاحظ نيكلسون أنها ما زالت ترتدى نفس الفستان القديم، لذا ابتسم لنفسه. صاحت:

- لما هذا يا مستر نيكلسون، كدت أن أبلغ عنك كأنك ضائع. هل صادفت مشقة فى الوصول إلى هنا بسبب الوحل؟

- لا، قطعا لا. لدى أفضل سيارة فى سفينة تجيد التعامل مع الطين والوحل. لقد أعاقنى أمر مكتبى، هذا كل ما فى الأمر.

- هل تشرفنى وتتناول فنجانا من القهوة، أم تفضل أن نذهب على الفور؟

- أوه، أعتقد أنه لازما أن نتحرك على الفور، أليس كذلك؟ على أن أعود بأسرع ما يمكن. لدى أعمال كثيرة تتطلب الإنجاز.

خرجت من باب المستشفى ومعها نيكلسون ،فتح لها الباب، شكرته بحرارة وركبت معه. قاد سيارته بسرعة على الطريق الذى يؤدى إلى خارج سفينة فى اتجاه الوادى. عجلات الرينجر كانت توزع الماء والطين على حاجز الرياح، لذا استخدم نيكلسون طريقة تشغيل الأربعة عجلات، أما المساحات فقد كانت تعمل بكل طاقتها. صاحت مارى آن:

- يا الله، هذه اللاندروفر لا تهتم أبدا بهذا الجو الصاخب.

- فى الواقع يا ريسة، هى سيارة رينجرروفر، ومن أفضل أنواع الرينجر كما تقولون أنتم اليانكى عنها.

نظرت إليه. بدا رجلا مستقيما وهو وراء مقود سيارته. كان عليها أن تقرص نفسها لكى تتحقق من إنها جالسة بجوار من، وما هو قصدها من وراء ركوبها معه.

كانا يقتربان من منزل بيتر، لذا قالت مارى آن:

- هذا منزل بيتر درورى، أليس كذلك؟

- نعم.

- ألا ترى أنها فكرة نيرة أن نتوقف أمامه ونبحث داخله لعل وعسى، ربما نجد دليلا يقودنا إلى الاتجاه الصحيح.

لكن نيكلسون عبس قليلا وأجاب أنه احتمال بعيد. فكرت مارى آن أنه لن يتوقف. شعرت بقلبها يهبط. لم تتخيل رحلة إلى الوادى بصحبته.

لكن حينئذ، هــز هــو كتفيه واستدار بسـيـارته وتوقـف أمام مــنزل بيــتر قـائـلا:

– أعتقد أنه يتوجب علينا أن نحاول.

لاحظ أن الباب الرئيسى مفتوحا على مصراعيه، قال:

– شيء غريب فعلا أن يترك باب منزله مفتوحا بهذا الشكل.

ثم تناول مسدسه من الجراب. دفعة من الخوف سرت فى قلب مارى. دفع نيكلسون الباب ببطء ودخل. لم يجد أحد هناك. تابعته مارى وعينيها مثبته على المسدس المشرع، بينما نيكلسون يخطو بخفة فى الصالة التى تقع بين غرف منزل بيتر. لاحظ أن أبواب المطبخ والحمام وغرفة النوم مقفلة.

فتح أولا غرفة النوم، كانت خالية. بعض من الأوراق التى أعدها بيتر للجريدة كانت ملقاة على الأرض. التقط نيكلسون قطعة من الورق ورسم ابتسامة على فمه وهو يقــرأ ما فيها. تسلل بعد ذلك خارجا من تلك الغرفة.

مارى كانت تعلم أن إبراهيم مختبئ فى غرفة من الاثنتين الباقيتين، تمنت هذا بكل قلبها لأنها قررت فى تلك اللحظة بالذات ما الذى تنتوى أن تفعله. اذا كانت هى مخطئة فى ظنها فلن يتواجد أحد ليخبر عما سوف يحدث.

تقدم نيكلسون إلى باب الحمام ليفتحه، اندهش عندما وجد مارى آن تتشبث فجأة بيده الممسكة بالمسدس وتجذب ذراعه وهى تصرخ، أثناء نضالها انحنت وعضت يده. صاح هو واستطاع بجهد أن يجذب ذراعه الممسكة بالمسدس زاعقا:

- أيتها البقرة، ماذا تفعلين..؟

فجأة انفتح باب المطبخ، اندفع منه إبراهيم وضرب نيكلسون فوق رأسه بفازة صينية كان بيتر يعتز بها. انحنى نيكلسون مستردا وعيه على الفور، لذا ضربه إبراهيم مرة أخرى بقوة، لذا وقع نيكلسون على الأرض مغميا عليه.

- عمل جيد يا إبراهيم!

لم يجب إبراهيم وابتدأ على الفور فى تقييد يدى نيكلسون خلفه باستخدام حبل للغسيل. شاهدت مارى الدم ينبثق من فروة رأس نيكلسون، شعرت هى لحظيا بدافع قوى لأن تحضر حوضا وشاشا ومرهما لتعالجه بحكم العادة، لكنها تماسكت متذكرة جسد جوانا المسجى على السرير.

كان إبراهيم يطوى الحبل جيدا حول صدر نيكلسون، أخيراً طوى ما زاد من الحبل على عقبى نيكلسون وربط العقدة جيدا.

سحبا جسد نيكلسون المغمى عليه حتى سيارته الرينجر ووضعاه فى المقدمة وثبتا حزام الأمان حول صدره.

كادت مارى أن تفتح الباب الخلفى، عندما قال إبراهيم:

– من فضلك يا مدام، لا أعرف كيف أقود سيارة.

استدارت هى وجلست فى مقعد السائق وجلس إبراهيم فى المقعد الخلفى، قالت هى:

– عليك يا إبراهيم أن ترشدنى للمكان، أرجو أن لا يكون بعيدا. لا أشعر بالسعادة وهو قريب منى هكذا.

– لا تخشى شيئا، معى مسدسه.

متتبعة لتوجيهات إبراهيم، ساقت الرينجر فى الطريق الملتوى حتى وصلوا إلى منطقة السهول الساحلية حيث تتواجد مصائد الرمال المتحركة فى اتجاه قرية جهيل. بدا المطر يضرب فيهم مرة أخرى بينما تشق السيارة مسارها على الطريق الزلق.

أخذ إبراهيم يراقب الأماكن المعروفة التى تشتمل على مناطق الرمال المتحركة. عرف هو أن كل الأراضى حولهم قد تحولت بفعل تلك الأمطار العنيفة إلى رمال متحركة. كثيرا ما كان يزور تلك المناطق عندما يكون وحيدا فى منزل بيتر وكان يلقى بأكياس الزبالة فى وسطها ويشاهدها وهى تختفى كلية.

أخيرا وصلا إلى مكان معين، قال إبراهيم محذراً:

– كونى على حذر يا مدام.

أوقفت ماري السيارة في التو، لكن تقريبا بعد فوات الأوان. قفزت السيارة إلى الأمام. مقدمة السيارة غرزت عميقا في طرف منطقة رمال متحركة.

بصعوبة بالغة خرجت ماري من السيارة، و، بمساعدة إبراهيم، صعدت على طول السيارة حتى وصلت إلى أرض صلبة. سألت:

– ماذا نفعل بعد ذلك؟

– ندفع السيارة إلى الأمام.

– لكن..

أخذا يدفعان السيارة بكل قوتهما، لكن الرينجرروفر أبت أن تتحرك من مكانها. قالت:

– لا فائدة يا إبراهيم، علينا أن نسوقها حتى تستقر وسط الرمال المتحركة هذا اذا استطعنا أن نعيدها إلى الوراء قليلا. هي مغروزة بقوة.

سأل إبراهيم:

– هل يمكن أن تديري السيارة لترجع إلى الخلف؟

– سأحاول.

أخذت ماري تجاهد مرة أخرى حتى تصل إلى مقعد السائق. وضعت الفتيس في الوضع الخلفي وشغلت المحرك. بعد جهد، استقرت

العجلات الأمامية على أرض صلبة بدفعة قوية. عادت السيارة حوالى مئة ياردة بعيدا عن الرمال المتحركة. لكن عندما حررت الفتيس ظهرت مشكلة أخرى.

– إبراهيم. لدينا مشكلة، اذا أردنا أن نسوق السيارة فيجب أن يكون أحدنا داخل تلك السيارة الملعونة.

قال نيكلسون وقد أفاق من إغمائه:

– أنت على حق تماما! فكرة من هذه؟ الصديق إبراهيم كما أعتقد!

تجاهلته ماري. أخذ نيكلسون فى جذب قيوده، لكن بلا فائدة. فتح إبراهيم باب السيارة وقال مخاطبا ماري:

– سوف أقود السيارة اذا أرشدتينى لذلك.

أجلسته مارى على مقعد السائق وأرشدته لما يجب أن يفعله، ثم شرحت له الأمر مرة أخرى. نيكلسون كان يراقب كل هذا وابتسامة ساخرة مرتسمة على وجهه. سألت مارى:

– لكن كيف يمكن لك أن تعود؟

– من خلال النافذة الخلفية.

– لا. هناك نافذة فوقك خاصة بالشمس.. افتحها.

فعل إبراهيم ذلك. ثم شغل المحرك كما أرشدته ماري. تقدمت هى ووضعت الفتيس على السرعة الأولى ثم راقبته وهو يرفع قدمه عن الدبرياج. فجأة توقفت السيارة. قال نيكلسون بالعربية:

- ألا تستطيع أن نفعل شيئا بشكل جيد. أنت عبارة عن حمار يا إبراهيم! لن تستطيع أن تفعل شيئا سوى أن تشغل المكنسة الكهربائية. هذا ما أخبرنى به صديقك بيتر. هل تظن فعلا أنه كان صديقك؟ هو ليس سوى واحد منا..حاول إبراهيم أن يضع الفتيس عند الحركة الأولى، لكن الموتور توقف مرة أخرى.

أمرته مارى:

- أعطها بنزين أكثر.

استمر نيكلسون فى سخريته:

- أنا مندهش أنك تتعاون مع هذه الساحرة العجوز. أنت غبى يا إبراهيم، مخك فاضى. هل تعتقد أنك سوف تحل شيئا بقتلى؟ لن تحل شيئا يا حمار. هناك عدد كبير من الخبراء مثلى وحقائبهم معدة لكى يطيروا ويأخذوا مكانى. إذن ماذا سوف تفعل حينذاك؟ لن تجد مكانا مناسبا لكى تغرق فيه نفسك أو تحاول أن تغرقنا جميعا.

إبراهيم، وقد ارتسم الجد على وجهه، أعطى السيارة بنزينا أكثر، ثم وضعها فى وضع السرعة الأولى. صرخ الموتور، تحركت السيارة بعنف، وصلت إلى الحافة وانزلقت العجلات الأمامية فى الرمال مع دفعة كبرى

من الطين تجمعت على مقدمة السيارة. طبيعة الأرض الغريبة جعلت السيارة تبدو كأنما هى سفينة فى البحر. تباطأت فى حركتها ثم استدارت كما لو إنها فوق مائدة دوارة، حتى جابه الحاجز الخلفى الناحية البعيدة من الفخ ثم توقفت. شاهد إبراهيم مارى وهى تسرع قادمة حتى الحافة. جرت سريعا لدرجة إنها غطست حتى ركبتيها فى الطين. استطاعت أن تخلص نفسها بصعوبة، ثم حملقت والقلق يأخذ بتلابيبها لتلك السيارة الجانحة.

جذب إبراهيم نفسه من خلال فتحة الشمس العلوية وجلس فوق السقف، لكن المسافة كانت بعيدة عن الحافة الصلبة. سمع نيكلسون يضحك عليه فى الداخل. زعق إبراهيم:

– لا أستطيع الوصول إليك!

وقفت هى على الحافة تعصر فى يديها، ثم فجأة بدأت فى تمزيق فستانها. سمعت ظرطة هائلة عندما استقرت السيارة كلها وسط الطين السائل، خلفية السيارة هبطت لمسافة قدمين وتقريبا غطى الطين نصف الشباك الخلفى. استمرت مارى فى تمزيق فستانها وهى فى قمة الذعر. ترددت قليلا ثم نزعت عنها حمالة صدرها أيضا، ثم شرعت فى تحويل الملابس الممزقة إلى حبل. كان فى مقدور إبراهيم أن يشاهد ما تفعله، لذا خلع دشداشته ووضع فيها قدر من الطين وألقى بها إليها فوصلت الحافة، هذه أيضا مزقتها وأضافتها إلى الحبل.

كانت الآن عارية ما عدا الكلوت، لذا استمر نيكلسون فى رميها بكل الكلام القذر:

- كله.. اقلعى كله يا بنت الكلب.

كان يشبه عصبجية الكرة وقد تجمع الزبد حول فمه.

شعر إبراهيم بالمياه الطينية تغطى قدميه، مقدمة السيارة بدأت الآن تغطس. ظل هو فوق السيارة وأقفل فتحة الشمس، ثم جرى وغطس فى الطين أمامه، لكنه كان فى وضع السابح، لكنه مع ذلك انزلق فى الطين. أدركت مارى أن لديها فرصة وحيدة الآن، هى فرصة ضئيلة للغاية، ثم وهى تتلو صلواته ألقت بالحبل نحو إبراهيم.

استطاع هو أن يمسك بالحبل وأخذ يجذب نفسه نحو الشاطئ، لكن وهو يشد الحبل، جذب معه مارى وكادت أن تغطس فى الطين بينما هى تبكى بحرقة محبطة. ترك هو الحبل وحاول أن يجدف خلال الطين، لكن هذا الطين بدأ فى جذبه إلى الأسفل. أصبح مدفونا حتى صدره، لم يكن فى مقدوره سوى أن يراقب مارى وهى تحملق فيه عاجزة، شفتيها تتحركان فى صلوات متوالية تأمر فيها القوات العلوية أن تتدخل، بينما انشغل نيكلسون فى الخلف فى إطلاق كل العبارات النابية.

مع ذلك، لم يحس إبراهيم بالذعر، اذا كان مقدرا له أن يموت، إذن فليحدث هذا بكل ترحاب. ألم يتمنى ذلك بكل قلبه منذ يومين فقط، ولم يرغب فى شىء سوى أن يموت؟

"بسم الله الرحمن الرحيم"، بينما ينطق بذلك، مست قدميه أرضا صلبة. ببطء وبمعاناة شديدة أخذ يجذب نفسه تجاه مارى. أخذت تنظر مأخوذة بينما جسد إبراهيم، بشكل اعجازى، يظهر فجأة من الأعماق كأنما هو كائن بدائى، سرواله يكاد أن ينفصل منه بسبب ثقل الطين.

وقف كل من مارى آن وإبراهيم بجوار بعضهما والطين يغطيهما وتقريبا عريانين يرتعشان على حافة الرمال المتحركة يحملقان فى الرينجر وهى تغطس حثيثا. سألت هى:

– متأكد أنها سوف تغطس كلها؟

قبلما يجيب إبراهيم، تحركت كل السيارة إلى الأمام وأصدرت ظرطة عالية أخرى. تقوس السقف واتجه نحو الأسفل وتقريبا نصفه اختفى.

سمع نيكلسون الصوت وشعر بحركة السيارة. تأكد انه مقدم على الموت. توقف عن الضحك، لكنه ظل يحدق بثبات من خلال الزجاج الأمامى مراقبا ثنائى الموت الذين ينظران نحوه.

لم يخطر فى أغرب أحلامه أن يتخيل رؤية هذين العاريين أمامه هكذا، حيزبون مقددة وشاب عربى يغطيهما الطين. اختفى النهار من داخل السيارة، ولم يعد قادرا على رؤية شىء. كان يحس بحركة هبوط السيارة، لذا شعر بالغثيان يتملكه وهو يدرك أن السيارة تتجه إلى الأسفل بكل ثبات.

أخبر نفسه بصـــوت عال "إذن هـــذه هى النهـــاية!". شعر بحر لا يطاق، أخذ يهمس لنفسه ببعض من أبيات أغنيه "الإبحار"، ثم انتقل إلى أغنية "أرض الرجاء" و"المجد الأعظم"، لكنه فجأة انتبه لهذا الصدى المكتوم الفارغ داخـــل السـيـــارة. بــدأ يقاوم بكل جهده، "حر قـــاتل، لا يحتمل! غير قادر على التقاط أنفـــاسى!". بكل ما أوتى من قـــوة أخـذ يجـذب يديه لعـــله يخلصــهـا، لكن بلا فـــائدة. بدأ فى الصــراخ وانتابه ذعر مخيف عندما استمع لصراخـــه، أخذ يصرخ لأن أحدهم كـان يصـــرخ!

ثم تهشم الزجاج الأمامى. كمية من الطين اندفعت نحو وجهه كأنما هى فطيرة من الكستر. "سوف أمسك أنفاسى!"، هذا ما فكر فيه، لكنه أدرك بعد فوات الأوان أنه كان يصرخ بينما الطين يغلفه. عند استكماله الزفير، علم أنه ليس لديه أى خيار سوى أن يأخذ نفسا آخر، لذا اضطر أن يبلع قدرا هائلا من الطين. رئتيه امتلأت وبصق طينا ودما. فتح عينيه محدقا فى طين أسود يحيط به فى كل جانب. خلال الرائحة الغبية الطينية السوداء المحيطة به، تخيل ثلاجته فى فيلته وزجاجات الشيرى المثلجة الفاخرة التى تراصت فى المقدمة وكذلك الجبنة الفرنساوى المجاورة لها. الآن، هو منهمك فى حرب غير متكافئة مع ذلك الطين الذى اقتحم داخله وما زال يقتحم. أخيراً كسب الطين المعركة وبمعاناة شديدة سلم سيمون نيكلسون روحه إلى خالقه.

راقب كل من إبراهيم ومارى الرمال المتحركة وهى تعود إلى هدوئها، ثم رجعا بكل هدوء إلى منزل بيتر على أرجلهم مراعين أن لا يشاهدهم أحد، لكن الأمطار كانت تهطل بغزارة بحيث انهما استطاعا الاختباء خلف ملايين من أوتار هارب تعد بالملايين. الأمطار غسلت أجسداهما وهما يسيران بجوار بعضهما، قال إبراهيم:

- يمكن أن نجد ملابس مناسبة فى منزل بيتر.

هزت مارى آن رأسها، شعرت بالرضى يغمرها لشعورها بأنها قد أدت خدمة جليلة لأهالى بلدة سفينة. سألت هى:

- ما الذى سوف تفعله الآن يا إبراهيم؟

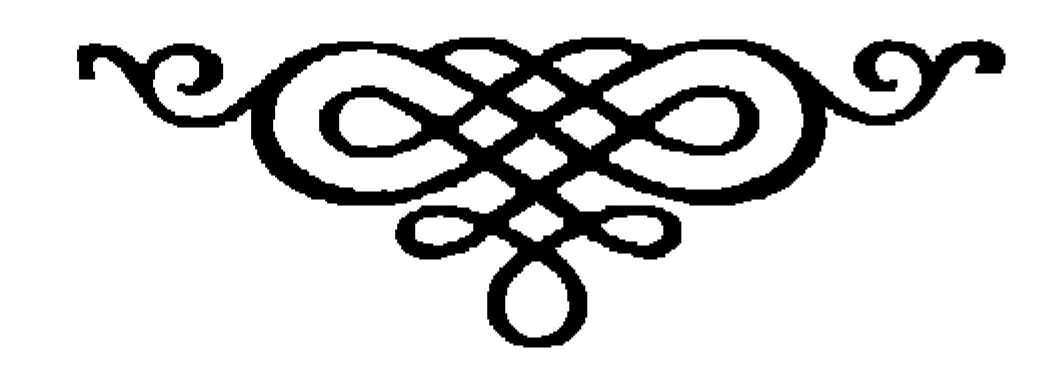
- سوف أظل مع بيتر حتى يشفى تماما، ثم سوف أعود إلى قريتى جهيل - على الأقل لكى أودعهم هناك.

داخل المنزل، انشغل إبراهيم باختيار الملابس التى تصلح لهما ليعودا إلى سفينة على الأقدام، بينما تفكر مارى آن فى قصة يمكن أن ترويها اذا وجه لها أى سؤال، شاهدت عدد من السحالى تتحرك على الحائط، صاحت:

- انظر يا إبراهيم، أليس مدهشا قدرة هذه الكائنات على البقاء ساكنة بالرغم من الجلبة التى نحدثها هنا فى الداخل؟

وافقها إبراهيم وأن هذا من أعاجيب الطبيعة، وأن عليها أن تعرف بأن السحالى تنتظر هكذا لكى تراقب الحشرات ثم تنقض عليها لتأكلها عندما تقترب منها.

راقبت مارى آن منظر السحالى محبطة، ابتسم لها إبراهيم وناولها بعض من ملابس بيتر لترتديها.



(١٨)

الآن، حاول مرة أخرى.

لا قمر ساطع هذه الليلة. جدف بقاربك مبتعدا عن شاطئ سفينة. استمع للمياه وهى تخبط جوانب قاربك. أنصت إلى الأصوات الإنسانية التى تصلك خلال المياه فى الظلام، كذا لاحظ قفزات الأسماك، الجواهر الفسفورية المتلألئة التى يمكن أن ترضى زوجة صياد لكنها تتمنى أن تتحول تلك إلى جواهر حقيقية، وهى ما زالت تدق وتختفى. هوذا النجوم تحدق بكل وقار أسفلها وتصنع أشكالا فسفورية أيضا فى الماء.

لا ضوء يفسد المنظر. مستعمرة نيكلسون يغمرها الإظلام والأنوار الضئيلة مصدرها الشموع واللمبات الكيروسينية التى أشعلها أناس سفينة، هذه أيضا تستكمل ثلاثية الجواهر التى تومض من خلال العناصر الثلاثة التى هى أمامك.

اغطس فى الماء! ارقص ولا تعول هما وتناسى تماما ما حدث وما سوف يحدث.

إذا حدث، وأنت تلعب هكذا داهمتك الأفكار، أرقبها بحيادية ولا تدعها تفسد عليك متعتك السحرية.

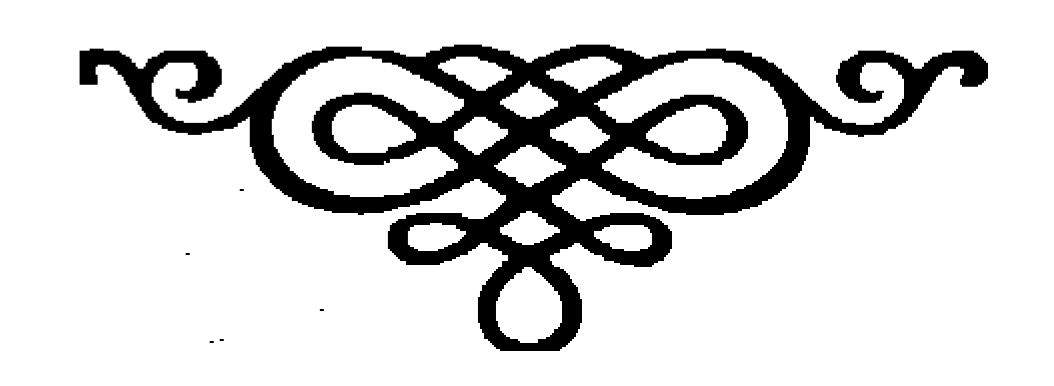
من المؤكد أن هناك سفينة يابانية ضخمة سوف تخوض عباب المحيط وتصل حيث تلعب أنت الآن محملة بتاج ضخم ينبثق منه أنابيب مختلفة الأشكال والألوان، به سوف تصدح الأنوار الكهربائية مرة أخرى وتنير ليالى سفينة. مؤكد أيضا أن النظام والقانون سوف يسيطران على الأوضاع مرة أخرى.

ربما تتحسن الأمور، أو تسوء، أو تصبح أفضل من الصورة التى تخيلتها الآن. الخط الأسود الذى يمثله الطريق تأكيدا لن يقف ساكنا فى مكانه إلا عندما يصل إلى مقصده النهائى. اذا غادر أحد الخبراء سفينة وعاد بعد عام أو اثنين فى زيارة اشتياق وحنين، سوف يندهش عندما يلاحظ أن منازل الأصدقاء قد اختفت وسط مبان ضخمة كثيفة وعالية...

ليست هى سوى الأساطير التى يرسمها وينسجها الناس لكى يغطوا أنفسهم من عرى. سحر ما نشاهده على كوكبنا، وسوف تظل قائمة وصحيحة ولا غبار عليها. النهر الذى لا يصل إلى البحر، لكنه يصب إلى ما لا نهاية فى بحر الرمال المتحركة، سوف يسبب دائما التخمينات والظنون. السحالى سوف تخلق أفكارا فى عقول الناس بينما آخرين يضحكون عندما يستمعون لتلك الأفكار.

المحيط الذى يطلع وينظر على كل ما هو ماثل أمامه، هو أكثر عناصر الوجود غفرانا، سوف يهدأ بكل براءة مرة أخرى ثم يفتح فرجة عظمى بين أمواجه ويقفلها بكل عظمة وجبروت ليمحو الاضطراب الذى أحدثه أبحار السفن اليابانية أو خطاب أرسله خبير أو دموع ذرفها بعض من الصيادين.

(تمت)



المـؤلـف فـى سـطـور :

مايكـل كـارسـون

– ولد مـايكل كـارسـون فى نيـويرايتـون عـام ١٩٤٦، وتخـرج فى جامعية أكسفورد. بعـــدما قضى عشـــرين عامًا من عمــره يـــدرس اللغـة الإنجليزية كلغة ثانية فى الدول العربية (السعودية والإمارات)، كذلك فى الدول الأفريقية والآسيوية.

– بعد عودته إلى وطنه، اشتغل فى تدريس مهنة الكتابة والتعليم فى بعض الجامعات فى إنجلترا، منها جامعة ليفربـول ولانكستـر، كذلك أسهم بقوة فى مؤازرة الكتاب الأفريقية.. ويعمل فـى أوقات فراغه كمنقذ للسابحين فى البحر.

– منذ عام ١٩٨٦ كتب العديد من الروايات، كذا عدد من القصص القصيرة. ومن أهم رواياته، بالإضافة إلى الرواية التى بين أيديكم:

- مص شربات الليمون.
- تعرية طيور البنجوين.
- أمـركة اليـويو.
- المـوت الأنيـق.
- أخـوة السلاح.
- فارس القلب الملتهب.

المترجم فى سطور :

سمير محفوظ بشير

- حصل على بكالوريوس تجارة ١٩٥٨ ... كان يعمل محاسباً فى الجمعية التعاونية للبترول.

- ولد فى ١٩٣٧/٣/٢٩

- النشاط الفنى:

كتبت للمسرح الكوميدى.. وتم تصوير مسرحيتين فى أبوظبى عام ١٩٨٠ باسم: بس فينك يا عريس، عش الغرام.

- الترجمة:

ترجمت عدداً من الكتب لدار ميريت عند صديق الأستاذ محمد محمد هاشم منها:

- قصة جوجل. تأليف: بيتر فايس.
- عن الكتابة. تأليف: ستيفن كنج.
- احتفال. مؤلفة ذات أصل أمريكى أصلى (هنود حمر).
- ساعة عدل واحدة. دار الهلال.
- أبى طويل الساقين. المركز القومى للترجمة.
- شحات المصرى. المركز القومى للترجمة.

الإشـــراف اللغوى : حسام عبد العزيز
الإشــراف الفنـــى : حســـن كـــامـــل



كان انبعاث الضوء الكهربائى للمرة الأولى فى المنطقة النائية من إمارة "رأس الصرة" الخليجية، سبباً فى إفساد الليالى العربية المبهجة التى كانت تعمر قلب رئيس المباحث الإنجليزى هناك وهو المدعو "نيكلسون"، لقد شعر أن سلامه وأمنه قد انتهك، كما شعر أن استكمال رصف الطريق الأسفلتى الجديد الذى سوف يربط منطقته النائية بعاصمة الإمارة، سوف يحضر معه أناسا جددا وخبراء وتغييرات متعددة، وهذا سوف يهدد كل ما يشعر به من سطوة وسيطرة، بينما هو قابع داخل مستعمرته المجهزة بكل وسائل الراحة والرفاهية. إنه بالفعل مصمم أن يمنع كل هذه التطورات القادمة مهما كلفه الأمر من جهد وجلد.

أيضاً يفد إلى عاصمة تلك المنطقة النائية، وهى بلدة "سفينة"، المفتش المدرسى الإنجليزى اللطيف الساذج "بيتر درورى"، إنه بارع فى مجال التدريس، لكن ليس هناك شىء تعلمه يمكن أن ي
يجابه كل هذه الأحداث التى اصطدم بها فى ذلك الركن ال
الجزيرة العربية.

هناك أيضاً ذلك الشاب الصغير "إبراهيم"، وهو ابن رج
صيد السمك، ويقطنان قرية "جهيل" القريبة. يجد هذا الو
فجأة حائراً ما بين عوائده القديمة والمعلومات الجديدة التى انها
عندما عمل خادماً عند "نيكلسون"، وسوف تصبح حياته
الجزيرة العربية من الضحايا الدائمين لهذه الصراعات العاتية
مسرحها بلدة "سفينة"...ما بين الأصدقاء والكفار.